مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان
AL BAYAN

السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣١١ . رجب ١٤٣٤ هـ . مايو - يونيو ٢٠١٣ م

مجازر
طائفية!

البيان تحاور
رئيس المكتب السياسي
للجبهة الإسلامية السورية

الإصلاح
بين الدعاة

إعادة الصحوة..
رؤيــة مقترحة

قواصم الاختلاف الدعــوي

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

والعديد من الخدمات المميزة | اتجاه القبلة | أوقات الصلاة | تقويم: هجري/ميلادي | واجهه خدمية مميزة

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk

مجلة
البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

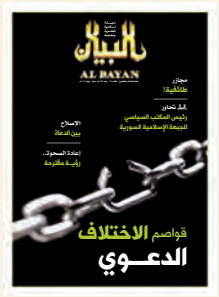

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام بن سعد داود

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk
YouTube | | |

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٦ **الإصلاح بين الدعاة**
التحرير

العقيدة والشريعة

١٠ **الشام.. بين بركات السماء وإفساد الأشقياء**
حماد القباج
١٤ **حجم التشويه التاريخي للعلاقة بين آل البيت والأصحاب**
أ. د. محمد أمحزون

قضايا دعوية

١٦ **الضمانات الوقائية لمنع شيوع الفاحشة**
محمد أكجيم
١٩ **علّموا الأطفال وهم يلعبون**
عبد الله بن محمد

قضايا تربوية

٢٢ **إعادة الصحوة.. رؤية مقترحة**
د. محمد بن عبد الله الدويش

حوارات

٢٦ **حوار مع رئيس المكتب السياسي للجبهة الإسلامية السورية**
أجرى الحوار: مجلة البيان

ملف العدد

٣١ **أثر الاختلاف على عقيدة الولاء والبراء**
إبراهيم الأزرق
٣٨ **الإسلاميون.. بين عواصم الائتلاف وقواصم الاختلاف**
عبد العزيز كامل
٤٤ **الانتساب لأهل السنة وتقليل النزاع**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
٤٨ **مَعالِمُ في طريق الائتلاف**
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
٥٢ **الإرشاد إلى سعة الصدر في مسائل الاجتهاد**
أبو الحارث محمد المطري

حوارات

٥٧ حوار مع قائد جبهة (لواء الإسلام) السورية
أجرى الحوار: هيثم الكناني

المسلمون والعالم

٦٣ الحراك الشعبي قبل الحويجة
فلاح المعاضيدي

٦٦ الصفويون والكرد.. انتهاكات الماضي ومخاوف المستقبل
فرست مرعي

٧٠ بنجلاديش والانتقام من الهوية الإسلامية
مجدي داود

٧٣ مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

عين على العدو

٧٨ كيف اغتال الجيش الصهيوني الشهيد الجعبري؟
د. عدنان أبو عامر

تاريخية

٨٠ ابن حبيب وتأسيس المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي «الواضحة نموذجاً»
د. نورالدين بوكرديد

بأقلامهن

٨٦ تدريس العقيدة على طريقة الربانيين
سحر شعير

قراءة

٩١ كيف تفرِّغ آلية الديمقراطية الشريعةَ من محتواها؟
مصطفى الحسناوي

الورقة الأخيرة

٩٤ الانتصار في المناطق الساخنة
د. أشرف عبد المنعم

[كلمة صغيرة]

مجازر طائفية!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.. وبعد:

فقد كانت تحركات (حزب الله) محدودة وحذرة في أول الثورة السورية، ثم بدأت تتصاعد ليصبح الحزب طرفاً رئيساً في ثلاثية (القتل - الدمار - والتهجير)، وكشف بكل صفاقة وجهه الطائفي البغيض الذي كان يخفيه بجلباب ما كان يسميه (المقاومة)، ولم يتردد رئيس المجلس التنفيذي لحزب الله، نبيل قاووق، للقول بصراحة: إن مشاركة الحزب في القتال داخل الأراضي السورية واجب وطني للدفاع عن لبنانيين يقطنون في القرى السورية!

في الشهر الماضي تزامنت في أسبوع واحد مجزرتان مروّعتان؛ الأولى: مجزرة جديدة الفضل في سورية، والثانية: مجزرة الحويجة في كركوك العراق، والجامع بينهما الروح الطائفية العدائية التي استحضرت جميع أدوات الكراهية والتوحش والعداء للسنَّة وأهلها!

مجازر في إثر مجازر.. دماء الأطفال، وأشلاء النساء والضعفة، تتقطع لها الأفئدة ألماً وحزناً.

أرخص شيء تراه في هذا المشهد: دم المسلم السني، وإياك ثم إياك أن تتحدث عن الطائفية وتواطؤ إيران وحزب الله والمليشيات الشيعية العراقية!

لقد أثبتت هذه المجازر أنَّ الحل لا يُصنَع في أروقة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، ولا في مؤتمرات أصدقاء سورية، ولا في استجداء القوى الإقليمية والدولية، ولا في المصانعة السياسية والدبلوماسية؛ وإنما يكون بسواعد الأبطال الشرفاء من أبناء الشعب السوري، فهم أبرّ قلوباً وأصدق لهجة من كل المزايدين والمتفرّجين على الدماء والأشلاء؛ فاثبتوا أيها الأبطال، ورصوا صفوفكم، فقوتكم في اجتماعكم ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

الإصلاح بين الدعاة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.. وبعد:

فإن الإصلاح بين الناس من أعظم القربات التي تواترت النصوص الشرعية على تأكيدها والحثّ عليها والتحذير من عواقب مخالفتها، ومن ذلك قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأمر النبي ﷺ بالإصلاح، وحذَّر من تركه، فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)[١].

وقال ﷺ: (صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا)[٢].

وأكدت سنة النبي ﷺ العملية على السعي في الإصلاح، ومن ذلك: أنَّ أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: (اذهبوا بنا نصلح بينهم)[٣]. وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أنَّ ناساً من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يُصلح بينهم[٤].

ولعظم المصالح المترتبة على تأليف القلوب، قال ﷺ: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً)[٥].

ومن أعظم شعب الإصلاح: الإصلاح بين العلماء والدعاة والجماعات والتجمّعات الإسلامية؛ لأن الفساد المترتب على تهاجرهم وتدابرهم له آثار متعدية على الدعوة والدعاة؛ ولذا كان التواصي بإصلاح ذات البين وقطع مادة النزاع والتدابر من الأوليات المهمة التي ينبغي إشاعتها وترسيخها في الأوساط العلمية والدعوية، وقد بيَّن النبي ﷺ أن الناس في هذا السبيل صنفان: مفاتيح للخير، ومفاتيح للشر، فقال عليه الصلاة

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٧٥٠٨)؛ والترمذي في كتاب صفة القيامة رقم (٢٥٠٩)؛ وأبو داود في كتاب الأدب رقم (٤٩١٩)؛ وصححه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٣٥٤٤)؛ والبزار في كشف الأستار رقم (٢٠٦٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٨٣) عن إسناد البزار: فيه عبد الرحمن العمري وهو متروك، لكنه عزاه إلى الطبراني من عدة طرق؛ وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٨١٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٠)؛ ومسلم في كتاب الصلاة رقم (٤٢١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٢)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٥).. وقد اختلف العلماء في المقصود بالكذب الجائز على قولين: فالخطابي يرى جواز الكذب بقصد الإصلاح مطلقاً، والطبري يرى أن الكذب غير جائز أصلاً، وإنما الجائز هو التعريض. انظر: شرح مسلم للنووي (١٦/١٥٨)، وفتح الباري (٥/٣٠٠).

والســـلام: (إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشـــر، وإنَّ من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه)[1].

فمفاتيح الشـر: يســعون بين الدعاة بالنميمة، والتحريش بين المصلحين، ويســتثيرون النزاعات والخصومات، ويستدعون الخلافات مهما دقَّت، ويُلبسون ذلك - أحياناً - لباس النصيحة والغيرة على الدين وأهله، وهؤلاء من أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ أبغضكم إليَّ المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الملتمسون للبُراء العنت)[2].

ومفاتيـح الخيـر: الذين يســتجيبون لأمر الله - تعالى - بالإصـــلاح، ويهتدون بهدي النبي ﷺ فـــي حرصه على المحبة وأواصر الأخوة ووحدة الكلمة وتأليف الصفوف.

وشـــتان شتان بين من يكون معول هدم يخرق سفينة الدعاة ويشـــرخ وحدة الأمة بالقيل والقال، وإثارة الأغلوطات، والتفريق بين الأحبة؛ ومن يبني ويرص الصفوف، ويجمع شتاتها، ويصلح الله على يديه شـــعث الأمة! وفي هذا البـــاب يقول ابن تيمية: (تعلمـــون أن من القواعد العظيمة التي هـــي من جماع الدين: تأليف القلـــوب، واجتماع الكلمة، وإصـــلاح ذات البين.. وأهل هذا الأصل هم أهـــل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة)[3].

أخلاق الإصلاح بين الدعاة:

الأخلاق العظيمة المؤسِّسة للإصلاح بين الدعاة كثيرة جداً، لعل من أهمها:

أولاً: السماحة:

وهي من محاسن الأخلاق التي دلَّت عليها الشريعة المطهرة، وقـــد ثبت عن النبي ﷺ قوله: (رحم الله رجلاً ســـمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى)[4]. والبيع والشراء والقضاء هي محل المفاصلـــة - غالباً - في العلاقات بين الناس، ولهذا نص عليها النبي ﷺ، لكن الســـماحة مطلوبة محمودة في عامة العلاقات الاجتماعية.

والســماحة تعنـي: الســـهولة ولين الجانب[5]، وهما سبيل الإصلاح والتآلف، ومقابلهما: الشـــح والتعنت، وتأمّل قول الله - تعالى - في العشـــرة الزوجية: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّـــحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وهذه الآية عامة في جميع العلاقات بين الناس، فالعبرة بعموم اللفظ، وفي شـــرح هذه الآية يقول الشيخ السعدي: (جبلت النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له. فالنفوس مجبولة على ذلك طبعـــاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصـــوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهـــو بذل الحق الذي عليـــك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك. فمتى وافق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل - حينئذ - عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشـــح من نفسه فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرشى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر)[6].

وعندما نتأمل واقع الدعوة والدعاة، ســـتجد أنَّ من أعظم أســـباب الفرقة والتنازع ضعف السماحة، وشيوع أخلاق الشح، نسأل الله السلامة!

ثانياً: العفو:

فالعفو مـــن أعظم أبواب الإصلاح، فمتـــى طهرت القلوب وســـمت الأخلاق رأيت العبد يترفع عـــن الخصومة والانتصار للنفـــس، ويبادر إلى العفو والصفـــح، وإن أخطأ عليه الآخرون، قال الله - عز وجل -: ﴿وَسَـــارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِـــينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَـــنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـــنِينَ﴾ [آل عمـــران: ١٣٣ - ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقد وصفت عائشـــة - رضي اللـــه عنها - خلق النبي ﷺ فقالت: (لا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح)[7].

إنَّ كثيراً من الخلافات تتجذر في الأوساط الدعوية بسبب امتلاء الصدور بالشحناء والتنافس الحزبي المذموم، والعفو هو السبيل الذي يزيل الاحتقان ويطهر النفوس من حظوظها، وقد وصفـــه الإمام القرطبي بقوله: (العفـــو عن الناس أجلُّ ضروب فعل الخير)[8].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة رقم (٢٣٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٣٣٢).
(٢) حسنه لغيره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٨٤٩)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٢٤).
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٥١)، وانظر: (٢٢/ ٢٥٤).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب البيوع رقم (٢٠٧٦).
(٥) انظر: لسان العرب، مادة (سمح).
(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص ٢٢٤-٢٢٥).
(٧) أخرجه أحمد (٤٢/ ٢٥٦)؛ والترمذي في كتاب البر والصلة رقم (٢٠١٦)؛ وصححه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.
(٨) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ٢٠٧٩).

وظاهر العفو الضعف والعجز، وهذا يدفع بعضهم للاعتزاز بالنفس والإصرار على حقوقها؛ لكن حقيقته السمو والتخلق بأخلاق ذوي المروءات، وقد قال النبي ﷺ: (ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً)[1].

ثالثاً: الدفع بالتي هي أحسن:

فحين تدفع السيئة بسيئة مثلها، يزداد الخلاف وتمتلئ الصدور بالضغينة، ومن ثم تتمزق الصفوف ويتعذر الإصلاح؛ ولذا كان المنهاج القرآني الدعوة إلى الترفع عن الخصومات ودفع السيئة بالحسنة، قال الله – عز وجل –: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ولأن هذا خلق عزيز لا يقوم عليه إلا الربانيون قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وهذا الخلق من أعظم أبواب الإصلاح، فالعاقل يدير خلافاته مع الآخرين بحكمة وهدوء، ويجيد ترويض المخالفين بالإحسان إليهم، ويحسن تحويلهم بحسن خلقه من معادين إلى أولياء مناصرين.

رابعاً: الحذر من العصبية:

التعصّب الحزبي والمشيخي من أشد دواعي الفرقة والاختلاف، كما أنَّ التجرد في طلب الحق، والموضوعية في تقويم الآراء والاجتهادات؛ من أعظم أبواب الإصلاح وتأليف القلوب. وقد حذَّر النبي ﷺ من العصبية العمياء بقوله: (من نصر قومه على غير الحق؛ فهو كالبعير الذي ردي، وهو ينزع بذنبه)[2].

فالحق يقبل وينصر من كل من قاله كائناً من كان، كما أن الباطل يرد على صاحبه كائناً من كان، دون اعتبار للعصبيات والأهواء الحزبية والمشيخية، وإذا أردت أن تقف على أنموذج سامق من التجرد والإنصاف، فتأمّل قول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: (من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً، ومن أتاك بباطل فارده وإن كان حبيباً قريباً)[3].

خامساً: المبادرة:

كثير من الخلافات تتجذر في صفوف الدعاة والتجمّعات الإسلامية بسبب التعالي والمكابرة، حيث يرى أحدهم مفاسد الفرقة والاختلاف، فيحبسه كبره عن المبادرة إلى الإصلاح، ويحمّل الآخرين المسؤولية، وينتظر منهم ما لا ينتظره من نفسه! وقد وصف النبي ﷺ هذا بقوله عن المتهاجرين: (يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا)، ولهذا كانت المبادرة إلى الإصلاح من المحامد التي حثَّ عليها النبي ﷺ بقوله: (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)[4].

ولا شك أنَّ المبادرة إلى الإصلاح تتطلب سعة صدر، وتواضعاً، وتطامناً، وحرصاً على الخير، وتأمل حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ. فقال: (لئن كنت كما تقول فكأنما تُسفهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك)[5].

وهذا الحديث وإن كان في صلة الأرحام، إلا أنَّ الصلة بين الدعاة وطلبة العلم شأنها عظيم، ومفاسد تقاطعهم كبيرة.

إن الإصلاح بين الدعاة يتطلب أفقاً واسعاً، ونظراً عميقاً، وبُعداً عن المحاباة أو الجور، قال الله – تعالى –: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ولا يتحقق ذلك القسط إلا بسلامة القصد، والتجرد من الأهواء، والحذر من محاباة أحد الأطراف؛ ولهذا عندما أمر الله – عز وجل – بإصلاح ذات البين صدَّر ذلك بالأمر بالتقوى، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]؛ لأن من اتقى الله – عز وجل – حق التقوى حَسُن قصده وترفّع عن الخصومة والمنازعة، ومن عَلِم الله – عز وجل – منه التجرد في الإصلاح؛ أعانه وسدّده ورفع قدره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

نسأل الله – عز وجل – أن يجمع قلوبنا على الطاعات، ويؤلِّف بيننا على الصالحات، ويعيذنا من الفرقة والاختلاف.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأدب رقم (٦٥٩٢).
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم (٥١١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي صحيح الجامع رقم (٦٥٧٥).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم (٨٥٣٧).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب رقم (٦٠٧٧)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٦٠).
(٥) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٥٨)، وقوله: كأنما تسفهم المل، أي كأنما تطعمهم الرماد الحار.

بشـرى لطـلاب وطالبـات العلـم

أول أكـاديميـة متخصصـة في مجالـها
تعنى بصناعة المفسر وتعتمد التعليم
عن بعد

أكاديمية تفسير
TafsirAcademy

أحب الناس الى الله أعلمهم بما أنزل "مجاهد"

١٠ سنوات
من الحوار العلمي المميز

- التفسير وعلوم القرآن
- الانتصار للقران الكريم
- القرآءات
- الرسائل الجامعية
- الكتب والاصدارات
- البرامج الإعلامية

www.tafsir.net/vb

قالو عن الملتقى:

يعتبر ملتقى أهل التفسير بوابة الباحثين في الدراسات القرآنية، وذلك بجمعه لثلة من المتخصصين من مختلف ربوع العالم، حيث يوسع دائرة التواصل بين الباحثين المتخشين، فضلًا عما يزخر به من معلومات جعلته مؤهلًا لتأصيل الدراسات القرآنية، وتجديد البحث العلمي فيها.

أ.د. أحمد بزوي الضاوي
جامعة شعيب الدُكالي

الشام..
بين بركات السماء وإفســـاد الأشقياء

■ حماد القباج

حين نتحدث عن الشام فإننا نتحدث عن قطعة من هذه البســيطة تحددت جغرافياً عند المؤرخين العرب؛ كياقوت: بطول يمتد من الفرات إلى العريش المتاخم للدّيار المصريّة، وأمّا عرضها فمن جبلي طيء في الحجاز إلى البحر الأحمر (الأبيض المتوسط).

وتشـــمل بالمفهوم الحديث كلاً من: فلســـطين الأصلية وسورية ولبنان والأردن.

وفي كثير من الأحيان يطلق على الشـــام، دمشق؛ لأنها عين بلاد الشام، كما يطلق على القاهرة مصر. ودمشق من أقدم مدن العالم.

هذه البقعة من الأرض بقعة مباركة، وقد وصفها بذلك خالقها ســـبحانه في خمس آيات؛ وهي على ترتيب ســـور المصحف:

قوله تعالى في قصة موســـى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَـــوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْـــتَضْعَفُونَ مَشَـــارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَـــا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّمَا أُورِثُوا مَشَـــارِقَ أَرْضِ الشَّـــامِ وَمَغَارِبَهَا، بَعْدَ أَنْ أُغْرِقَ فِرْعَوْنُ فِي الْيَمِّ".

وقوله تعالى: ﴿سُـــبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْـــجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْـــجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، قال: "وَحَوْلَهُ: أَرْضُ الشَّامِ".

وقوله تعالى في قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، "وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا نَجَّاهُ اللَّهُ وَلُوطًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَالعراق".

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّـــتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبيـــاء: ٨١]، "وَإِنَّمَا كَانَتْ تَجْرِي إِلَى أَرْضِ الشَّامِ الَّتِي فِيهَا مَمْلَكَةُ سُلَيْمَانَ".

وقَوْله تَعَالَى فِي قِصَّةِ سَـــبَأٍ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُـــمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّـــيْرَ﴾ [ســـبأ: ١٨]، "وَهُمَا كَانَا بَيْنَ الْيَمَنِ مَسَاكِنِ سَـــبَأٍ وَبَيْنَ مُنْتَهَى الشَّامِ مِنْ الْعِمَارَةِ

الْقَدِيمَةِ كَمَا قَدْ ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ".

وأسباب هذه البركة كثيرة؛ وعلى رأسها أن كثيراً من الأنبياء من الشام، والشام هو مهاجَر إبراهيم، ومَسْرَى محمد - عليهما الصلاة والسلام، وَمِنْهَا مِعْرَاجُهُ، وفِيهَا الطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى، وفيها الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى.

ومن أعظم أسباب بركة هذه القطعة؛ أن النبي ﷺ دعا لها بالبركة: "اللهم بارك لنا في شامنا" متفق عليه.

ومعنى البركة: ثبوت الخير وكثرته. وبركة الشام قسمان: بركة في أمور الدين، وبركة في أمور الدنيا:

أما البركة في أمور الدين؛ فمنها بالإضافة إلى ما سبق؛ أن بها الطائفة التي أخبر النبي ﷺ أنها تبقى متمسكة بالحق:

عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»، قال معاذ: وهم بالشأم.

قال شيخ الإسلام: "بِهَا طَائِفَة مَنْصُورَة إلَى قِيَام السَّاعَة، وَهِيَ الَّتِي ثَبَتَ فِيهَا الْحَدِيثُ فِي الصِّحَاحِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ وَغَيْرِهِ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)، وَفِيهِمَا عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: "وَهُمْ فِي الشَّام". وَفِي تَارِيخِ الْبُخَارِيِّ مَرْفُوعًا قَالَ: "وَهُمْ بِدِمَشْقَ". وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)، قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: أَهْلُ الْمَغْرِبِ هُمْ أَهْلُ الشَّامِ.

وَهُمْ كَمَا قَالَ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ فِي سَائِرِ الْحَدِيثِ بَيَانَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الشَّام. الثَّانِي: أَنَّ لُغَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلَ مَدِينَتِهِ فِي "أَهْلِ الْمَغْرِبِ" هُمْ أَهْلُ الشَّام وَمَنْ يُغَرِّبُ عَنْهُمْ. كَمَا أَنَّ لُغَتَهُمْ فِي أَهْلِ الْمَشْرِقِ هُمْ أَهْلُ نَجْدٍ وَالْعِرَاقِ؛ فَإِنَّ التَّغْرِيبَ وَالتَّشْرِيقَ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ، فَكُلُّ بَلَدٍ لَهُ غَرْبٌ قَدْ يَكُونُ شَرْقًا لِغَيْرِهِ وَلَهُ شَرْقٌ قَدْ يَكُونُ غَرْبًا لِغَيْرِهِ. فَالِاعْتِبَارُ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا كَانَ غَرْبًا وَشَرْقًا لَهُ حَيْثُ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ" اهـ.

ومن بركاتها في أمور الدين أن الإيمان يكون بها عند وقوع الفتن:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَلَا إِنَّ الإِيمَانَ - إِذَا وَقَعَتِ الفتن - بالشام" [أخرجه الحاكم وصححه].

وبسبب هذه البركة تبسط الملائكة أجنحتها:

عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للشام». قلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: «لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها» [أخرجه الترمذي وحسنه].

وبسبب هذه البركة رغب النبي ﷺ في سكنى الشام:

عن ابن حوالة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم واسقوا من غدركم (جَمْعُ غَدِيرٍ وَهُوَ الْحَوْضُ)، فإن الله توكل لي بالشام وأهله». [أخرجه أحمد وأبو داود].

قلت: ومنه ذهب غير واحد من أهل العلم إلى استحباب سكنى الشام والانتقال بالذرية والعيال إلى معاقلها.

والقسم الثاني: البركة الدنيوية، وهي داخلة في معنى الآيات المتقدمة:

قال القرطبي: "وقيل لها مباركة؛ لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها".

قلت: وقد ألف في هذا الباب الشيخ تقي الدين ابن البدري (ت. ٨٩٤ هـ) كتابه: "نزهة الأنام في محاسن الشام"؛ وصف فيه محاسن وجماليات الشام تاريخياً وحضارياً ومعمارياً وجمالياً وزراعياً.

وأعظم بقاع الشام بركة من الناحية الدنيوية: دمشق؛ قال ياقوت عن الغوطة: "هي الكورة التي منها دمشق.. وهي بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً، وهي إحدى جنان الأرض الأربع" اهـ.

وأعظم بقاع الشام بركة من الناحية الدينية؛ المسجد الأقصى: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ، أيهما أفضل: مسجد رسول الله ﷺ أو مسجد بيت المقدس؟ فقال: رسول الله ﷺ: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه ولنعم المصلى وليوشكن أن يكون للرجل مثل شطن (هو حبل) فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس؛ خير له من الدنيا جميعاً". [أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني].

وهو من المساجد التي شرع شدّ الرحال إليها:

عــن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: "لا تُشَــدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ: مسجدي هذا، ومسجدِ الحَرامِ، ومسجدِ الأقصى". [متفق عليه].

لقد كانت ثروات وبركات بلاد الشــام من أهم أســباب التنافس عليها من فئام من البشر، قبل الإسلام وبعده، ومن ذلك: استهداف فلسطين من طرف الصهيونية التي كرست الاحتلال اليهودي، ومنه: اســتهداف الشام عموماً وسورية خاصة بحملات صليبيــة وإمبريالية في القديم والحديث، وقد كانت فرنســا أشــد الدول طمعاً في خيــرات البلاد الشــامية في الغزو الصليبي الأول في أواخر القرن العاشر الميلادي، ثم في الغزو الصليبي المعاصر الذي اقتســم بلاد الإســلام في اتفاقية (سايكس بيكو) ووعد (بلفور) ومؤتمر (سان ريمو).

كان الشــام من نصيب فرنسا التي شرعت في توسعها الإمبريالي باحتلال الجزائر منذ ســنة (١٨٣٠)، ثم المغرب وتونس، ثم بلاد الشام (سورية – لبنان).

وقد ذكر مؤرخ الشــام الأستاذ كرد علي صفحات قاتمة من هول ما صنعه الفرنســيون في الشــام وشمال إفريقيا؛ مــن ذلك قوله فــي مذكراته (٣/٧٣٦): "مــن أفظع أنواع الاستعمار: الاستعمار الفرنسي؛ فقد قام في كل قطر احتلته فرنســا؛ على نــزع الثروة من أيدي الوطنيين، وعلى نشــر الجهل والفساد بينهم، وعلى تربيتهم على خنوع وذلة؛ ليكون لها منهم إلى الأبد عبيد وخول يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد. قرأت منذ نشأت كثيراً من كتب الثقات من الفرنسيين في نقد سياسة فرنسا في مستعمراتها الإسلامية، وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الأقطار، فما شهدت – شهد الله – إلا الظلم المجسم وإرهاق الخلق باسم المدنية" اهـ.

ثم ذكر مذبحة الجزائر في ســنة (١٩٤٥)، ونقل رسالة الجنرال الفرنسي (ديغول) إلى المفوض الفرنسي في سورية ولبنان يأمره أن يدمر ثلثي ســورية لتوطيد سلطان فرنسا عليها.

ولم يقف عدوان المســتعمر الفرنسي على القتل والهدم والتدمير؛ بل فعلوا ما هــو أعظم؛ حيث زرعوا بذور الفتنة الطائفية لإحيائها متى استدعى الأمر، وشنوا حملة تغريبية خطيرة اســتهدفت الأخلاق، وشجعوا الانحرافات السلوكية من خلال الفن والإعلام وإفساد مناهج التعليم.

واستهداف أهل الشام بالإفســاد هو استهداف للأمة؛ كما قال رســول الله ﷺ: «إذا فســد أهل الشــام فلا خير فيكم». أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

كمــا أبــرز الأســتاذ "كرد علــي" أن فرنســا عاملت مســتعمراتها بازدواجية جمعت بين القــول الناعم وادعاء الحضارة والتمدن والمدنية، وفي الفعل والممارســة؛ تتعامل بكبر ووحشية وكراهية منقطعة النظير، وقد بيّن أن المفوض الفرنسي لم يستحِ أن يقول له: "المسلمون كلهم بهائم".

ومن جنايــة الفرنســيين على بلاد الشــام؛ تحريض النصارى وتقويتهم ضد المسلمين.

ومــن جنايتهم: إفســاد الحياة السياســية والدفع إلى سدة الحكم والتدبير بولاة ورؤساء وصفهم كرد علي بقوله: "همهــم الثبوت على كراســيهم، وجلب المصالح لأنفســهم ومن يدور في فلكهم، وإضاعة شــعائر الدين أو في أحسن الأحوال عدم الاكتراث بها، وعدم تطبيق شرع الله في الناس وفي أنفسهم، والاختلاس من مال الدولة، وتقريب غير أولي الكفاءات، ومحاولــة إبعاد كل ذي علم أو كفاءة أو إخلاص، واستثقال وجودهم"... إلى آخر ما ذكره من أمور [المذكرات].

وقال عــن حكم أحد هــؤلاء؛ وهو "حســني الزعيم"، مبيّناً مســوغات الثورة السورية آنذاك: "حكومة الجمهورية أصبحت بأخرة حكومة تخريب ولصوصية؛ فبما ارتكبته من المســاوئ تردت الأخلاق وعمّت الفوضى، فكان من اتجروا بالوطنية زمناً وبها باعوا واشــتروا وجعلوهــا وقفاً مؤبداً عليهم يسرقون الدولة بأســلوب مفضوح مخجل، كانوا من قبل يســرقون الألوف فأصبحوا يسرقون بمئات الألوف ولا يشــبعون ولا يكفون، وكيف لا يســرقون ورئيس الجمهورية يستهدي النواب على ما قيل ويهدي هو لمن يريد استتباعهم من مال الأمة؟ ويفرض بعض الوزراء على كل رئيس حكومة يعهد إليه بتأليف وزارة.

ومن الغريب أن من كان يقدســهم ظهرت سيئاتهم في الدور الجديد لما جرى حســابهم، فكانــوا من أكبر الخونة واللصــوص، وزور في انتخاب النواب مــن حزبه وزور في انتخابه ثانية للرياســة، وبذلك خان الدستور الذي لا يجيز

انتخـــاب الرئيس مرتين إلا إذا تخللهمـــا رئيس آخر، ومما يؤخذ عليه اصطناع الســـفلة والأوغاد، يغدق عليهم الأموال والعطايا، ويختصهم بالامتيازات والإعفاءات الرابحة، ويوزع عليهم قســـطاً عظيماً من الحنطة والأرز والســـكر، وغير ذلك من الحاجيات، وفقراء الأهلين بل المتوســـطون منهم لا يصلون إلى حاجتهم منها إلا ببذل الكثير، واستكثر الرئيس من الموظفين الفاســـدين ومنهم أهله وأبناء حزبه يجود على بعضهم بعدة رواتب من دون أن يكون لهم عمل ظاهر، وفيهم الأميون الذين ما دخلوا كُتّاباً حياتهم، فضخمت الموازنة حتى بلغت ضعفي ما كانت، والمجلس يقرر له الاعتمادات بالملايين دون أن يعـــرف وجوه صرفها، وكان بعـــض من ولوا الوزارة ممن لم تسبق لهم خدمة في الحكومة من الطبقة المحدودة عقولها ومعارفها، فتســـلط أهلهـــم وأنصارهم على الناس، وهتكوا الأعراض واستصفوا الأرض من مالكيها، وكان أبداً متمسكاً بهم؛ حتى إن أحد رؤساء وزارته الذي ضجت البلد من ســـوء إدارته، وعلت الأصوات من إضاعته الحقوق، لم يتخلَ عنه رئيس الجمهورية حتى اندلع لسان الثورة وأهرقت دماء الأبرياء" اهـ.

وبعد سلســـلة من الانقلابات جاء آل الأسد على متن ما سموه: (الحركة التصحيحية)؛ وها نحن اليوم نكتوي بنيران هذا التصحيح المزعوم.

ومما تتعـــيّن معرفته؛ أن هؤلاء المفســـدين ينتمون إلى الطائفة النصيرية الباطنية، وهي من أخطر طوائف الشيعة وأشدها نكاية بالأمة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "هؤلاء القوم المســـمون بالنصيرية ضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم؛ فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشـــيع، وموالاة أهل البيت، وهـــم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برســـوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

ولهم في معاداة الإســـلام وأهله؛ وقائع مشـــهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة ســـفكوا دماء المســـلمين؛ كما قتلـــوا مرة الحُجـــاج وألقوهم في بئر زمـــزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم مدة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى.

هذه الطائفة الملعونة اســـتولت على جانب كبير من بلاد الشام.

ومن المعلوم عندنا أن الســـواحل الشـــامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين؛ فهم مع النصارى على المسلمين.

فهؤلاء المحادون لله ورســـوله كثروا حينئذ بالســـواحل وغيرها، فاســـتولى النصارى على الســـاحل، ثم بســـببهم اســـتولوا على القدس الشريف وغيره؛ ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد، وصلاح الدين، وأتباعهما، وفتحوا الســـواحل من النصارى، وفتحوا أيضاً أرض مصر؛ فإنهم كانوا مســـتولين عليها نحو مائتي ســـنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المســـلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية.

ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإســـلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المســـلمين إلا بمعاونتهـــم ومؤازرتهم؛ فإن منجم هولاكو الذي كان وزيرهم، وهو [النصير الطوســـي]، كان وزيراً لهم، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

ولهـــم [ألقاب] معروفة عند المســـلمين: تارة يســـمون [الملاحـــدة]، وتـــارة يســـمون [القرامطة]، وتارة يســـمون [الباطنية]، وتارة يســـمون [الإســـماعيلية]، وتارة يســـمون [النصيريـــة].. وهم كما قال العلمـــاء فيهم: ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض" اهـ.

قلت: وقد ظل آل الأســـد أوفياء للمشروع الاستعماري الكبيـــر؛ ألا وهو علمنة العالم الإســـلامي، كما وفّى بذلك بورقيبة وبن علي في تونس، ووفت به المؤسســـة العسكرية في الجزائر، ولوبيات الفســـاد في المغرب التي نحت منحى منحرفـــاً عن ثوابت المغـــرب الحديث التـــي وضعها الملك المجاهـــد محمد الخامس رحمه الله تعالى والصادقين ممن شاركوه جهاد المقاومة من النخبة ومن عموم الشعب.

وفي هذا الصدد؛ قال الرئيس الســـوري بشـــار الأسد في حديث خاص أدلى به لقناة "روســـيا اليوم": "أعتقد أن كلفة الغزو الأجنبي لســـورية، لو حدث، ستكون أكبر من أن يستطيع العالم بأسره تحملها، خصوصاً وأننا المعقل الأخير للعلمانية".

حجم التشويه التاريخي للعلاقة بين آل البيت والأصحاب

■ أ. د. محمد أمحزون(*)

هناك كثير من الروايات التي تشوه العلاقة بين آل البيت والأصحاب، فلم تسلم هذه الروايات من الاختلاق تارة، والتحريف تارة أخرى، لترسم لقارئها صورة قاتمة لهذه العلاقة مبنية على العداء والتوتر الدائم حسب هذه الروايات المشوهة، في الوقت الذي كانت فيه العلاقة بين آل البيت والأصحاب تأخذ مجراها الطبيعي بما ميَّز هذه العلاقة من الود والمحبة والإخاء والصفاء.

موقف المسلم من هذا الإرث التاريخي:

لا نشك لحظة واحدة بأن تركة هذا الإرث التاريخي ثقيلة ومكلفة بالنسبة لوحدة الأمة الإسلامية وائتلافها؛ لأن من يقرأ التاريخ الإسلامي - وهو يمثل ذاكرة الأمة - بوعي وعقيدة سليمة؛ سيشعر فعلاً بضخامة الانحراف والخطأ الذي وقع فيه كثير من الإخباريين والمؤرخين القدامى حين نقلوا لنا أخباراً كاذبة ملفقةً تلقي ظلالاً قاتمةً على تاريخ العلاقة بين آل البيت والأصحاب، حتى صارت لأشرف القرون في أذهان الناس صورة مشوهة تخالف ما كان عليه أولئك الأولياء الأخيار والبررة الأتقياء.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الخروج من المأزق والوضع السيئ الذي أحاط بكتابة التاريخ الإسلامي، يتطلب منا القيام بأمرين:

الأول: التثبت من النصوص، وتمحيص الأخبار، وتحقيق الروايات التاريخية؛ وفق الموازين النقدية التي اتبعها علماء الحديث النبوي.

الثاني: الحكم على الأحداث وفق التصور الإيماني الصحيح والموازين الشرعية.

سبل المعالجة:

أما سبل المعالجة لهذه القضية فتتمثل في تذكير المسلمين بالمنهج الواجب اتباعه عند النظر في فقه تاريخ الصحابة، وهذا المنهج قام بتأصيله علماء الأمة تأصيلاً فقهياً على أساس الكتاب والسنة كما تؤصَّل جميع الأحكام الشرعية.

وبذلك أصبح تاريخ الصحابة والحكم فيه من عمل المحدثين والمؤرخين المسلمين، وأصبح لزاماً على كل باحث ومؤرخ مسلم أن يرد جميع ما جاءت به الأخبار عن الأصحاب والعلاقة بينهم وبين آل البيت إلى هذا المنهج وعلى شرطه، فيُعنى بالضوابط والأحكام الشرعية التي يمكن من خلالها التعامل مع تاريخ الصحابة؛ ويتكون هذا الفقه من مجموعة من الأحكام المستمدة من مصادر التشريع الأساسية، وهي الكتاب والسنة والإجماع، وسنذكر هذه الأحكام تباعاً.

أولاً: منزلة آل بيت رسول الله ﷺ:

لا ينكر الوصية بأهل بيت النبي ﷺ، وهم قرابته وأزواجه، إلا جاهل بمكانتهم في الكتاب والسنة؛ إذ أمر الله تعالى ونبيه ﷺ بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً، لا سيما إذا كانوا متبعين للسنة متمسكين بها كما كان عليه سلفهم، كالعباس وابنه وآل علي وآل عقيل وآل جعفر - رضي الله عنهم أجمعين.

(*) أستاذ التعليم العالي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس - المغرب.

قال الله – عز وجل –: ﴿قُل لاَّ أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وهم قرابة النبي ﷺ كما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره[1]. وقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ثانياً: منزلة الأصحاب وعدالتهم:

لقد دلَّت النصوص المتواترة على وجوب حبهم وتعظيمهم وتوقيرهم، والاحتجاج بإجماعهم، والاستنان بآثارهم، وحرمة سب أحد منهم؛ لما شرفهم الله تعالى به من صُحبة نبيه ﷺ، والجهاد معه، والصبر على أذى المشركين، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم وأولادهم، وتقديم حب الله ورسوله على ذلك كله؛ فاستحقوا بذلك الثناء عليهم، والتجاوز عمَّا فرط منهم، إذ نزل الوحي من الله تعالى بأنه رضي عنهم ووعدهم الجنة، وبشرهم الرسول ﷺ بها، ونادى بإجلالهم وتوقيرهم، وأخبر أنهم أمنة أمته، ونجومها الذين يقتدى بهم.

ثالثاً: الموقف مما روي في قدح الصحابة:

ينبغي أن يكون المسلم وسطاً عدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط، وسطاً بين الغلاة الذين يرفعون من يعظمونهم من الصحابة أو آل البيت إلى مصاف النبيين والمرسلين، وبين الجفاة الذين ينتقصون من قدر أصحاب النبي ﷺ وآل بيته الكرام ويشتمونهم ولا يعرفون لهم حرمة ولا مكانة.

والأمور المنقولة عن الفتنة وأحداثها أكثرها لا يصح، أما ما صحَّ فيما جرى بينهم فهم فيه مجتهدون؛ إما مصيبون لهم أجران: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإما مخطئون لهم أجر الاجتهاد، وخطؤهم مغفور؛ لأنهم اجتهدوا عن حسن نية. وهم ليسوا معصومين، بل إنهم بشر يصيبون ويخطئون، وقد وعدهم الله تعالى المغفرة والرضوان.

ولأجل ذلك ينبغي صيانة القلم عن ذكر ما نسب إليهم من مساوئ، وإحسان الظن بهم، والترضي عنهم أجمعين، ومعرفة حقهم ومنزلتهم، والتماس أحسن المخارج لما ثبت صدوره من بعضهم.

ثم إن الأخبار المروية عنهم في بعض القضايا المشتبهة لم توضع في سياقاتها الصحيحة، فمنها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه أو نقص منه حتى انحرف عن أصله فتشوه مضمونه.

ولذلك وجب الإمساك عمَّا شجر بينهم إذا كان الخوض فيما وقع بينهم على سبيل التوسع في الجزئيات وتتبع الظنون والتنقص لفئة والانتصار لأخرى.

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (٤/١٦٢).

أما في ظل الموازين العلمية المستقيمة والمهتدية بالنصوص الشرعية، فإن البحث في تاريخ الصحابة لا يمتنع إذا قصد به بيان بعض الأحكام الشرعية، وبيان المواقف الصحيحة، وتصحيح الأخطاء التاريخية التي أثيرت حول موقف بعضهم من بعض، أو مواقفهم من حروب الفتنة وغيرها.

أسباب التحريف في التاريخ ودوافع المحرفين:

يهدف المحرفون للروايات التاريخية التي تشوه العلاقة الحميمية بين الآل والأصحاب؛ إلى أمور عدة:

الأول: أن انتشار الإسلام وامتداد الفتوح الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة أثار حفيظة أعداء الإسلام؛ إذ باءت جهودهم بالفشل في ميادين القتال، ورأوا أن الكيد بالحيلة والوقيعة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، وحاولوا تشويه تاريخ هذا الدين من الداخل.

الثاني: تجريح شهادة الصحابة والطعن في عدالتهم، ومن ثم التشكيك في الكتاب والسنة؛ إذ إن الصحابة هم حَمَلة الشريعة ونقلة هذين الأصلين الضابطين لدين الله.

الثالث: إثبات عجز الإسلام عن الصمود للتجربة والتطبيق والعمل، وإثبات عدم صلاحيته في هذا العصر؛ فإذا ثبت أنه عجز عن تقويم أخلاق الصحابة وسلوكهم وإصلاح جماعتهم بعد أن فارقهم النبي ﷺ بمدة يسيرة؛ فهو عاجز ليكون منهج حياة ووسيلة للإصلاح في عصرنا هذا.

وفي الختام ينبغي أن نشير إلى أن بعض المصادر التاريخية تعتمد على رواياتِ مَن لم يتحرَّ العدل والإنصاف في تدوينه للتاريخ الإسلامي، وهؤلاء شوهوا وزيفوا كثيراً من الأخبار المتعلقة بتاريخنا، وتأثر بهم كتّاب التاريخ قديماً وحديثاً؛ ولذلك ينبغي مراجعة كثير من الأخبار المشهورة للتأكد من صحتها، وقراءة هذا التاريخ قراءة واعية متفحصة؛ لنقدم للنشء وللناس على العموم تاريخاً صحيحاً موضوعياً ينسجم مع بناء الأمة العقدي والحضاري، مساهمةً منا في تصحيح الأفكار والمفاهيم؛ لأن التاريخ الإسلامي هو ذاكرة الأمة، وهو بمنزلة عرضها وشرفها؛ إذ هو القناة التي أوصلت هذا الدين جملة وتفصيلاً.. والله ولي التوفيق.

الضمانات الوقائية لمنع شيوع الفاحشة

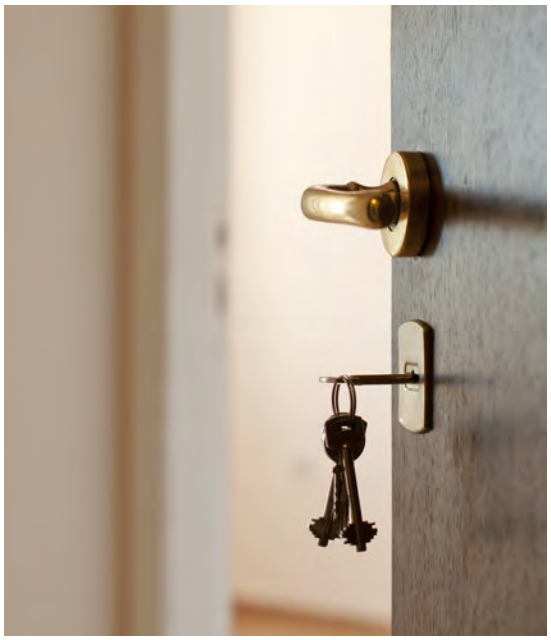

■ محمد أكجيم(*)

شاء الله تعالى بحكمته أن يظل وجود الإنسان في الأرض زماناً بعد زمان، وجيلاً بعد جيل، يخلف بعضه بعضاً؛ ابتلاء واختباراً في عبادة الله وطاعته، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فخلق سبحانه الزوجين الذكر والأنثى، وجعل في كل منهما غريزة الميل إلى الآخر، ووضع لهذه الغريزة حدوداً تحدها، وضوابط تضبطها وتهذبها؛ تصرفها في السبيل الحلال، وتجنبها سبل الحرام.

والعقل السليم، والفطرة السوية، والشرائع السماوية كلها: تقضي بأن حفظ العرض وصيانة الكرامة ضرورة من ضرورات العمران البشري، وإلا أصابه الخراب والفساد.

ففي الحديث: «لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم»(١).

وهذه الدراسات الطبية، والمؤسسات الصحية العالمية؛ تخبر العالم بما تذهل له العقول.. هذا في الناحية الصحية.

وفي الناحية الاجتماعية.. فما شاع الزنا في مجتمع إلا انهار فيه نظام الأسرة، وما يرتبط به من واجبات اجتماعية وتكافلية، ولا تسل حينها عن كثرة اللقطاء الذين لا يعرف لهم آباء يسألون عنهم، وإذا كثر اللقطاء، كثر الجانحون والمتشردون؛ فأصبحوا مادة لإفساد المجتمع.

من أجل ذلك، حفظ الله المجتمع الإسلامي من انتشار الزنا بما شرعه من ضمانات وقائية، وأحكام شرعية، تجنب هذه الفاحشة، وتقاوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف.

■ ضمانات من القرآن الكريم

ففي فاتحة سورة «النور» بعد أن ذكر الله سبحانه شناعة جريمة الزنا، ذكر سبحانه من فاتحتها إلى تمام ٣٣ آية منها: أربع عشرة وسيلة وقائية.

شرع سبحانه العقوبات الحدية التي وكل القيام بمهماتها لدولة الإسلام؛ تحقيقاً للبينات، وصوناً للأعراض، ودرءاً للحدود بالشبهات.

حرم على المؤمنين زواج الزانيات، وتزويج الزواني؛ إلا بعد التوبة، ومعرفة الصدق فيها، فقال تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

طهر الألسنة عن رمي الناس بفاحشة الزنا، ومن قال ولا بينة؛ فيشرع لدولة الإسلام حد القذف في ظهره.

طهر لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا، حيث لا بينة، وإلا فاللعان.

طهر النفوس عن ظن السوء بمسلم بفعل الفاحشة.

طهر الإرادة، وحجب القلوب عن محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وعظَّم عقوبة من يحب إشاعتها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا

(*) أستاذ الثانوي التأهيلي، وباحث في الدراسات العليا، مكناس – المغرب.

(١) سنن ابن ماجه، الحديث رقم ٤٠١٩، وحسنه الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة الحديث رقم ١٠٦.

وَالآخِـرَةِ﴾ [النور: ١٩]، فكيف بمن يشـيعها قولاً وفعلاً؟! نعوذ بالله من الخذلان.

طهر النفوس من الوسـاوس والخطـرات التي هي أولى خطوات الشيطان في نفوس المؤمنين ليوقعهم في الفاحشة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّـيْطَانِ...﴾ [النور: ٢١].

شـرع الاسـتئذان عند إرادة دخول البيت؛ حتى لا يقع النظر على عورة من عورات أهل البيوت.

طهـر العين من النظـر إلى المرأة الأجنبيـة، ومنها إلى الرجـل الأجنبي، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُـوا فُرُوجَهُمْ ذَلِـكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَـا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُـل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِـنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

حرم إبداء المرأة زينتها للأجانب عنها، فقال تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

منع ما يحرك الرجـل ويثيره؛ كضرب المرأة برجليها، أو خضوعهـا بقولها، فقال تعالى: ﴿وَلا يَضْرِبْـنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِـن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وقال سـبحانه ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أدب المؤمنة وهي ترفع رجـلاً وتضع أخرى، أدبها حتى في نبرات صوتها.

أمر باسـتعفاف من لا يسـتطيع الزواج، وندب إلى فعل الأسـباب لتحصيل القدرة عليه، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْـتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وإذا قرأت هذه السـورة الكريمة وتدبرتها، وجدت هذه الضمانات بأبلغ كلام وألطف خطاب؛ من رب العالمين، العليم بخفيات النفوس ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وكان مـن هدي الصالحـين أن يحفّظـوا أهليهم هذه السـورة، ويعلموهم ما تضمّنته من أحكام، ويأخذوا أنفسهم بالوقـوف عند حدودها، والتـأدب بآدابها؛ طاعة لله تعالى، رغبة في ثوابه، وخوفاً من سخطه وعقابه.

■ وفي السنة النبوية الشريفة تدابير وقائية أخرى

حرم النبي ﷺ الخلـوة بالأجنبية، حيث قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»[١].

(١) سنن الترمذي رقم ١١٧١، وصححه الألباني. انظر: الإرواء رقم ١٨١٣.

حـرم مصافحـة الأجنبي بقولـه: «لأن يطعن في رأس أحدكـم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»[٢]، وفي حديث آخر: «واليدان تزنيان فزناهما البطش»[٣].

ولا أطهر قلباً من رسول الله ﷺ ومع ذلك يقول: «إني لا أصافح النساء»[٤].

منـع المرأة من التطيب عند خروجهـا، حتى لو كان إلى المسـجد، ففي الحديث: «أيما امرأة تطيبت ثم خرجت إلى المسـجد ليوجد ريحهـا، لم تقبل منها صلاة حتى تغتسـل اغتسالها من الجنابة»[٥].

حرم سفر المرأة بغير محرم، حيث قال: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»[٦]، ولو كان سفراً إلى الحج.

وتدابيـر في حق الرجال مع الرجـال؛ فلا يجوز للرجل كشـف عورته من سـرته إلى ركبته، ولا يجوز له مجالسـة الذكور من المردان، والنظر إليهم تلذذاً.

أمر الشرع بالتفريق بين الأبناء في المضاجع.

ومنها في حق النساء مع النساء.

أجمع العلماء على أن صلاة الجمعة لا تجب على المرأة[٧] ولا يجب عليها الجهاد في سـبيل الله، وأسقط الشرع عنها النفقة؛ صيانة لعرضها، وحفظـاً لكرامتها؛ درة مصونة في بيتها لتربية الأجيال.

فضل الشرع صلاتها في بيتها على الصلاة في المسجد، وصلاتها في أستر مكان في بيتها على أقربه إلى الظهور[٨].

أمـر الرجال بالتريث في الانصراف من المسـجد حتى تخرج النساء، وخصهن بباب للدخول والخروج.

جعل خير صفوف الرجال أولها، وشـرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها[٩].

■ أعظم الضمانات وقاية

وأعظم الضمانات الوقائية للمجتمع من شيوع الفاحشة: فرض الحجاب على نساء المؤمنين بنص قوله تعالى في سورة

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم ٤٨٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٠٤٥.

(٣) سنن أبي داود رقم ٢١٥٣، وصححه الألباني في الإرواء برقم ١٨٦٩.

(٤) سنن ابن ماجه رقم ٢٨٧٤، وسنن النسائي رقم ٤١٨١، وصححه الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة رقم ٥٢٩.

(٥) سنن ابن ماجه رقم ٤٠٠٢، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٦) صحيح البخاري رقم ١٧٢٩، وصحيح مسلم رقم ٢٣٨١.

(٧) ويجوز لها حضورها إذا لم تتلبس بمحذور شرعي، وقد يندب حضورها لعلم شرعي تتعلمه، إذا لم تجد في بيتها من يعلمها.

(٨) سنن أبي داود رقم ٥٧٩، وصححه الألباني.

(٩) صحيح مسلم رقم ٦٦٤.

النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وقولـــه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَـــا النَّبِيُّ قُـــل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَـــاءِ الْمُؤْمِنِـــينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

يقول العلماء: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ دليـــل على وجود الأذية إذا لم يحتجبن؛ لأنهن إذا لم يحتجبن ظن أنهن غير عفيفات؛ فيتعرض لهن من في قلبه مرض.

عن صفية بنت شـــيبة قالت: بينا نحن عند عائشة رضي الله عنها ذكرنا نســـاء قريش وفضلهن، فقالت عائشـــة: إن لنســـاء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نســـاء الأنصار؛ أشـــد تصديقاً لكتاب اللـــه، وإيماناً بالتنزيل.. لقد أنزلت ســـورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَـــلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ فانقلب رجالهـــن إليهن يتلون عليهن ما أنزل اللـــه إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنتـــه وأخته، وعلى كل ذات قرابة، فما منهـــن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل[١]، فاعتجرت به[٢]، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان[٣].

■ الحجاب دين شرائع الله جميعاً

ولم يكن الحجاب الشـــرعي للمرأة بدعاً في الإســـلام، بل هو دين شـــرائع الله جميعاً؛ يشـــهد لذلك البقية الباقية في الكتـــب المحرفة التي يراها الناس فـــي لباس الراهبات عند النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية، وفي سائر ديار الغرب، وفي تغطية المرأة من أهل الكتاب رأســـها عند دخول الكنيسة.

■ إجمال بعد تفصيل

وقد أجمل الله سبحانه ما سبق تفصيله من الضمانات، وما يترتب على تعدّيها من مفاســـد صحية واجتماعية؛ في أبلغ عبارة وأوضح بيان، لو ما أنزل الله في كتابه غيره لكفى تنبيهاً لأولي الألباب، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

■ إن السفينة لا تجري على اليبس

إن الاســـتهانة بهذه الضمانات وتعدي حدودها لهو عين الارتماء في مهاوي الردى وأحضان الرذيلة.

ولا ينفع الإنســـان أن يقول: أنا أثق بنفسي، أو أثق بفلان أو فلانة؛ فإن الشـــرع لم يفرق بين شخص وآخر، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويزين كل طرف لآخر ولو كان ذميماً، والإنسان ضعيف أمام نفسه إلا من رحم الله.

وكم من مســـتهين بهذه الضمانـــات ومتعدٍّ لهذه الحدود والحرمات، استدرجه الشيطان حتى أوقعه، عياذاً بالله.

ومن أراد النجاة ســـلك طريقها، وعظَّم شـــرع الله، ولم يعترض عليه بظنون يظنها، وأوهام يتوهمها، ومعاذير ينشئها، إنما شـــعاره: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس

ومـــن يتجاهل هذه الضمانات ثم يطمع – مع ذلك – في السلامة من الوقوع، فقد طلب محالاً، وحاله كما قال القائل:

ألقاه في اليم مكتوفاً ثم قال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

جاء شـــاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ ائذن لي في الزنا. فأقبل عليه الناس يزجرونه، وأدنى رسول الله ﷺ مجلســـه، ثم قال له: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. فقال رســـول الله: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. ولم يزل النبي ﷺ يقول: أتحبـــه لأختك؟ أتحبه لعمتك؟ أتحبه لخالتك؟ كل ذلك والفتـــى يقول: لا والله، جعلني الله فداك. فوضع النبي ﷺ يـــده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبـــه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه. فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء[٤].

يقول تعالى: ﴿يُرِيـــدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُـــنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النســـاء: ٢٦ – ٢٧].

■ أهم المراجع

حراسة الفضيلة، بكر أبو زيد.

(١) المزخرف.
(٢) شدته على رأسها.
(٣) ضعيف بهذا السياق والتمام، وقد صح بعضه عند البخاري، ولبعضه شاهد من حديث أم سلمة عند أبي داود بسند صحيح. انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، الحديث رقم ٤٨٣.
(٤) مسند أحمد رقم ٢٢٢١١، وصحح الألباني إسناده. انظر: السلسلة الصحيحة رقم ٣٧٠.

علّموا الأطفال وهم يلعبون

عبد الله بن محمد

يسعى القائمون على شؤون التعليم إلى مساعدة الأطفال على النجاح في الدراسة وتطوير معارفهم ومهاراتهم أو قدراتهم الذهنية التي تخول لهم التميّز والتفوق. وقد أجريت عديد من التجارب العلمية والأبحاث الميدانية المتعلقة بعلم النفس التربوي وعلم النفس العصبي؛ بهدف تطوير الطرق والأساليب البيداغوجية الحديثة والناجعة.. وأثبتت عدة دراسات منها أن قدرة الفرد عموماً والطفل المتعلم بشكل خاص على التحكم في حركاته وانتباهه، والتي تسمى «قدرة الإيقاف أو التحكم»؛ تعد من العوامل الرئيسية المحددة لنجاح الطفل أو الطالب في المدرسة من عدمه.

وإلى جانب «قدرة الإيقاف» لدى الفرد، فإن الوظائف «التنفيذية» للمخ، (وهي مجموع الوظائف المعرفية كالانتباه والإدراك والذاكرة واللغة ومجموعة القدرات كالقدرة على المبادرة بالقيام بالأفعال أو إيقافها ومراقبة السلوك وتغييره والتخطيط...)، والذاكرة العاملة (القدرة على حفظ المعلومات واستعادتها والعمل بها)، وسرعة الإدراك (القدرة على تغيير نمط الفعل أو التفكير قبل القيام بشيء معين)؛ تعد من العوامل الأساسية للتعلم والنجاح في الدراسة وفي كل مجالات الحياة.

ويتميز الأطفال الذين تراوح أعمارهم بين ٥ و١٢ سنة بوظائف تنفيذية جيدة وقدرة كبيرة على تعلم القراءة والكتابة والحساب. ومن هنا تبرز أهمية تدريب هذه الوظائف في سن مبكرة بالاستعانة بطرق بيداغوجية؛ حتى يتسنى تطويرها خلال فترة الطفولة والمراهقة.

ومن أجل تحقيق ذلك لا يجب في البداية اعتبار الطفل كهلاً صغيراً، فمن الصعب أن يقوم الطفل بكبح تصرف معين مقارنة بقدرته على حفظ بعض المعلومات الجديدة.. فمن الصعب، على سبيل المثال، أن يتصرف الطفل بطريقة غير مألوفة، أي أن يقوم بتكييف سلوكه تماشياً مع وضعية جديدة لم يألفها من قبل. وفي المقابل لا يتعرض الأطفال لصعوبات كبيرة لحفظ كميات هائلة من المعلومات المختلفة. وهذا السلوك مغاير لسلوك الكهول الذين يواجهون صعوبات كبيرة ويبذلون جهداً أكبر عند محاولة الترفيع من طاقة الذاكرة العاملة (لاستيعاب كم كبير من المعلومات) مقارنة بكبح سلوك أو تصرف معين.

ورغم صعوبة كبح أو إيقاف تصرف معين، فإن الطفل يكون مدركاً لما يجب القيام به ويرغب في ذلك، لكنه يعجز عن الفعل عند المحاولة. وقد توصل العلماء إلى هذه الحقيقة بعد إجراء تجربة على مرحلتين تم من خلالهما تكليف مجموعة من الأطفال في الثالثة من العمر بجمع أشياء (أو لُعب) عبارة عن عربات صغيرة أو نجوم داخل عُلب. وفي بداية التجربة كان يتعيّن عليهم جمعها حسب اللون (أو الشكل)، ثم وفي مرحلة ثانية من التجربة طُلب منهم جمعها بطريقة مختلفة (حسب الشكل إن كانت المرحلة الأولى قد تمت حسب اللون والعكس بالعكس).. والنتيجة: ما إن تعود الأطفال التركيز على لون اللعب موضوع التجربة مثلاً، فإنه يصبح من الصعب على هؤلاء التركيز فيما بعد على تصنيفها حسب شكلها، وهو ما ضاعف من درجة ترددهم وحيرتهم إزاء الوضعية، ما أدى إلى اضطرابهم حتى في أقصى حالات التركيز.

وقد دفعت هذه التجربة بعدد من المتخصصين في مجال التعليم إلى التفكير بأنه لا يمكن للأطفال القيام بتدريب عملية كبح أو إيقاف تصرفهم أو استخدام ذاكرتهم العاملة، والتي قد لا يكتمل نموها قبل بلوغ العشرين سنة، علاوة على أن المقاربات التعليمية المتبعة حالياً لا تسمح هي الأخرى بذلك.

إلا أن عدم إدراك سن النضج لا يعني غياب وظائف المخ عن العمل كلياً؛ فقد توصلت الأبحاث المتعلقة بالجهاز العصبي المعرفي إلى أن الوظائف التنفيذية تتطور في سن مبكرة جداً وحتى قبل بلوغ العام الأول من حياة الرضيع.. لذلك؛ لا يجب أن نحرمهم من فرصة تدريب قدراتهم الذهنية وتقوية ذاكرتهم العاملة. ويمكن للآباء مساعدة أبنائهم على تحسين الوظائف التنفيذية للمخ بتمارين بسيطة؛ كسرد قصة بشكل يكون فيه الكتاب مخفياً عن أعين الأطفال مع تركيز الأب لنظره باستمرار على الطفل لجلب انتباهه، أي أن ينصب اهتمام الطفل على حفظ الأحداث التي يسمعها ويقوم بربط بعضها ببعض دون الاستعانة بوسائل الإيضاح البصرية في الكتاب (صور، عناوين، رسوم...)، وأن يتخيل فيما بعد الشخصيات ومكونات الإطار المكاني للقصة.

كما يمكن للمعلم في المدرسة العمل على تطوير الوظائف التنفيذية للتلاميذ؛ ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً قام مدرسون منذ سنوات بوضع برنامج يدعى Tools of the Mind في أقسام حضانة، وهو برنامج يضع الأسس العلمية لتحسين نسبة النجاح المدرسي للأطفال في سن مبكرة، ويهدف في الأساس إلى تطوير الوظائف التنفيذية للمخ لدى الطفل، وقد أدخل حيز التنفيذ بعد ١٢ سنة من الأبحاث المتواصلة. وهذا البرنامج، بالتوازي مع الألعاب الهادفة التي تجرى داخل الفصل على غرار المسرحيات (كقيام التلميذ بتقمص دور الأب أو الأم في العائلة أو الشرطي والسارق...) أثناء حصة القراءة أو الحساب؛ يساعد الأطفال على التركيز والتحكم في تصرفاتهم خلال هذه الوضعيات المختلفة، كما

يعودهم على تقديم إجابات رصينة ومتعقلة، كما يعودهم على استخدام الذاكرة العاملة أثناء التفكير والبحث عن الإجابة.

وبهـدف تعميم فائدة هـذا البرنامج علـى جميع المواد المدرسية التي يتلقاها التلاميذ؛ فقد تم توسيع نطاق التمارين الهادفـة إلى تحسـين الوظائف التنفيذية للمـخ على جميع الأنشـطة التعليمية وعلى امتداد فتـرات اليوم، بما في ذلك الأنشـطة اللغوية أو الحساب؛ ففي نشـاط لغوي يتمثل في «قراءة ثنائية» عبر مجموعات مكونة من تلميذين على سـبيل المثال، يطلب المدرس من أحد التلميذين سـرد قصة انطلاقاً من كتاب صـور، ويتعيّن على التلميذ الآخر أن يسـتمع بكل انتباه وينتظر دوره ليسـرد حكاية أخـرى بدوره.. في البداية كان الأطفال الذين أسـند إليهم دور المستمع يرغبون في سرد قصتهم عوض الاسـتماع، لكن مع تذكيرهم بضرورة الاستماع بواسطة مجسمات كصورة أذن (التي تعني «أنصت ولا تتكلم»)؛ يصبح الطفل قادراً على انتظار دوره وقد أدرك أن الصورة أو العلامة تحثه على الانتظار والإنصات، ثم وبعد بضعة أشـهر يصبح الأطفـال قادرين على فهـم الأدوار دون الحاجة إلى تذكيرهم بذلك.

وقـد أظهرت التجارب أن جل الأطفال قد اجتازوا بنجاح امتحان الذكاء المذكور، في حين أخفق آخرون بالنظر إلى أنهم لم يتلقوا تدريبـاً خاصاً بالامتحان قبل اجتيازه، وهو ما يعني أن اعتمـاد هذا البرنامج أو ذاك هـو العامل المحدد للنتائج المدرسية أكثر من عاملي العمر والجنس.

كمـا كانـت النتائج الإيجابيـة للامتحـان متطابقة مع النتائج الإيجابية في المدرسـة، ومن ثم فإن الأطفال المدرجين ببرنامـج Tools of the Mind، والذيـن قضـوا وقتاً أطول يمارسـون الألعاب التعليمية الهادفة؛ قـد اجتازوا الامتحان بامتياز مقارنة بالأطفال الذين تابعـوا نمطاً تعليمياً تقليدياً، وهو ما أثر سلباً في الوظائف التنفيذية للمخ لديهم.

والحقيقة أن المدرسين يرغبون دائماً التقليص في الوقت المخصص للعب لفائـدة الوقت المخصـص للتعليم التقليدي وكذلك الأنشـطة الترفيهية الأخـرى ذات الطابع التعليمي، كالرياضة والموسيقى والفنون التشكيلية، بل حتى التقليص في فترات الاسـتراحة بين الحصص في اليوم الواحد، في حين

نحتاج نحن الكهول إلى هـذه الفترات من الراحة أثناء العمل لتجديد النشـاط. وفي الفترة الأخيرة قام علماء النفس في الولايات المتحـدة بمقارنة درجة الانتباه أثناء الدرس والنتائج المدرسـية لأطفال يدرسـون بمدارس تعطـي أهمية لفترات الراحة وأخرى لا تقدر أهمية ذلك، وتبيّن أن الأطفال يتعلمون بشـكل جيد بعد فترات الراحة. وأشارت دراسات أخرى إلى أن الأنشطة الفنية أو الرياضية، والتي لا تلقى درجة كبيرة من الأهمية في عدد كبير من المدارس؛ تعتبر أنشطة جيدة بهدف تطوير الوظائف التنفيذية للمخ لدى الأطفال.. وتتطلب بعض الأنشطة التركيز والانضباط، وتقوم على وجوب حفظ حركات متتابعـة ومعقدة بالذاكرة العاملة، ومن تلك الرياضات الفنون الدفاعية، وكلها تسـهم في تطوير وتنميـة الانتظام المعرفي والنفسـي والعاطفي للطفـل وتحثه على احتـرام أصدقائه والأشـخاص الآخرين وتقوي فيه شعور الانتماء إلى المجموعة والفخر والثقة بالذات، كما تحسـن مـن حالته البدنية ونموه المتكامل.

وإضافة إلى كل ذلك، لم تُظهر أي من التجارب أن حذف فترات اللعب أو ممارسـة الرياضة أو الفنون أو التقليص فيها بهدف تخصيص مزيد من الوقت للتعليم التقليدي؛ يسهم في تحسـين النتائج المدرسـية، بل على العكس من ذلك، فإن كل التجارب أثبتـت أن إدماج هذه الأنشـطة والألعاب بالبرامج المدرسية يحسن فعلاً في النتائج المدرسية.

إعادة الصحوة.. رؤيــة مقترحة

■ د. محمد بن عبد الله الدويش
dweesh@dweesh.com

اتســم العقد الثاني من هذا القــرن ببزوغ الصحوة الإســلامية، واتسع نطاق الصحوة وأصبحت حاضرة بقوة في كافة فئات المجتمع: الشباب والنساء والصغار والكبار، المتعلمين والعامة.

وكل من عاش تلك الفترة يدرك هذه الظاهرة بوضوح، وليس بحاجة إلى أدلة أو براهين، فهي ظاهرة بارزة وعامة فرضت نفسها، واعترف بها العدو قبل الصديق.

كما أنها ظاهرة لم تكن محلية، بل هي ظاهرة عالمية، حتى قال أحد الساســة محذراً وزير الخارجية الأمريكي أثناء محادثات الســلام: إذا لم يتم توقيع اتفاقية السلام فقد تراني في المرة القادمة - حين تزور بلادنا - ملتحياً.

وكمــا أن الحديث عن الظاهــرة لا يحتاج إلى برهنة وإثبات، فإن الحديث عن انحســار المدّ والتراجع لا يحتاج إلى إثبات هو الآخر.

والســؤال المثار: ألا يمكن اليــوم أن نفكر من جديد في بعث الصحــوة من جديد؟ أليس لدينــا من الرصيد والإمكانات ما يعيننا على بعث العمل الدعوي بأفضل مما كان عليه في المرحلة السابقة؟

وأحســب أن العناية بمثل هذا المشــروع - إذا توافر الاقتناع به - أولى من كثير من المشــروعات المتناثرة ذات الأثر المحدود.

وبــين يدي القارئ الكريم هذه المقال التي تمثل معالم عامة وأفكاراً عملية للإجابة عن هذا الســؤال: هل يمكن إعادة الصحــوة؟ علها أن تكون مجــالاً للنقاش والمداولة والإثراء والتطوير.

مظاهر تراجع الصحوة

سبقت الإشــارة إلى أن ظاهرة التراجع بارزة وواضحة لا تحتاج إلى برهنة، وفيما يلي إشارة إلى طائفة من الدلائل على هذا التراجع:

١ - قلة التائبين وكثرة المتراجعين:

اتسم عصر الصحوة بأنه عصر التائبين والعائدين إلى الله عز وجل في كافة الأعمار والمراحل، وكان من المتكرر أن تقابل زميل دراســة أو جيرة سابقة أو عمل، فترى مظهره معبّراً عن توبة وعودة إلى الله عز وجل.

وامتــدت الظاهرة إلى المشــاهير من أهــل الفن والغناء والرياضة[1]، وشهدت أدبيات الصحوة - آنذاك - نتاجاً مكتوباً ومسموعاً للحديث عن التائبين والعائدين[2].

أمــا اليوم؛ فقــد تضاءلت هذه الظاهرة وانحســرت، بل أصبحنا نشــهد العكس؛ فنرى التراجع والتغيّر لدى عدد من الصالحين، ولم يعد شــاذاً أن ترى صاحباً لك من الصالحين بعد طــول غياب، فترى مظهره معبّراً عــن التغيّر والتراجع.. نسأل الله الثبات والهداية.

(١) الرياضة ليست كالفن، والقصد ذكر اتساع فئات التائبين، وقد شكل المهتدون من الرياضيين - على سبيل المثال - تجمعاً كبيراً خاصاً بهم.

(٢) من ذلك على سبيل المثال: توبات أهل الفن للشيخ سلمان العودة، وسلسلة العائدون إلى الله للمسند، وشباب عادوا إلى الله للشيخ عايض القرني، والهاربون من جحيم المخدرات، والزمن القادم... إلخ.

٢ - التراجع لدى القدوات:

كان التراجع في تلك الفترة – المسماة عصر الصحوة – يظهر في الأغلب لدى الشباب والمراهقين من طلاب التعليم العام، وأحياناً أقل التعليم الجامعي، أو حديثي العهد بالاستقامة والتوبة؛ وأما الآن فإن الصورة مختلفة، فقد أصبح من المألوف أن ترى طالب علم شرعي، أو إمام مسجد، أو من اشتهر بالدعوة والاحتساب؛ قد أصابه التراجع، وتغيّرت حاله.

بل إن عدداً غير قليل من هؤلاء قد تحولوا إلى كتّاب مناوئين للصحوة، يعلنون صراحة تبنّيهم الاتجاه الليبرالي.

٣ - ضعف الاحتساب في العمل الدعوي:

اتسم عصر الصحوة بالاحتساب في العمل الدعوي، بل لا يكاد العمل الدعوي يُعرف إلا في دائرة الاحتساب والتطوع.

أما اليوم، ومع تنامي المؤسسات الدعوية وانتشارها؛ فقد انتشرت ظاهرة العمل بالأجر لدى عدد من الشباب الذين كانوا نماذج في الاحتساب والتطوع في العمل الدعوي، وكثيرٌ منهم يساوم على الأجرة، ويفاضل بين مجالات العمل في هذه المؤسسات بناء على الاعتبار المادي، بل تطوّر الأمر إلى انتقاد المؤسسات التي تبحث عن المتطوع وانتقاد من يعمل احتساباً دون أجر مادي، رغم أن كثيراً ممن يُستهدف بذلك هم ممن لهم أجر ثابت، وما يتلقونه هو أجر إضافي خارج أوقات دوامهم الرسمي[1].

٤ - تسويغ الانحراف والتراجع:

كان التراجع في مرحلة الصحوة يوصف بأنه انتكاس وتقهقر، وصاحبه يشعر بالخجل والحياء.. أما اليوم؛ فقد برزت ظاهرة التبرير للتراجع والانحراف، وتفاوت المدى في ذلك ما بين اتجاه متطرف ترك التدين جملة وتفصيلاً، وبين اتجاه دون ذلك بقي في دائرة التدين والانتساب إليه، لكنه مولع بالتخفيف من كثير من مظاهر التدين، وبالأخص ما يتعلق بالمظهر، ويبرر ذلك بأنها مسائل خلاف، منتقداً مظاهر التدين والمتمسكين بها، واصفاً إياها بأنها ثقافة محلية.

وتقبُّل الخلاف الفقهي أمرٌ لا نقاش فيه، بل تنوع المدارس الفقهية بين من يغلب عليه الحزم والتورع في المسائل، ومن يغلب عليه التيسير والترخص المشروع؛ أمرٌ سائغ منذ عهود السلف.

لكن ذلك كله كان يدور في إطار التدين الصادق الجاد، والترجيح الفقهي المبني على الاقتناع والدليل الشرعي، أما ما نشهده اليوم فكثير منه ينتمي لدائرة التساهل والترخص أكثر منه لدائرة الاجتهاد وتنوع المدارس الفقهية.

والمراجعة وتقويم الماضي، وإعادة النظر في المواقف والآراء السابقة؛ أمر إيجابي، وبالأخص مع التغيرات العالمية والمحلية، ومع نضج الداعية وتقدم خبرته.. والمرحلة السابقة لم تكن تسلم من قدر من التشديد لدى بعض طلبة العلم والدعاة، والضيق بالخلاف، وتضخيم بعض المسائل الفرعية.

لكن المراجعة وتقويم الماضي إنما تُحمد حين تُبنى على علم شرعي، واتباع للدليل، ورؤية للمصالح الشرعية – ولو اختلفنا في تفصيلات بعض الآراء والاجتهادات –.. أما حين يكون التراجع مقصوداً لذاته، وتغيير الآراء هدفاً يسعى إليه صاحبه؛ فهذا لون مختلف، وكما أن التشديد وضعف تقبل الاختلاف مذموم، فمقابلة الأمر برد فعل متطرف مذموم هو الآخر.

٥ - ضعف الخطاب الإيماني والوعظي وربما الاستخفاف به:

اتسم عصر الصحوة بانتشار الخطاب الوعظي المؤثر، وكانت الخطب والمحاضرات العامة تشهد تجمعات كبيرة، وعدد ممن كانوا يحظون بحضور جماهيري واسع، وانتشار للمادة المسموعة؛ كان أداؤهم البارز في مجال الوعظ وتحريك القلوب.

وكان لهذا الخطاب أثره في استقامة كثير من الناس وتوبتهم، وفي تثبيت المهتدين والصالحين.

أما اليوم؛ فقد اختلفت الصورة كثيراً، وفتُر الخطاب الوعظي، وربما أصبح محل استخفاف وتنقص، وأصبح يوصف بأنه معبر عن سطحية صاحبه وبساطته.

وربما وجدت أخطاء وتجاوزات في الخطاب الوعظي في المرحلة السابقة تتطلب المراجعة، إلا أنها لا تمثل الواقع كله، والعلاج في التسديد والتصويب وعلاج الأخطاء، وليس في انتقاص الوعظ وتهميش دوره.

(١) لا شك أن انتقال العمل الدعوي إلى العمل المؤسسي ظاهرة صحية وإيجابية، وأن الاعتماد على المتطوعين وحدهم لا يكفل قيام عمل مؤسسي قوي، إلا أن ضعف الاحتساب والتطوع ظاهرة ليست صحية.

حلول مقترحة

حين نتحدث عن إعادة الصحوة، فنحن نتحدث عن مشروع واسع غير محدود، وهو يتطلب جهداً يتلاءم مع حجم المشروع واتساع دائرته، ويتطلب قدراً من النقاش والحوار حول آلياته لتحقيق النضج وتطوير الأفكار.

وتتمثل معالم المشروع - من وجهة نظر الكاتب - فيما يلي:

١ - العناية بالخطاب الوعظي:

كان الخطاب الوعظي من سمات المرحلة السابقة وعوامل تأثيرها البالغ، وهو إحدى أدوات الامتداد والانتشار الدعوي، وأحد عوامل التثبيت وترسيخ المهتدين.

ولا عجب؛ فهو منهج شرعي أصيل، فقد وصف الله عز وجل كتابه بأنه موعظة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ووصف ما أنزله على موسى بذلك فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ووصف الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام بأنه موعظة فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

ووعظ الله عز وجل نبيه نوحاً عليه السلام فقال: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ووعظ الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ من العودة لما جرى في حادثة الإفك: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

وجاء الوعظ في سياق الأحكام الشرعية فقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وجاء الوعظ في سياق تقرير قواعد العدل والإحسان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وبيَّن عز وجل حسن مواعظه للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: ٥٨].

وأمر نبيه ﷺ بالموعظة، فأمره بأن يعظ المنافقين فقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ [النساء: ٦٣].

وأمره عز وجل بأن يعظ الكافرين فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وبيَّن الله عز وجل أن من شأن الأنبياء في دعوتهم وعظ أقوامهم، فأخبر أن قوم هود اعترضوا على وعظهم فقال: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

وأخبر عما وعظ به لقمان ابنه من مواعظ فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وبيَّن أن الصالحين من بني إسرائيل وعظوا أهل السبت فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وكان ﷺ يعظ أصحابه فيترك ذلك أثره عليهم، ويصور لنا ذلك المعنى العرباض بن سارية رضي الله عنه فيقول: وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»[(١)].

وكانوا يبكون عند سماع مواعظه، فعن أنس رضي الله عنه قال خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين[(٢)].

ومن الآليات المقترحة في ذلك:

(١) أخرجه الترمذي ٢٦٧٦، وأبو داود ٤٦٠٧، وابن ماجه ٤٤، وأحمد ١٦٦٩٢.
(٢) أخرجه البخاري ٤٦٢١، ومسلم ٢٣٥٩.

١ - توظيف خطب الجمعة، والتنسيق مع الخطباء، والاعتناء بتسجيل المواد المتميزة ونشرها.

٢ - إعداد قناة خاصة على اليوتيوب لجمع المواد الوعظية المتميزة.

٣ - إعداد مقاطع مرئية ومسموعة مؤثرة ونشرها على الإنترنت.

٤ - التنسيق مع دعاة مؤثرين لإقامة محاضرات وإلقاء مواد وعظية مؤثرة.

٢ - توظيف المكتسبات السابقة:

اتسمت المرحلة السابقة بتحقيق عدد من المكتسبات تمثل رصيداً ثرياً يمكن أن يوظف في إعادة الصحوة، ومن هذه المكتسبات التي يمكن توظيفها ما يلي:

١ - الدعاة المؤثرون جماهيرياً.

٢ - المعلمون والمعلمات.

٣ - المتعاونون من الشباب والفتيات في الداخل والخارج، ويمكن تفعيل عناصر عديدة منهم من خلال التواصل الإلكتروني.

٣ - الاعتناء بالعمل الشبابي والطلابي:

مثّل العمل الشبابي والطلابي في المرحلة السابقة أداة مهمة لاتساع نطاق الصحوة؛ فالشباب أسرع استجابة لداعي الخير وأرق أفئدة، وكفى بسيرة أصحاب النبي ﷺ شاهداً على ذلك، والأمر لا يقف عند حدود هذه الأمة، فهي سنة في الأمم المسلمة، ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن أهل الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ [الكهف: ١٣ - ١٤].

وفي حديث صهيب رضي الله عنه في قصة أصحاب الأخدود: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه....».

وقال تبارك وتعالى عن دعوة موسى عليه السلام: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].. قال ابن كثير رحمه الله حول هذه الآية: «يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات؛ إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب، على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون - لعنه الله - كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً»[1].

ومن الوسائل المقترحة في ذلك ما يلي:

١ - إعداد تصور لمحاضن تربوية جاذبة؛ فالمحاضن التربوية اليوم تعاني ضعفاً في إقبال الشباب عليها.

٢ - توسيع نطاق النشاطات الشبابية الجماهيرية التي تستهدف الشباب والفتيات الأقل تديناً ومحافظة.

٤ - توسيع أوعية النشر وأدواته:

من الفروق المهمة بين المرحلة السابقة والمرحلة التي نعيشها؛ تنوع أوعية النشر، واختلاف درجة تأثيرها؛ فالشريط الإسلامي الذي كان يمثل أداة ووسيلة مهمة وفاعلة تضاءل تأثيره كثيراً، وبرزت وسائل جديدة ذات إقبال وتأثير أكثر على الشباب.

وأي جهد يخاطب الشباب يفترض فيه أن يوظف الوسائل ذات الإقبال الأكثر والتأثير الأبلغ، ومن الوسائل المقترحة في ذلك ما يلي:

١ - إنتاج روايات شيقة ومثيرة تحكي قصة الصحوة وتجربتها.

٢ - إنتاج أفلام يتم الاعتناء بأفكارها وإخراجها على غرار عدد من الأفلام التي انتشرت وصار لها صدى كبير، وهناك أفلام عالمية وعربية أسهمت في إحداث تأثير وصياغة توجهات.

ويمثل الإعلام بعامة، والإعلام الجديد بخاصة بأدواته المتعددة؛ مدخلاً مهماً ينبغي استثماره وفق عمل وبرامج مخططة ومدروسة.

إنها أفكار ورؤى وخواطر حول هذا الموضوع، لا تمثل رؤية ناضجة ولا مشروعاً متكاملاً، عليها أن تكون مدخلاً لمزيد من التطوير والإثراء.

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أنصار دينه، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

(١) تفسير ابن كثير (٢/٦٢٢).

حوار مع
رئيس المكتب السياسي للجبهة الإسلامية السورية

■ أجرى الحوار: مجلة البيان

البيان: أفرزت الثورة تشكيلات متعددة من الفصائل العسكرية.. كيف يمكن وصف هيكلية هذه التصنيفات وآليات التنسيق بينها، وكيف تتوقعون أن يكون مستقبلها بعد إسقاط النظام؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

يغلب على هيكليات الفصائل العسكرية الطابع الشعبي الثوري، وهذا أمر طبيعي جداً يحصل في كل حراك من هذا النوع، وهذا في مراحل الثورة السابقة كان من إيجابيات الثورة، وأهم الأسباب التي هيَّأها الله لبقاء الثورة وعدم اختراقها وإخمادها، وأما بعد نضوج العمل الثوري داخل سورية، كان من اللازم الانتقال إلى ضبط الحراك الثوري وتنظيمه، وهذا من أهم الأمور التي أنشئت الجبهة الإسلامية السورية لأجلها، وبالتنسيق مع باقي الجبهات الإسلامية والحراك الثوري نقوم ببلورة هيكلية واضحة تجتمع عليها الأمة في سورية لأجل قطف ثمار الجهد العظيم الذي بذله شعبنا الصابر خلال ما يزيد على عامين؛ تشمل الحراك العسكري والحراك المدني، للانتقال به إلى التحدي الحقيقي وهو الاضطلاع بمسؤوليات إدارة شؤون البلاد.

أما التنسيق؛ فبحمد الله تعالى هناك تنسيق وتعاون وتحالف على عدّة مستويات يبدأ من الاندماجات إلى التحالفات الجبهوية، إضافة إلى التنسيق الدائم والتعاون المثمر على أعلى المستويات من عمليات مشتركة وتبادل للخبرات والتدريبات المدنية والعسكرية. وللجبهة الإسلامية السورية تجربة رائدة في هذا الأمر؛ فقد انطلقت ابتداء من العمل الجبهوي الذي ارتبطت به تشكيلات الجبهة الإسلامية السورية بميثاق واضح الأهداف والرؤية والمرتكزات، وبرؤية شاملة لسورية المستقبل، وكان من أهم ما تتطلع إليه القيادة في الجبهة الإسلامية السورية هو الارتقاء بالمأسسة والهيكلة والعمل من حسن إلى أحسن، وذلك من خلال الاندماجات التي حصلت في تشكيلاتها المؤسِّسة، حيث اندمجت كل من (كتائب أحرار الشام وحركة الفجر الإسلامية وجماعة الطليعة الإسلامية وكتائب الإيمان في دمشق وريفها وكتيبة مصعب بن عمير)؛ في كيان واحد بمسمى جديد هو (حركة أحرار الشام الإسلامية)، وتلته خطوة اندماجية أخرى لثلاثة تشكيلات من تشكيلات الجبهة الإسلامية السورية في دمشق وريفها وهي: (كتيبة حمزة بن عبد المطلب وكتيبة صقور الإسلام وسرايا المهام الخاصة)؛ لتكوّن كياناً جديداً باسم (كتائب حمزة بن عبد المطلب)، وفتحت الجبهة أبوابها لكل من يطمح للمشاركة في هذا المشروع، وهو مشروع الأمة القادم بمشاركة الجميع، فنحن جزء من هذا الحراك الكبير وينبغي أن نشترك جميعاً في تحقيقه.

البيان: يلاحظ الجمهور الإسلامي أن في كل أيام الجمع تخرج مظاهرات بعناوين موحدة وشعارات يرفعها الثوار في جميع المدن، كيف يتم التنسيق لذلك، وعلى أي أساس يتم اختيار أسماء الجمع وتلك الشعارات التي ترفع؟

هذه الأمور تكون عبر استفتاءات على الفيسبوك يشارك فيها الثوار المهتمون بهذا الشأن، ويتم اختيار التسميات حسب الأحداث التي تجري على الأرض سياسياً أو عسكرياً.

البيان: هل حانت اللحظة المناسبة لضبط السياسة الداخلية للثورة، وتوجيهها بشكل تنظيمي بعيداً عن الخطوات الارتجالية والتداخلات الموجودة، وما هو المستقبل السياسي المأمول للثورة في ظل تنوع أطيافها؟

نعم أخي الكريم قد حانت، والجبهة الإسلامية السورية منذ تأسيسها بدأت بجهود كبيرة لضبط سياسة الداخل بالتعاون مع الفصائل الكبيرة العاملة على الأرض، وتم بفضل الله تحقيق تنسيق عالٍ بين ثوار الداخل بما يخص الرؤى وردود الأفعال السياسية. وأما عن المستقبل السياسي فنأمل أن يكون مشرقاً إن شاء الله؛ لأن عدل الإسلام سيعم كل الأطياف الأخرى، فالجميع يعلم أن الأقليات كانت أفضل فترات حياتها في ظل الحكم الإسلامي، وما أصابها الظلم إلا في ظل الحكومات البعيدة عن منهج الله عز وجل.

البيان: تحت ذريعة الدفاع عن حقوق الأقليات والمشاركة السياسية هل يمكن أن يعود العلويون إلى السلطة في إطار تصالح سوري داخلي؟

حقوق الأقليات ورفع الظلم ونشر العدل هي مما قد فرضه الله عز وجل علينا جميعاً، وعلى كل مسلم أن يلتزم بأوامر خالقه سبحانه وتعالى، فالضامن الوحيد لحقوق الأقليات في أي بقعة على الأرض هو التمكين لشرع الله، وما يتردد من غير ذلك فهو من الوهم والممارسات الإقصائية التي تمارسها الحركات والأفكار اليسارية الموغلة في التشويه والافتراء، والفترة السابقة أكبر دليل على ذلك الظلم الذي كانت تعانيه الأقليات في ظل النظام الأسدي.

البيان: استُخدم مشروع اجتثاث البعث في العراق لتصفية السنة وإبعادهم عن السلطة، ألا يمكن أن تعاد الكرة في سورية بعد الثورة على الرافضة في إطار تصالح سوري داخلي؟

كان الشعب السني في تلك المرحلة مخدوعاً تماماً بالطغمة الحاكمة في إيران، وما يسمى «حزب الله»؛ لذلك استطاعوا تمرير مشروعهم في العراق الحبيب، أما اليوم في سورية فالأمر مختلف تماماً، فالنظام الصفوي في إيران بات شريكاً أساسياً في قتل الشعب، خاصة المسلمين السنة، والشعب يعرف ذلك تماماً، فلن يكون الاجتثاث بإذن الله إلا للمشروع الصفوي الذي يحاول طغاة طهران تصديره بعد أن ساموا أهل السنة في إيران المسلمة سوء العذاب، حتى المعارضة من الشيعة فيها عانت الكثير والكثير من بطش هذا النظام الصفوي كما هو الحال في معسكر أشرف الذي يعاني أهله بطش

الحكومة الصفوية العراقية والإيرانية بتواطؤ مخزٍ من الإدارة الأمريكية.

البيان: الجيش السوري النظامي بُني على عقيدة قتالية كانت غايتها الأولى حماية طائفة معينة والدفاع عن مشروعها السياسي، كيف تتصور آليات بناء الجيش السوري الجديد بعد إسقاط النظام؟

ستكون نواته كما ذكرنا سابقاً هذه الكتائب المقاتلة والمجاهدة التي خرجت للدفاع عن الشعب المظلوم والمقهور ضد هذا الجيش الأسدي الخائن، وأما بناؤه فسيكون مؤسساتياً بعيداً عن حماية مصالح شخصية، فهو جيش للمسلمين ينصر المظلوم ويكف يد الظالم ويبسط الأمن في البلد لينعم المسلم وغير المسلم بعدل الإسلام.

البيان: العلماء الربانيون الذين واجهوا النظام أو لم يناصروه الحاجة ماسة لإعادة الاعتبار لهم وإعادتهم للواجهة، ما التصور للخطوات في هذا الطريق؟

العلماء الربانيون موجودون في ساحات الوغى مع المجاهدين؛ يعلمون جاهلهم، ويذكرون المؤمنين بحق الله عليهم، ويربون وينصحون، فهم في الواجهة ولم يتخلفوا عنها يوماً، حتى لو كانوا بعيدين عن شاشات الإعلام، ومن علماء الأمة أيضاً من يجاهد بالكلمة والموقف والبيان والإفتاء والدعم، وهم طليعة المسلمين في مواجهة مكر الأعداء، وهم صمام الأمة إن التزموا وعملوا بما علموا.

البيان: شهدنا في ليبيا تضحيات الإسلاميين في الثورة ومشاركتهم الفاعلة التي كلفتهم الكثير، ومع نهاية الانتخابات حصد الليبراليون النتائج.. كيف ترى سورية المستقبل، هل هي دولة مدنية، أم مدينة ذات مرجعية إسلامية، أم دولة سنية، أم دولة الحرية والعدالة؟

رؤية الجبهة في هذا الباب نُصّ عليها مفصلاً في ميثاقها. الثورة السورية والمجاهدون فيها تعلموا الكثير من الثورات التي سبقتهم، وبإذن الله لن تتكرر تلك الأخطاء غير المقصودة طبعاً من الإسلاميين في البلاد العربية، فالثورة السورية قادها أهل الإسلام، وهم من قدم الشهداء والغالي والنفيس في سبيل إسقاط هذا النظام، وكتائبهم منتشرة في كل سورية، والحمد لله اليوم هم يضطلعون بخدمة المناطق المحررة ويديرونها، من يريد أن يخدم البلد ويشارك فمرحباً به، ونظرتنا منطلقة من مبادئ شرعنا الحنيف، وكل السوريين هتفوا بالولاء لله ورسوله من أول يوم في المظاهرات، وأما عن شكل الدولة القادمة فهي دولة تحكم بشرع الله الذي ارتضاه بغض النظر عن شكلها، فما يهمنا هو المنطلقات والمضمون.

البيان: ألا يُخشى أن تدخل البلاد في أتون حرب طائفية بعد سقوط النظام، لا سيما بعد الجرائم التي ارتكبت باسم الطائفية خلال الثورة، وكيف سيتم القضاء على أي مطالبات بانفصال سياسي مثل الأكراد؟

الحرب الطائفية هي ما يسعى إليه النظام المجرم من أول يوم في الثورة، ولا يمكن أن نتجاهل تورط غالبية الطائفة النصيرية في هذه الحرب، ونحن كمسلمين لدينا ما يضبطنا حتى في الحرب، فلن نظلم أحداً بسبب طائفته، ولن نترك عقوبة أحد دون طائفته، فمحاكم الثوار ستحاكم كل من قتل وأفسد وكل من وقف مع العصابة بغض النظر عن طائفته. وأما بالنسبة للإخوة الكورد فموقف الجبهة منهم واضح جداً، وقد صدر بيان من الجبهة يحدد الموقف، وللعلم هناك في الجبهة الإسلامية السورية كوادر كوردية تعمل جنباً إلى جنب مع باقي إخوانهم، فنحن نحترم القوميات ولا نتعصب لها والمصالح الكوردية والعربية وغيرها من القوميات المختلفة في سورية تتلاقى ولا تتنافر.

البيان: المجلس الوطني الذي نرى وجوده الإعلامي كممثل رئيسي للمعارضة السورية في الخارج، ما هو مستقبله السياسي في نظر العسكريين في الميدان، وخصوصاً كونه وسيلة الاتصال الرسمي مع الحكومات الأجنبية؟

المجلس الوطني وغيره من الهيئات السياسية التي تدَّعي تمثيل الثوار، هي جهات تمثل بعض الحراك السياسي في الخارج، لكنهم فشلوا جميعاً في تقديم أي شيء حقيقي للثورة، وذلك يعود لانفصالهم عن واقع الثوار، وبات هذا معروفاً حتى لدى الحكومات العربية والغربية، والمستقبل السياسي يحدده ثوار الخنادق لا ثوار الفنادق، وأنوّه هنا إلى مغالطة كثيراً ما يقع فيها المتحدثون في شأن الثورة السورية، وهي وصف الحراك الداخلي الثوري وتأطيره بوصف «العسكري»، وهذا مصادرة لا نرتضيها، فالثوار في الداخل فيهم المهندس والطبيب والاقتصادي

والمحامي والسياسي، وغيرهم من كافة الاختصاصات، وهم يشاركون في الحراك الثوري الداخلي عسكرياً ومدنياً، فاقتضى التنبيه.

البيان: هل تعتزمون إعلان مجلس تنفيذي يدير البلاد في ظل غياب السلطة عن بعض المدن أو القرى؟

هناك محاكم وهيئات إغاثية أنشئت في المناطق المحررة تقوم بهذا الدور الكبير، ونسعى مع كل الفصائل والجبهات الإسلامية والتشكيلات الثورية العسكرية والمدنية الملتزمة والمنضبطة؛ إلى تطويرها، فهي نواة إدارة مستقبلية ناجحة إن شاء الله لسورية المستقبل.

البيان: كيف تنظرون للمقترحات الدولية التي تبحث عن الحل السياسي للأزمة؟

في الوقت الذي تنتقل فيه السياسة الدولية من فشل إلى فشل - للأسف - دون أفق واضح، تأتي سلاسل انتصارات كبيرة يحققها الثوار المجاهدون على الأرض من فقدان النظام السيطرة على مناطق أوسع في دمشق وريفها، مروراً بمعارك التحرير في إدلب وتحرير المطارات، والصمود الكبير للثوار في حماه وحمص والساحل، ومعارك دير الزور والحسكة، ثم حلب التي شهدت بمناسبة الذكرى الثانية للثورة السورية المباركة، السيطرة على مستودعات الذخيرة والسلاح في منطقة خان طومان ضمن عملية «أبشري حلب» التي أطلقتها حركة أحرار الشام الإسلامية بالاشتراك مع فصائل وجماعات أخرى في المنطقة.

ونحن كجبهة إسلامية سورية، إحدى القوى العاملة على الأرض السورية بشقيها العسكري والمدني، نقول: على المعارضة السورية الشريفة في الخارج العودة إلى الداخل المحرر ومعاينة الواقع قبل العمل على تشكيل حكومة لتسيير واقع لا يعرفونه.

وأي حكومة مؤقتة تتم دون أن تنبثق من الداخل ومن معاناة شعبنا الذي تتوافر فيه كافة الاختصاصات والكوادر التي تلزمنا؛ فهي مرفوضة ابتداء.

وأي دعم لا يصب مباشرة في مواجهة الظلم والطغيان والقتل الذي يقع على شعبنا، فهو دعم مشبوه، ولن نسمح بأي دعم يصب في مشروع تقسيم سورية المرفوض رفضاً باتاً.

الثوار على الأرض قادرون على تحمّل مسؤولياتهم في المعارك، وهناك حراك ثوري مدني على الأرض قادر على القيام بمهام إدارة البلاد بما لديه من كوادر، فشعبنا شعب مثقف عامل نشيط والحمد لله، فرغم كل المعاناة أكثر ما يهمّ الأسرة السورية هو تعليم وتثقيف أبنائها.

البيان: سمعنا عن قيام الحكومة الأردنية بتسليم نشطاء لنظام الأسد.. هل هذه المعلومات صحيحة، وكيف ترون هذا السلوك؟

لا نمتلك أي معلومات حقيقية عن مثل هذا الشيء، ولا يمكن أن نبني موقفاً على ظن، لكننا ندعو كل الحكومات إلى بناء علاقات قوية وعلى أساس الثقة مع الشعب السوري الثائر بشقّيه المدني والعسكري؛ وذلك بالتواصل مع القادة في الداخل، فهم الباقون للمستقبل والعصابة زائلة بإذن الله.

البيان: كلمة صغيرة توجهونها للعالم الإسلامي، ماذا تقولون؟

نشكر كل من وقف مع الثورة السورية في العالم الإسلامي، ورسالتنا لهم أن الثوار لا يدافعون عن سورية وعن هوية سورية السنية، بل يدافعون عنهم جميعاً ضد عدو واحد، ولن نكون بمأمن من الخطر الصفوي إن نجح مشروعهم في سورية، لذلك ندعوهم لدعم الثورة السورية بكافة المجالات وبكل الوسائل المتاحة لديهم، فهي معركة الأمة.

قواصم الاختلاف الدعوي

الإصلاح الذي تتطلع إليه الشعوب إصلاحٌ شاملٌ يستوعب الإصلاح العقدي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي والحقوقي.. وغيرها من شُعب الإصلاح، والمدخل لذلك كله الإصلاح الدعوي، فالدعاة هم روَّاد الإصلاح، وهم حَمَلة لواء البناء والتجديد.

والإصلاح الدعوي الذي نتطلع إليه ينتظم في محاور عدَّة؛ منهجية وفكرية وأخلاقية وإدارية، ويأتي في مقدمتها إصلاح العلاقات الدعوية؛ فإذا صلح الدعاة واستقام أمرهم، صلح الناس، وإذا فسدت العلاقات الدعوية وتمزَّقت صفوفهم، فالناس لهم تبع.

وكنَّا نحسب أن الفتن ربما تجمع الدعاة وتؤلِّف بينهم، لكن تبعات الربيع العربي أثبتت شرخاً عريضاً في بعض المحاضن والتجمّعات الدعوية، فزادت الفرقة، وتوسعت الشقة، ما قد يؤثر في المشاريع الإصلاحية التي يحملون ألويتها.. وهذا داء عضال يتطلب أفقاً جديداً في الإصلاح ورأب الصدع، وهذا ما ترجوه مجلة البيان في ملف (قواصم الاختلاف الدعوي).

ونرجو أن يكون لنا دور في تعزيز قيم الاجتماع وثقافة التطاوع.

أثر الاختلاف على عقيدة الولاء والبراء

■ إبراهيم الأزرق

أصول في المعاداة والموالاة متعلقة بالموضوع

[١] الدين براء وولاء:

الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين فأصبحوا بنعمته إخواناً، وصلى الله وسلم على نبينا وآله وصحبه أكرم بهم أنصاراً وأعواناً، أما بعد: فإن الدين براء وولاء - لله وفيه - من حقَّقهما فقد استمسك بالعروة الوثقى كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وبهذا الدين بعث الله رسله كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فمن أطاعهم فقد فاز، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، وفي صحيح مسلم قال ﷺ: (من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله)[١].

[٢] الموالاة والمعاداة توجب أموراً وتنافي أخرى:

وموالاة الله توجب حُبَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الدِّين الحقِّ، وحبَّ المؤمنين به، وإظهارَ ذلك وإشاعته. وضده بضده؛ فالبراءة من الأنداد والكفر بالطواغيت يوجب البراءة من الكفر وأهله وبغضهم ومعاداتهم.

(١) أخرجه مسلم (٢٣) من حديث طارق بن أَشْيَم رضي الله عنه.

فَـإذا ادَّعَـيـتَ لَـهُ المَحَبَّـة مَـع خِـلاَ
فِـكَ مَـا يُـحِـبُّ فَـأنـتَ ذُو بُـهـتَـانِ
أتُـحِـبُّ أعـدَاءَ الحَـبِـيـب وَتَـدَّعِـي
حُـبـّاً لَـهُ مَـا ذَاكَ فِـي إمـكَـانِ
وَكَـذَا تُـعَـادِي جَـاهِـداً أحـبَـابَـهُ
أيـنَ المَحَـبَّـةُ يَـا أخَـا الشَّـيـطَـانِ[1]

قال الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

مودتهم واتخاذهم أولياء، كما أخبر الله سبحانه في كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ بأن اليهود والمشركين هم أشد الناس عداوة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، إلى قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تدل دلالة صريحة على وجوب بغض الكفار من اليهود والنصارى وسائر المشركين وعلى وجوب معاداتهم حتى يؤمنوا بالله وحده»[4].

[٣] إيجاب موالاة الله ولاء المؤمنين:

«إن المؤمنين أولياء الله، وبعضهم أولياء بعض، والكفار أعداء الله، وأعداء المؤمنين، وقد أوجب الله الموالاة بين المؤمنين، وبيَّن أن ذلك من لوازم الإيمان، ونهى عن موالاة الكفار، وبيَّن أن ذلك منتفٍ في حق المؤمنين، وبيَّن حال المنافقين في موالاة الكافرين؛ فأما موالاة المؤمنين فدلائلها كثيرة كقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ – ٥٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]»[2]، «فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن»[3].

[٤] إيجاب البراءِ البراءةَ من الكافرين:

وفي مقابل ما سبق «قد دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وأن يحذروا

[٥] البراءة من الكافرين توجب بغضاً وعداوة والموالاة للمؤمنين توجب محبة وحقوقاً:

قال شيخ الإسلام: «أمرنَا الله أَن نتأسى بإبراهيم وَالَّذين مَعَه إِذْ تبرءوا من الْمُشْركين وَمِمَّا يعبدونه من دون الله، وَقَالَ الْخَلِيل: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٧]، والبراءة ضد الْوَلَايَة، وأصل الْبَرَاءَة البغض، وأصل الْوَلَايَة الْحبّ، وَهَـذَا لِأَن حَقِيقَة التَّوْحِيد ألّا تحب إِلَّا الله وتحب مَا يُحِبهُ الله لله فَلَا تحب إِلَّا لله وَلَا تبغض إِلَّا لله»[5].

و«التأسي هنا في ثلاثة أمور:

أولاً: التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله.

ثانياً: الكفر بهم.

ثالثاً: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبداً إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده، وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم، وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء أبداً، والسبب في ذلك هو الكفر، فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم»[6].

وكما أن البراءة من الكافرين توجب بغض الكفر وأهله وإبداء ذلك بحسب القدرة والإمكان، فلا بد في ولاء المؤمنين

(١) من نونية ابن القيم، انظر شرح ابن عيسى، ٢/ ٢٦٤.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٩٠، بتصرف يسير.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٢٣١، وهو أول رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
(٤) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ ابن باز، ٢/ ١٧٨ باختصار لشواهد التنزيل.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٠/ ٤٦٥.
(٦) أضواء البيان، من تتمة الشيخ عطية ٨/ ٨٥.

من حب ما هم عليه من الإيمان، وحبهم لذلك، وإبداء ذلك، ومن ذلك ما أوجبه الله للمؤمن من الحقوق، كما في حديث أبي هريرة: «حق المسلم على المسلم خمس: ردُّ السلام، وعيادةُ المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميتُ العاطس»[1]، ولأجل ذلك حرم بين المؤمنين ما يفضي إلى التباغض، وما يوغر الصدور، ومن ذلك ما جاء في حديث أنس المتفق عليه قال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[2].

[٦] من أهم واجبات الولاء بين المؤمنين الائتلاف وترك التنازع:

كما نهى الله عز وجل عن اتخاذ من أَمَرَ بعداوتهم بطانةً، فقد أمر باتخاذ المؤمنين أولياء، وأمرهم بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التنازع والتَّفرُّق، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وبهذا يُعلم أن الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين[3]، فهو من الولاء الواجب، كما أنه سبب لإقامة الدين الواجب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرضى لكم ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[4]، «فالواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين، وعلماء المؤمنين، وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده، ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران، ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر لاجتهاده، وخطؤه مغفور له.. وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها.. وكل هذا من التفرق والاختلاف الذى نهى الله ورسوله عنه، وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل، المتبعين الظنَّ وما تهوى الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله؛ مستحقون للذم والعقاب»[5].

(١) متفق عليه؛ البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢).
(٢) صحيح البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).
(٣) وهذا نص ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ٢٢/٢٥٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة (١٧١٥).
(٥) مجموع الفتاوى ٢٢/٢٥٣.

أثر الاختلاف على تلك الأصول

الاختلاف يقع للمسلم مع الكافر – من حيث كفر هذا وإسلام ذاك[6] – وقد يقع للمسلم مع المسلم.

فالأول: تحمد فيه إحدى الطائفتين، وهم المؤمنون، وتذم فيه الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فقوله: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ حَمْدٌ لطائفة وذم لأخرى، وله نظائر أخرى[7]، فهذا يجب أن ينجم عنه براء من الكفر وأهله كما سبق بيانه، وهو مأمور به كما في قوله ﷺ: «خَالِفوا الْمُشْرِكِينَ»[8].

أما الثاني: وهو الاختلاف بين المسلمين، فإما أن يُفضي إلى الفُرْقَة والنِّزاع، وإما أن

(٦) وليس يعنيني هنا اختلاف غير المسلمين، ولا اختلاف المسلم مع الكافر اختلافاً غير متعلق بمسمى كل منهما كما يكون في التجارات ونحوها.
(٧) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٥٤ وما بعدها.
(٨) متفق عليه من حديث ابن عمر؛ البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩).

يكون دون ذلك، وهو على ضربين:

١- الضـــرب الأول: أن يكـــون تنوعاً كل نـــوع صحيح أو مشروع، ومنه:

أ - أن يكون كلٌّ واحدٍ من القولين أو الفعلين أو الطريقين حقاً مشروعاً.

ب - أو كلٌّ من القولين في معنى الآخر.

ج - أو هما متغايران لكنهما صحيحان غيرُ متنافيين.

فهذا كله قد يكون مشـــروعاً، فيكون كله حسناً في الدين، وربما تفاضلاً، والأصل في مثل هذا الاختلاف أن يوطد عُرى الأخوة، إذ قصد المختلفين واحد، وهو طاعة الله، وإقامة دينه، فكل منهما مطيعٌ محمود شـــرعاً فوجب أن يُحمد، فكيف إذا انضم إلى حمده لأجل طاعته، ما يوجبه سَـــدُّ أحدِهما ما لا يقوم به الآخر، فيرفع هذا عن هذا الحرج وكذلك العكس.

لكن كثيراً ما يصحب هذا الضرب ســـوء طويَّة، أو شـــيء من العصبيَّة الجاهليَّة، فيؤول إلى شـــرٍّ بين المختلفين، ومثال على الأول بناء المســـاجد التي أذن اللـــه أن تُرفع ويذكر فيها اســـمه، فهذا اختلاف تنوع مع كونـــه قربةً في أصله، والتعدد فيه حسن جميل بقيوده المعروفة، لكنّه إذا اقترن ببعض النِّيَّات الفاســـدة، والمقاصد القبيحة، ينقلب حكمه! قال ابن الجوزي: «نفاقُ المنافقين صَيَّر المســـجدَ مَزْبَلةً فقال المنزَّه: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَـــدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]»[١]، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْـــجِدًا ضِرَارًا وَكُفْـــرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْـــجِدٌ أُسِّـــسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

وأمَّا اختلاف التنوع الذي يؤول إلى فساد بسبب العصبية المذمومـــة، فمثل «اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة.. إلى غير ذلك مما قد شُـــرِع جميعه.. ثم نجد لكثير من الأمة في ذلـــك من الاختلاف ما أوجب اقتتـــال طوائف منهم على شَـــفْع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك! وهذا عين المحرم، ومن لم يبلغ هذا المبلغ؛ فتجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحدِ هذه الأنـــواع والإعراض عن الآخر، أو النهي عنه، ما دخل به فيما نهى عنه النبي ﷺ، ومنه: ما يكون كلٌّ من القولين هو في معنى القول الآخر؛ لكن العبارتين مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات وتقســـيم الأحكام وغير ذلك، ثـــم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذَمِّ الأخرى»[٢]، ومَرَدُّ كلِّ اختلافٍ مذموم على ضرب من التنوع المشروع المحمود في دين الله، لأمر خارج مقترن به إما إلى الجهـــل أو الظلم أو كليهما، ومتى كان هذا وَقَعَ البغيُ الذي نهى الله عنه، وضعف الولاء الذي أمر الله به، وإلا فالأصل حمد كل طائفة قامت بالمشروع.

٢- الضرب الثاني: أن يكون الاختلاف اختلاف تضاد[٣]:

فهذا الخطب فيه أشـــد؛ لأن القولـــين يتنافيان، أحدهما دينٌ شرعه الله، والآخر قُصَيِّراه أن يكون اجتهاداً مغفوراً خطأ صاحبه، يؤجر فيه على اجتهاده وقصده، وهذا الضرب نوعان:

النوع الأول: أن يَتَمَحَّضَ الحقُّ لإحدى الطائفتين:

وهذا قليل بين منتسبي السنة، وله حالتان:

أ - أن تكـــون إحدى الطائفتين معـــذورة، وقد بذل أهل النظـــر منهم جهدهم في معرفة الحق فأخطؤوه، فهذه لا تذم مـــا دام الإثم عنها مرفوعاً، وإنما يـــذم قولها أو فعلها، ويَمنع العارضُ لحوقَ الذَّم بها، وهذا على طريقة أهل السنة القائلين بالعذر، خلافاً لأهـــل البدعة من المعتزلة الموجبين لحوق الذم بمقتضـــى العقل، أو المجوزين له من نفاة الحكمة. بل المعذورة يَبْقَـــى موجَبُ الولاء معها، وإن كان ذلـــك قد لا يمنع العقوبة في أحوال درءاً لشـــر أو كفّاً لمفســـدة، كما ذهب إليه جماهير الفقهاء فيمن يشـــرب النبيذ المختلف فيه من الصالحين، لكن العقوبـــة في الأحوال التي نصوا عليها لمعانٍ خارجية، تشـــبه إقامة الحد على التائب المقر[٤]، ويستوي في حكم هذا القسم الخلاف في أصلٍ كلِّي أو مسألةٍ جزئية، فمن خالف في أصل لعدم بلوغ الحجة، أو عدم تمكنه من فهمها مع اجتهاده، فالله يغفر له برحمته وفضله، إذ أوجب على نفســـه ألّا يُعذِّب أحداً إلّا بعد قيام الحجة الرســـالية عليه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّـــا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـــولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، والله عز وجل إنما توعَّـــد من فارق الجماعة بعد أن وقع له ما يوجب البيان، قال

(١) انظر اللطائف ص١٠٠، والمدهش ص ٣٩٩، وقوله: مزبلة بفتح الباء وضمها، حيث يُلقى الزَّبل، يريد جعل حكم الصلاة فيه كحكمها ثَمَّ، وقوله: المنزَّه لعله بفتح الزاي يريد الله سبحانه وتعالى فهو المنزَّه عن النقائص، وفيه تسامح لكونه إخباراً، ولو قال الله تعالى أو سبحانه لكان أولى.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٤٩-١٥٠.

(٣) وهذا على قول من يقول بأن المصيب واحد، وهو الحق الذي عليه الجماهير، من السلف والمتكلمين، وإلّا فهو اختلاف تنوع على قول من يقول: كل مجتهد مصيب؛ من الإصابة للمراد لا الصواب في بذل الجهد والبحث عن المراد.

(٤) وهي مسألة دقيقة لا يتحمل المقام غير الإشارة إليها، وفي بعض كلام شيخ الإسلام إشارات تكفي اللبيب فانظرها في المجموع ١٠/٣٧٣-٣٧٦، ٣٢/١٣٤، ومواضع أخرى.

تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فإذا ارتفع الوعيد وانتفى العذاب انتفى حكم موجبه، فلا ينسب معين إلى تكفير أو تفسيق أو معصية، إلَّا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرِّسالية، التي من خالفها كان كافراً تارةً، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى[1]، ومن أنكر تلك الحجة أو أعرض عنها كان حكمه بحسب ذنبه، فـ «إذا رأيت المقالة المخطئة قد صدرت من إمامٍ قديم فاغتفرت لعدم بلوغ الحجة له؛ فلا يغتفر لمن بلغته الحجة ما اغتفر للأول، فلهذا يُبَدَّع من بلغته أحاديثُ عذابِ القبر ونحوُها إذا أنكر ذلك، ولا تُبدَّع عائشة رضي الله عنها ونحوُها ممن لم يعرف بأن الموتى يسمعون[2] في قبورهم؛ فهذا أصل عظيم فتدبره فإنه نافع»[3].

ب - أن تكون إحدى الطائفتين مفرِّطَةً في معرفة الحق والعمل به، أو مخالفةً له بهوى غيرَ جاحدة فهي آثمة، قال الإمام الشافعي: أجمع المسلمون على أنّ من استبانت له سُنة رسول الله ﷺ، لم يحلّ له أن يدعها لقول أحد[4]، فهذه المفرّطة عاصية ينتقص ما يجب لها من الولاء بحسب معصيتها، وعلى هذا دلت النصوص ونُقل الإجماع[5] ودرج السلف، فعن أبي المخارق قال: ذكر عبادة بن الصامت أنّ النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم، فقال فلان: ما أرى بهذا بأساً يداً بيد! فقال عبادة: أقول قال النبي ﷺ وتقول لا أرى به بأساً! والله لا يظلّني وإياك سقف أبداً[6]. وقد رأى عبد الله بن مغفل رضي الله عنه رجلاً من أصحابه يخذف، فقال له: «لا تخذف فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف أو كان يكره الخذف» الحديث، ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال: أحدِّثك عن رسول الله وأنت تخذف! لا أكلمك كذا وكذا[7]! وفي لفظ لمسلم قال: فعاد، فقال أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنه ثم تخذف لا أكلمك أبداً[8]. ونظائر هذا كثيرة جداً[9]، وقد «صح عنه [عليه الصلاة والسلام] أنَّه هجر كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، لما تخلفوا عن غزوة تبوك وظهرت معصيتهم وخيف عليهم النفاق، فهجرهم وأمر المسلمين بهجرهم حتى أمرهم باعتزال أزواجهم من غير طلاق خمسين ليلة، إلى أن نزلت توبتهم من السماء[10]. وكذلك أمر عمر رضي الله عنه المسلمين بهجر صبيغ بن عِسْل التميمي لما رآه من الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب، إلى أن مضى عليه حول، وتبيَّن صدقه في التوبة، فأمر المسلمين بمراجعته[11]. فبهذا ونحوه رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع الداعين إليها، والمظهرين للكبائر، فأمَّا من كان مستتراً بمعصية، أو مسراً لبدعة غير مكفرة؛ فإن هذا لا يُهجر»[12]، ومع ذلك قد تمنع من الهجر مفسدة أعظم، وقد توجب تركه مصلحة أعظم، والأصل أنه لا يجب لهذا من الحب والولاء ما يجب للتقي الصالح. ثم هذا القسم إمَّا أن يكون المخالف فيه قد خالف في أصل كلي وقاعدة من قواعد الشريعة، أو في جزئي، فالأول وهو الخلاف في الأصل الكلي يخرج بصاحبه إلى حَدِّ البدعة، ويعامل بما يجب للمبتدع في الشرع، وتُنتقص حقوق الولاء له بقدر بدعته، «وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة»[13]، لكنه قد يقترن به ما يخرج صاحبه إلى حدِّ البدعة، كما قال شيخ الإسلام فيمن خالف السنة في أمور جليلة أو دقيقة لعذر: «ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعةَ المسلمين؛ يوالون عليه ويعادون، كان من نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك، ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها؛ لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة، بخلاف من والى موافقه، وعادى مخالفه، وفرَّق بين جماعة المسلمين، وكفَّر وفسَّق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات»[14]،

(١) انظر المعنى في مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٢٢٩.

(٢) لعله يشير إلى الحديث المخرج في الصحيحين؛ البخاري (٣٩٧٨)، ومسلم (٩٣٢)، ذكر عند عائشة رضي الله عنها، أن ابن عمر قال إن رسول الله قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: «إنهم ليسمعون ما أقول»، قالت إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق»، ثم قرأت ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ [النمل: ٨٠]، ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ [فاطر: ٢٢]، يقول حين تبوؤا مقاعدهم من النار.

(٣) مجموع الفتاوى ٦/٦١.

(٤) كثيراً ما ينقله أهل العلم، انظر زاد المهاجر ص ٣٧، ومدارج السالكين ٢/٣٣٥، والاتباع لابن أبي العز ص ٢٤، وانظر المعنى من قول الشافعي في الأم ١/١٥١، ٧/٢٦٠.

(٥) انظر تقرير ذلك في رسالتي إنصاف أهل السنة ص ١٣ وما بعدها، وكذا إحياء علوم الدين ٢/١٦٨.

(٦) أخرجه ابن ماجه (١٨)، والدارمي (٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٨).

(٧) أخرجه البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤).

(٨) السابق.

(٩) ذكر جملة صالحة منها الشيخ عبد القيوم السحيباني وفقه الله في رسالته المختصرة المفيدة: تعظيم السنة وموقف السلف ممن عارضها أو استهزأ بشيء منها، فلتنظر.

(١٠) ينظر حديث كعب بن مالك المتفق عليه في البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(١١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٤/٦٣٥-٦٣٦.

(١٢) مجموع الفتاوى ٢٤/١٧٤-١٧٥.

(١٣) الاعتصام للشاطبي ٢/٢٠١.

(١٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣٤٩.

وهـــذا يقتضي أنّ من خرج به ذلك الخطأ ولو كان جزئياً دقيقاً إلى حدٍّ يجعلـــه يعقد عليه ولاء وبراء فقد يخرجه ذلك عن الجماعة؛ والله المستعان.

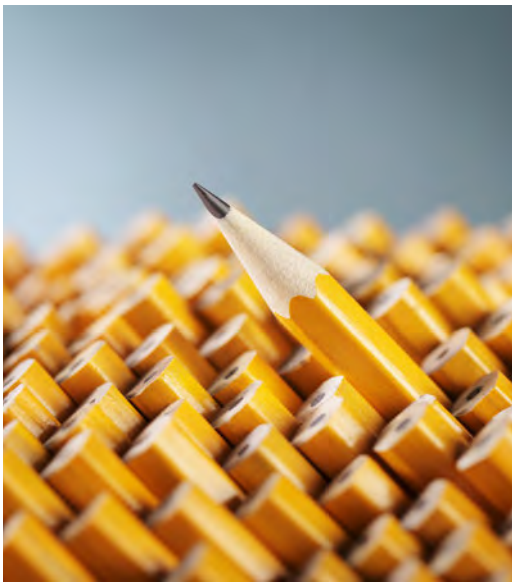

النوع الثاني: أن يتفرق الحق بين المسلمين:

فقد يكون القول الباطل - الذي مع منازعه - فيه حق مـــا، أو معه دليل يقتضي حقاً ما، فيرد الحقَّ مع الباطل، حتى يبقى هذا مبطـــلاً في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل، وهذا يجري كثيراً لأهل السنة[1].

وقد نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحدُ كلِّ واحدٍ من المختلفين ما مع الآخر من الحق[2]، ثم تجري في هذا القدر من الجحد الحالين المتقدمتين في النوع الأول.

وبالجملة فالخلاف بين أهل السّنة في الساحة اليوم قـــلَّ أن يتمحض الحق فيه لطائفة، ثم هو في جزئيات لا توجب انفصاماً في عروة الولاء، ولا يجوز أن تنتقص معه حقوق الأخوة الإيمانية، لكنه يخرج بالبغي؛ لجهل أو هوى، إلى ضـــرب من التعصب المذموم الـــذي يجدر أن تجتمع كلمة أهل العلم على حربه، وكـــفِّ الرعاع والعامة - وإن كانوا إسلاميين - عنه، صيانةً لهم عن الوقوع في البدعة باتباعهم الجهل أو الهوى.

(١) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٥٣٠، وقارنه بما في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٥١.
(٢) انظر الاقتضاء ١/ ١٤٣.

تنبيهات على مسائل متعلقة متفرقة

وختاماً؛ لعل مما يحســـن التنبيه إليه في هذا البحث أربع مسائل:

الأولـــى: ما يقع بين المســـلمين من خـــلاف طبعي؛ إما لتنافس على تجارة أو دنيـــا، أو لتنافر في الصفات والخلال، أو لشُحٍّ في النُّفوس، أو لغير ذلك؛ فهذا ضرب آخر يقال فيـــه ما يقوله أهل العلم فـــي الحب الطبعي الذي قد يجتمع مع البراء الشرعي، وهنا العكس، فيجب أن ينطـــوي العبد على الولاء الشـــرعي وما يقتضيه من الحب وما يستلزمه هذا من النصرة وسائر الحقوق، وإن اجتمع معـــه بغض طبعي مُنفكَّة جهتـــه عن جهة الحب الشرعي، والمهم في هذا كالمهم في اجتماع الحب الطبعي مع البغض الشرعي أن لا يُقدم حكم الطبع على الشرع، فـــلا ينتقص للمبغوض طبْعاً حقاً شـــرعياً، بل يُوَلَى من الحقوق ما يليق بـــه، إن كان كبيراً وُقِّر، وإن كان صغيراً رحم، وإذا ســـلم رد عليه السلام، وإذا عطس شمَّتَه، وإن احتاج نَصْرَه نَصَـــرَه، إلى غير ذلك، وبعدها لا يضره إن نافره طبعه أو لم ترتح إليه نفسه، ومما يستأنس به هنا ما يروى عـــن عمر رضي الله عنه أنـــه قال لأبي مريم السّـــلولي - وهو الذي قتل أخاه زيد بن الخطاب رضي الله عنه -: والله إني لا أحبك حتى تُحِبَّ الأرضُ الدَّمَ[3]! قـــال: أفيمنعني ذلك حقّاً؟ قال: لا! قال: فلا ضير، إنما يبكي على الحُبِّ النساء[4]!

وفي صحيح البخاري قال وحشي بن حرب الحبشي رضي الله عنه: أقمت بمكة حتى فشـــا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً، فقيل لي: إنه لا يَهيج الرســـلَ. قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «آنت وحشي»؟ قلت: نعـــم. قال: «أنت قتلت حمـــزة»؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني». قال: فخرجت، فلما قبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مســـيلمة، لعلي أقتله فأكافئ

(٣) الأرض لا تشرب الدم المسفوح ولا يخالطها، إنما يجمد أعلاها فيقلع دون أن يدخل منه في باطنها شيء، فاستعملوه في الكناية عن عدم الملاءمة.
(٤) انظر أدب الدنيا والدين ص١٥٣، ونحوه مروي عن رجل مع عبد الملك كما في أنساب الأشراف للبلاذري ٧/ ٢١٥.

به حمزة.. الخبر[1].

الثانية: لمّا كانت الشـــريعة تنزيـــل من حكيم حميدٍ جاءت مُراعية لأحوال النفوس وما يعتريها من الشُـــحِّ والأدواء إذ قد تنفر ولا تســـمح جراء خلاف دنيوي من مخالفها، فمن رحمة الله أن أذن في الهجر إذا كان شـــيء من ذلك دون ثلاث ليال، وهذا «مقدارٌ يُرخَّص فيه فيما كان محظور الجنس، قال ﷺ: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثـــلاث إلّا على زوج)[2]، وقال: (لا يحل لمســـلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث)[3]»[4]، فهذه رخصة، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَـــحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشـــورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَلْيَعْفُـــوا وَلْيَصْفَحُـــوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُـــمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

الثالثة: كثيـــراً ما تختلط حظوظ النفوس وأســـباب البغض الطبعي مع الخلاف الشرعي فينجم عن ذلك المزيج تقصيرٌ في حقوق الولاء بدعوى أنَّ الأخ قد خالف الشريعة، كمـــا تختلط حظـــوظ النفوس من جهة أخـــرى مع الحبِّ الشرعي فتضع المحبوب فوق منزلته[5]، وبإمكان المنصف أن يختبر ذلك من نفسه بنظره لحاله مع من هو أشد انحرافاً من مخالفه – لا ســـيما إن كان من جماعته أو قرابته – أو أعظم طاعـــة وعلماً من موافقه في الآخَرين، فإن وجد أن المعيار واحدٌ فهو على جادة، وإلّا فليحذر الهوى! أما إن كان لا يرى أصلاً أحداً من مشـــيخته أو جماعته قد يفضله من ليس منهم والعكس بالعكس! فذاك الذي خرج به التعصب إلى طريقة جاهلية.

الرابعة: علينا أن ننظر للمخالف بنوع من نظر الرحمة وإن خرج الخلاف معه إلى حدٍّ يوجب نوع براء، وهذا النظر تطغى فيه مشاهدة القدر لمن ضرَّ نفسه بمخالفته الحق، وفائدة هذا النظر أمران:

الأول: معرفة قدر النعمة التي أولاها الله عبده، إذ اجتباه وهداه فســـلَّمه مما لم يسلم منه من قد يكون أذكى منه عقلاً، وأكثر علماً.

الثانـــي: الاجتهاد في دعوة الخلـــق، وهدايتهم إلى الحق، خوفاً عليهم من مغبة ما هم فيه.

ولكن ليحذر في هذا النظر كذلك من أمرين:

الأول: مخالفة الواجب الشرعي مع المخالف، بأن يوليه من الولاء ما لا يليق به.

والثانـــي: ليحذر من أن تختلط عنـــده الرحمة بالمداهنة، فقد يخيل إلى بعضهم أنه ينظر بعين الرحمة وهو مُداهن قد ركن إلى الذين ظلموا! ومحك ذلك أن ينظر في حاله مع غير هذا الذي يزعم أنه له راحم هل ينظر إليه كذلك بعين الرحمة إن جنى على خاصٍّ حَقِّه فيقول: إنه مســـكين ربما جرى عليه القلم بما هو أهله، وعليّ أن أجهد في استنقاذه؟ إن كان كذلك فمثل هذا قد تصح له نية في بعض الإغماض عما يجب لذلك المخالف في الشريعة لغرض استنقاذه، أما إن كان يغتاظ عند الجناية على حقه، ويترحـــم عند الجناية على حقِّ الله، فهذا مداهن مغرور بمكيدة إبليسية فليتنبه له[6]! ومن بديع قول ابن القيم في الكافية الشافية:

وانـــظُر إلـى الأقـــدَارِ جَـارِيَـةً بِمَا
قَـد شَـاءَ مِـن غَـيٍّ وَمِـن إيمَـانِ
واجعَـل لِقَـلبِكَ مُقلَتَين كِلاَهُمَا
بِـالحَـقِّ فِـي ذَا الخَـلقِ نَـاظِرَتَـانِ
فانظُر بِعَينِ الحُكمِ وَارحَمهُمُ بِهَا
إذ لا تُـــرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّـانِ
وانظُر بِعَينِ الأمرِ واحملهُم عَلَى
أحكَامِهِ فَهُمَا إذاً نَظَرَانِ
واجعَل لِوجهِكَ مُقلَتَينِ كِلاَهُمَا
مِن خَشيَةِ الرَّحمَنِ بَاكِيَتَانِ
لَو شَاءَ رَبُّكَ كُنتَ أيضاً مِثلَهُم
فَالقَلبُ بَينَ أصَابِعِ الرَّحمَنِ

نعـــوذ بالله من الحـــور بعد الكور، ومـــن الضلال بعد الهدى، ونسأله أن يلهمنا رشدنا ويجمع كلمتنا، والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٢).

(٢) متفق عليه من حديث أم حبيبة؛ البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦).

(٣) متفق عليه من حديث أبي أيوب الأنصاري؛ البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠)، وحديث أنس المتقدم في بعض ألفاظه.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٣٩.

(٥) واجتماع الحب الطبعي للأنس والمشاكلة أو الإحسان والخدمة مع الحب الشرعي لا بأس به في أصله ما لم يغل فيه بسببه، لكن كثيراً ما تختلط الأمور فيظن الطبعي لله، فإذا انصرف عن خدمته أو إحسانه انصرف قلبه عنه! وكذا ضده أعني اجتماع البغض الطبعي مع الشرعي.

(٦) وهو معنى سبق إليه أبو حامد الغزالي في الإحياء ٢/ ١٦٨ وإنما تركت نصه لأحرف تنسجم مع طرائق الجبرية، حاولت أن أتحاشاها.

الإسلاميون..

بين عواصم الائتلاف وقواصم الاختلاف

■ عبد العزيز كامل

لهذا المقال مناسبتان: إحداهما أنه تكملة لما بدأت به في المقال السابق تحت عنوان: (هل لا تزال مصر هي الجائزة؟)، حيث ذكرت أن هناك أربعة مخاطر كبرى تتهدَّد مستقبل الإنجاز التاريخي المنتظر لمصر تحت قيادة الإسلاميين، وهي:

- دفع الدولة المصرية تحت حكم الإسلاميين إلى منحدر (الدولة الفاشلة) لعزلها ثم التفرد بها.
- توظيف الخلافات بين الإسلاميين لضربهم وضرب الدعوة من خلالهم.
- استعمال الأقباط وبعض الأقليات في كسر وحدة واستقلال الدولة المصرية.
- تحريك مشكلات سيناء السياسية والعسكرية، ثم تدويلها لفصلها واستغلالها.

أما المناسبة الثانية، فهي أن المقال مشاركة في ملف هذا العدد المعنون بـ (قواصم الاختلاف الدعوي).

إذن؛ وبعد تناول الحديث عن المحاولات المستميتة لدفع مصر نحو مرحلة الفشل، يظل شبح الفرقة بين الإسلاميين في مصر - كما في كل بلاد المسلمين - أخطر ما يهدِّد مشاريعهم، سواء كانت سياسية أو دعوية أو جهادية، أو حتى اجتماعية.

وهناك حقيقة تاريخية تعكس سنة إلهية، ظلت تحكم مسيرة أمتنا نحو النهوض أو السقوط؛ وهي أن قوتنا في وحدتنا، وأن أعداءنا مهما عظمت قوتهم وزاد مكرهم لا ينالون منا بقدر ما ننال نحن من أنفسنا؛ فهناك تجارب إسلامية فذة أشعَّت بالإبهار والعظمة، كانت وحدة الكلمة فيها عنصراً بارزاً أكسب الأمة أهلية النصرة وجدارة التمكين؛ وهناك في المقابل نكبات سوداء وفصول دامية دهماء كان وراءها تفرُّق الكلمة وتشعُّب الأهواء.

وقد وصف القرآن حصاد التنازع والفرقة بأنه فساد وفتنة، فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وبيَّن أن عاقبته الفشل وذهاب الريح، فقال سبحانه: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وإذا رحنا نستعرض محطات بارزة من هذا في مسيرة الأمة، لرأينا دولاً وممالك عظيمة شُيِّدت على صروح الاعتصام والائتلاف، ثم هدّتها معاول الفرقة والاختلاف.

• لنتأمل مثلاً في الفصل الأخير من الخلافة الراشدة كيف كان التنازع والتفرق الذي أُقحم على الأمة إقحاماً في أواخر عهد الخليفتين المظلومين - عثمان وعلي رضي الله عنهما -؛ سبباً في نهاية تلك المرحلة التي كانت غُرة في التاريخ الإسلامي، بل الإنساني؛ نهايةً باكيةً داميةً.

• ولنراجع ما حدث مع دولة بني أمية التي تأسَّست عام ٤١ هـ، إنها الدولة التي عرفت بـ (دولة الفتوحات)، والتي اتسعت رقعتها لتمتدَّ من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً، ومن حدود فرنسا شمالاً إلى منابع النيل جنوباً.. تلك الدولة التي زادت مساحتها على ضعفي مساحة الإمبراطورية الرومانية، لكنها مع عظم قدرها قَصُر عمرها فلم تكمل قرناً من الزمن. وقد أرجع عامة المؤرخين سرعة سقوطها رغم قوة بنيانها إلى تعدُّد عوامل الفرقة والاختلاف فيها؛ ذلك أنها تكاثرت فيها ثلاثة أنواع من الخلافات المورثة للشقاقات، أولها: الاختلاف

بسبب العصبيات القبلية بين العرب اليمنيين والعرب القيسيين، وهو ما استغله دعاة بني العباس في الدعوة إلى تخليص المسلمين من هؤلاء وهؤلاء. وثانيها: الخلافات المذهبية التي أنشأت خلافات فكرية تحوَّلت إلى صراعات سياسية لم تلبث أن أدَّت إلى ثورات تخريبية يقودها الشيعة تارة والخوارج تارات، مع ثورات خرج بها قادة كبار كعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الأشعث الكندي ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وغيرهم. وثالثها: خلافات أسرية داخل الأسرة الحاكمة نفسها.. كل ذلك نخر في بنيان الدولة حتى ذهب بأسُها وقصر عمرها معجلاً بسقوطها عام ١٣٢هـ على يد بني العباس.

• وإذا ذهبنا نسترجع ذاكرة التاريخ وما سطره عن دولة بني العباس التي قامت على أنقاض دولة بني أمية؛ لوجدناها دولة قامت في بدايتها على إحكام الحكم وارتكازه على وحدة الكلمة، وقد كانت أسعد حظاً من دولة بني أمية من حيث استمرار قيامها لأكثر من خمسة قرون، غير أن القرن الأول منها – وهو الذي يمثل قرن الوحدة من تاريخها – كان هو قرن القوة والبأس الذي حكم فيه خلفاء اجتمعت أو كادت تجتمع عليهم الأمة، لكن مرض الفرقة أصابها في المرحلة الثانية الممتدة لنحو مائتين وخمسين عاماً، حيث سيطر على السلطة الأتراك والبويهيون، وكان الخلفاء فيها مجرد صور، ومع ذلك ظلت الدولة متماسكة نسبياً. أما المرحلة الثالثة والممتدة للمائة عام الباقية، فقد فَقَدَ الخلفاء فيها حتى الصورة، حتى سطا الطامحون المتنافسون على مفاصل الدولة من داخلها، ممهدين الطريق لحثالة البشر من التتر للانقضاض من خارجها. وقد أفاض المؤرخون في إيراد أسباب ذلك السقوط المروع لأطول دول الإسلام عمراً وأكثرها اتساعاً، وهو ما يمكن إجماله في أن الخلافات كانت أكبر من أن تواجه التحديات؛ فقد كان الانهماك في الفرقة صارفاً عن التفرغ للنظر في ترميم أحوال الدولة ولمِّ شعثها، حتى اتسعت الخروق على الراقعين، واستعصى العلاج على المصلحين؛ فخلافات الفرقاء التي لم تكن بعيدة عن الحميّة العنصرية والعصبية المذهبية؛ فتَّت الأمة في الداخل، فلم تقوَ على مقاومة الطامعين في الخارج، حتى أصبح القادم من هذا الخارج هو الأقوى والأقدر رغم حقارة حضارته وسخافة ثقافته، فلما اجتاحوا بشركهم ديار التوحيد لم يجدوها موحدة، ولم يروا من الأمة إلا بقايا مفككة مشققة، ولم يجدوا من يقاومهم مع الخليفة في بغداد إلا فتات دولة ورفات نظام؛ سرعان ما تداعى المختلفون فيه أمام بأس القادمين المتحدين على باطلهم.

• أما دولة بني أمية في مرحلتها الثانية بالأندلس – إسبانيا والبرتغال اليوم – مع بلاد المغرب العربي؛ فقد عاشت ثمانية قرون مثَّلت فيها – حال وحدتها – حاضرة الإسلام الزاهرة الظاهرة في أوروبا، أيام كانت تلك القارة تغصُّ بالظلم وتغوص في الظلمات. وعندما أصيبت تلك الدولة بداء الأمم، فتَّ الخلاف في عضدها، وصار الشقاق بين الأمراء ظاهرة تميزهم، حتى غدت تعرف بـ «دولة الطوائف» بعد أن لمَّ شملها (الموحدون)، حيث تخالف أمراؤها أكثر مما تحالفوا، وتدابروا دون أن يتضافروا، حتى قيل فيهم وفي ملوكهم المتعاظمين بالأسماء دون مسمى:

ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقد تنازلوا عن العز بتنازعهم، حتى وجدوا أنفسهم في مواجهة خصوم من عبَّاد الصليب كانوا في أول شأنهم بلا شأن ولا خطر، فإذا بهم مع شتات خصومهم يجتمعون على فضِّ جامعة الإسلام، مخترمين إياها بقوة السلاح، غير محترمين حقوق الجوار ولا أعراف الإنسانية؛ في أكبر عملية غدر إجرامي في التاريخ، لم تجبر الناس فقط على ترك أرضهم وديارهم، بل أكرهتهم على ترك دينهم! لكن من يُلام؟ أهم المختلفون الموحّدون.. أم المتحدون المشركون الذين اهتبلوا فرص اختلاف الخصوم فلم يختلفوا في اقتناصها؟

• بمجيء آخر الكيانات العالمية للدولة الإسلامية – دولة الخلافة العثمانية –، نرى دولة قد استمرت مدة قرنين من الزمان قبل أن تتحول إلى دولة خلافة جامعة عام ٩٢٣ هـ، وقد نشأت فتيَّة عصيَّة على الاختراق، وظلت كذلك لعشرات العقود؛ تنافح عن حياض الأمة بما أوتيت من قوة وصلابة لحمايتها من ذئاب الأرض وكلابها، وذلك من أطرافها الأربعة؛ ففي شرق دولة الخلافة كان العثمانيون يقاتلون الصليبيين المتحالفين مع الرافضة الصفويين في إيران، وفي الغرب كانوا يدافعون النمساويين والإسبان الذين أسقطوا دولة الأندلس ولا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة أخرى في بلاد أخرى، وفي الشمال ظلوا ينازلون الروس الطامعين في ضمِّ المستطاع من بلاد المسلمين إلى الإمبراطورية الروسية القيصرية، وفي الجنوب كانوا بالمرصاد لتربّص البرتغاليين بالجزيرة العربية لتنصيرها بعد الانتصار عليها. وكانت تلك الدولة قد بسطت سلطانها على

معظم ما يُعرف اليوم بالعالم العربي، مع امتدادها إلى أواسط آسيا، وسيطرتها على الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا.. واستمر قيامها حامية لأوطان المسلمين لأكثر من خمسة قرون، إلى أن تعاظمت الاختلافات السياسية الداخلية بين سلاطينها وولاتها، وتحول الانقسام في الرأي إلى تقاسم للأرض بألسنة الخداع المسيَّس أو أسنَّة الخلاف المسلح؛ فاستقل المماليك في العراق، وانفصل آل العظم بسورية، والشهابيون بلبنان، ومحمد علي ثم علي بك الكبير بمصر، وضاهر العمر بفلسطين، وأحمد الجزار بعكا، والقرامنلي بليبيا.. وكان كل كيان منفصلاً يسعى إلى التوسع على حساب السلطة المركزية، وهو ما أضعف قوتها وذهب بهيبتها بين الأمم، وزاد الطين بلة ما طرأ من خلاف سبَّبته الحميَّة الجاهلية بين الترك والعرب، وهو ما أوصل إلى ما عُرف بالثورة العربية التي كانت خنجراً في ظهر الخلافة التركية في أشد أوقات أزمتها. وباحتدام النزاع بين مكونات الدولة، انفتحت شهية القوى الدولية المعادية لنيل نصيب من ميراث لم يمت صاحبه، لكن تنازع ورثته! فتربص نصارى فرنسا بالشام وبلاد المغرب العربي، وتحرش نصارى إنجلترا بمصر والعراق ومنطقة الخليج، وترصد اليهود للوصول إلى فلسطين، حيث أدركوا أن طريقهم لإقامة دولتهم اليهودية لا يمر إلا فوق مخلّفات الخلافات بدولة الخلافة العثمانية، وهو ما حدث بكل أسف؛ سقطت دولة الإسلام عام ١٩٢٤م، لتقوم دولة اليهود عام ١٩٤٨م.

وفي عصرنا الراهن:

• وبعد تسبُّب الاختلاف في توهين ثم إسقاط ذلك الكيان العالمي الجامع للمسلمين منذ أقل من مائة عام، بعد أن ظل يمثل قطباً دولياً رئيساً في العالم؛ ظلت الأمة تحاول أن تستعيد وحدتها لاسترجاع قوتها؛ ولذلك تواصل استهداف الأعداء لشرفائها الساعين لإعادة جمع كيانها وتوحيد كلمتها من جديد، فقد كان خيار كل الصادقين العاملين للإسلام يلتقي حول محاولة إعادة كيان الإسلام العالمي مرة أخرى، ولو بصيغ أخرى؛ ولذلك قامت الجماعات، ونشأت الحركات، لكن هذا الخيار كان مرصوداً دائماً باختبار قدرة المتصدّرين له على الصمود ضد رياح الاختلاف وأعاصير النزاع، فما أن ظهرت حركة أو جماعة – منذ سقوط الخلافة إلى الآن –، فتتقدم خطوات في سبيل هذا الهدف المشروع؛ إلا وتحاصَر بالمشكلات والمطاردات والتدخلات والاختراقات الهادفة إلى زرع الخلافات والشقاقات، ومع هذا فقد نجح الإسلاميون بعد إخفاقات طويلة في عقود الأربعينيات والخمسينيات والستينيات والسبعينيات الميلادية، في الوصول خلال حقبة التسعينيات إلى عتبة التحول من مرحلة الجماعات والتنظيمات إلى مرحلة الدولة والسلطة؛ فقد تُوِّجت أكثر من تجربة إسلامية في ربع القرن الأخير بإنجازات ضخمة بكل المقاييس، حتى عُدَّت بعض تلك الإنجازات من قبيل المعجزات التي ما كان لها أن تتحقق – بعد تأييد الله – إلا باجتماع الأمة حول رموزها وتأهّلها لنوال النصر. ولقد شهد جيلنا خلال الربع قرن الأخير حدثين عالميين مبهرين في طريقة حصولهما وجسامة نتائجهما، كان الإسلاميون هم أداتهما القدرية ووسيلتهما الفعلية؛ أحدهما: اندثار الاتحاد السوفييتي في آخر عام ١٩٩١م، والذي كان يمثل القطب العالمي الثاني، بعد هزيمته تحت ضربات الجهاد الأفغاني الأول الذي اجتمعت عليه الأمة وقتها. والآخر: اندحار الاتحاد الأمريكي – الذي أصبح القطب العالمي الوحيد –، حيث هُزم بعد منازلة الأفغانيين والعراقيين له بعد غزوه بلديهما.

إنهما حدثان كونيان جليلان في زمن قياسي قصير، تعاظمت آثارهما العالمية والإقليمية، وكانت وحدة الصف الإسلامي فيهما هي الظاهرة الأبرز، وقد كانا جديرين بقلب الموازين الدولية لصالح أمة الإسلام لو أُحسن استغلال نتائجهما واستثمار مخرجاتهما، لكن قاتل الله الخلاف، فهو يذهب بكل خير، ويحل محله كل شر.

لا يستطيع منصف أن ينكر عبقرية وجسارة من كانوا في صدارة هذين المشهدين من الإسلاميين، لكن الأمانة تقتضي أيضاً أن نقول إن شيئاً خطيراً حدث حوَّل نتائج تلك الجسارة الرائعة إلى خسارة مروعة، فما القصة؟ إنها قد تكون معروفة لدى كثيرين، لكن استذكارها والتذكير بها يصبح اليوم من الضرورات الملحة، خاصة أننا نعيش مرحلة شبه إعجازية ثالثة ولمّا ينقضِ ذلك الربع قرن العجيب من الزمن، وهي مرحلة لا تقلّ في جسامة خطرها وضخامة آثارها عن الحدَثين الكبيرين السابقين؛ إنها مرحلة التحول الكبرى الحالية التي انطلقت مع ثورات العرب على الفساد والاستبداد المتسبّب في ضياع الأمة وتفككها طوال ما يقرب من قرن مضى، تلك المرحلة التي يمكن أن تقلب أوضاع العالم رأساً على عقب لصالح المسلمين؛ لو أحسنوا استغلال ظرفها باتحادهم، ولم يضيعوا ثمرتها بفرقتهم.

سنحتاج إلى تحريك الذاكرة المعاصرة القريبة لنفتش عن إجابة لسؤال الساعة، وهو: كيف تحوَّلت انتصاراتنا إلى انكسارات؟ وكيف يتفادى الإسلاميون هذا في صعودهم الراهن الذي يراهن جميع الكارهين للدين على تحويله إلى مدرج للهبوط أو هاوية للسقوط؟ سأذكر حالات ثلاث هي الأبرز في التجارب الإسلامية المعاصرة التي طاولت رؤوسنا بها الجوزاء، ثم أجهضتها اختلافات الأهواء.

الجهاد الأفغاني الأول.. والانتحار على القمة:

– كانت (الجمعية الإسلامية) كبرى التجمّعات الإسلامية التي التأم تحت رايتها الإسلاميون في أفغانستان، وبعدما غزا الروس ذلك البلد وبدأ الجهاد الأفغاني الواجب لدفعه، كان من المفترض أن يظل شمل الإسلاميين ملتئماً تحت اسم الجمعية الإسلامية، لكن ذلك ما لم يحدث، إذ انشطرت الجمعية إلى قسمين لم تفصل بينهما اجتهادات فقهية أو توجهات سياسية، بل كان الاختلاف العرقي هو سبب الانشطار؛ فقد انقسمت الجمعية الإسلامية إلى قسمين: (الحزب الإسلامي) الذي يعدّ جمهوره من عرقية البشتون بزعامة «قلب الدين حكمتيار»، و(الجمعية الإسلامية) بزعامة (برهان الدين رباني) وجمهورها من عرقية الطاجيك. وتعدّدت الرايات بعد ذلك أثناء الجهاد الأفغاني الأول ضد الروس ثم عملائهم الشيوعيين (من عام ١٩٧٩ إلى ١٩٨٩م)، فكانت هناك سبعة أحزاب كبيرة، وأحزاب أخرى صغيرة، وقد عملت أجهزة الاستخبارات العالمية – وبخاصة الأمريكية – على بثِّ الفرقة بين هذه التجمعات؛ عن طريق ربط فصائل المجاهدين بأجندات خارجية متناقضة، تحسباً لمرحلة يبقون فيها مختلفين بعد تحقيق الانتصار.

– خرج السوفييت من أفغانستان عام ١٩٨٨م، لكنهم تركوا نظاماً شيوعياً عميلاً لهم، لذلك كان لا بد من أن يستمر الجهاد، وهو ما حصل، حتى أُسقط ذلك النظام العميل، لكن المجاهدين اختلفوا فيما بينهم حول من يدخل العاصمة كابل أولاً؟ ومَن ثمَّ يكون له الحق في إدارة الدولة؟ لكنهم اتفقوا بعد مجادلات وخلافات على حل توافقي، وهو أن يكون الدخول بشكل جماعي، ثم تسند الرئاسة لمدة شهرين لرجل صوفي كان له فصيل في المجاهدين هو (صبغة الله مجددي)، على أن يليه في السلطة (برهان الدين رباني) لمدة أربعة أشهر، ويكون رئيس وزرائه (قلب الدين حكمتيار)، ووزير دفاعه (أحمد شاه مسعود)؛ وبهذا صارت الدولة ذات أركان ثلاثة تنافرت ثم تناحرت.

– دخل المقاتلون العاصمة فاتحين – وَفق ذاك الاتفاق – في أجواء فرحة ونشوة عمَّت العالم الإسلامي كله بسبب الانتصار على أقوى وأشرس جيوش العالم، ثم دحر عملائه من الشيوعيين المرتدين، وكانت هذه أول تجربة – بعد نازلة إسقاط الخلافة – يصل إسلاميون فيها بمشروع إلى نهاية ناجحة.. ودخلت الفصائل المجاهدة في يوم مهيب العاصمة (كابل)، وَفق التوافق المذكور، لكن أسباب الاختلاف العرقية والحزبية والشخصية والمتعلقة بالأجندات الخارجية؛ تسارعت إلى صنع واقع جديد، حيث قضى (مجددي) مدته الرئاسية في أجواء قلق وترقب واستعداد من مختلف الأطراف لإحراز مكاسب أكبر في الفترة الانتقالية، وعندما آلت الرئاسة إلى برهان الدين رباني تشبَّث بها ورفض التخلي عن السلطة بعد انتهاء مدته المتفق عليها، وظل رئيس وزرائه (حكمتيار) لهذا ممتنعاً عن دخول كابل – بتشجيع من باكستان – إلا بفتح جديد يزيح زعامة غريمه (أحمد شاه مسعود) ومنافسه (رباني)!

– بدأ حكمتيار بقصف كابل بعنف، بمعونة الجنرال الشيوعي السابق (عبد الرشيد دوستم)، ودُمّرت كابل وروّع أهلها وقتلوا وشردوا بما لم يحدث أيام الاجتياح الشيوعي، وكاد طبيعياً أن يرد وزير الدفاع من الداخل على القصف المتتابع من الخارج، وكان متوقعاً أيضاً أن ينحاز الطاجيك والأوزبك إلى (رباني) و(مسعود)، ويقف البشتون بصف (حكمتيار) البشتوني!

وهكذا.. وقع المجاهدون في أحبولة الحمية الجاهلية التي حذر منها الرسول ﷺ عندما قال: «دعوها فإنها منتنة» (البخاري/ ٤٩٠٥)، ودارت طاحونة الحرب الأهلية في أفغانستان مدة أربع سنوات، ليسقط خلالها نحو ٤٠ ألف قتيل، بين فصائل تبيَّن أن قتالها في الفتنة لم يكن لتكون كلمة الله هي العليا، لكن: لتكون كلمة القبيلة أو الحزب أو جهة الدعم هي العليا!

طالبان وميراث الخلاف:

جاءت حركة طالبان ذات الانتماء البشتوني في أجواء تلك الحرب، حيث حاول طلاب الشريعة الذين كانوا في الصف الثاني من المجاهدين، تصحيح الأوضاع، وإعادة توجيه المسار لصالح عموم الشعب الأفغاني الذي فُجع في قادته، وقام الطلبة بما يشبه الثورة على المتخالفين من القادة الكبار جميعاً؛ الذين نجحوا في جهاد العدو الظاهر، بينما لم يفلحوا في

جهاد الشـــيطان والهوى الباطن.. ولاقت خطواتهم الإصلاحية الســـريعة في القضاء على تجار الســـلاح والمخـــدرات وقطّاع الطرق، ترحيباً حاراً من جموع الشـــعب، فتتابعت طلبات زعماء القبائل وحكّام المحافظات للدخول تحت حكمهم، وســـاعد هذا في التســـريع بســـيطرتهم على ما يزيد علـــى ٩٠٪ من أراضي أفغانســـتان، باســـتثناء منطقة وادي بنشـــير التي تحصّن فيها (أحمد شاه مســـعود) و(رباني) و(سياف) رافضين النزول على حكم طالبان، ومدعومين في ذلك من قوى غربية على رأســـها فرنســـا. وقد حاول (حكمتيار) التقرب إلى طالبان في البداية، باعتبار أنه من البشـــتون مثلهم، لكنهـــم وضعوه ضمن أهداف حركتهم التصحيحية، فأخرجوه من المناطق التي كان مســـيطراً عليها. ولما خَلُصت معظم أراضي أفغانســـتان لطالبان، وبدأت تتهيّأ لصيغة من القبول الدولي الذي أدركت أن تجاهله سيوصل لمصير مجهول؛ كانت المصلحة العليا للبلاد تتطلب تسوية الوضع حول الخمســـة في المائة الباقية من أرض البلاد، والخارجة عن حكم طالبان، إذ كان من الممكن أن تســـوَّى خلافات المجاهدين السابقين واللاحقين في مصالحة يتواضع فيها الجميع للجميع في ظل شـــريعة الإســـلام التي تنصف الجميـــع، لكن ذلك ما لم يحـــدث، إذ ظل المنحازون إلى الشـــمال متحصّنين بالجبال ومتحيّنين فرصة وثوب جديدة على كابل المبتلاة، وظلت طالبان متمسّكة بإسقاط آخر معاقل «المجاهدين القدامى».

وقد أثارت خطوات طالبان الســـريعة بالتحكم في مفاصل الدولـــة عن طريق تحكيم الشـــريعة باســـتقلال واضح عن كل الأجندات الخارجية؛ أثارت هلع قوى عالمية وإقليمية خشـــيت أن تمثل أفغانســـتان نموذجاً ملهِماً للشـــعوب المجاورة في آسيا الوســـطى؛ لهذا كان التخلص من دولـــة الطالبان قراراً متخذاً فـــي أمريكا وحلفائها منذ مدة حكم (بيل كلينتون)، لكن أحداث ســـبتمبر عجّلت بموعد تنفيذ القرار، وهو قرار لم يكن ســـهل التنفيذ؛ لتوحُّد جموع الشـــعب الأفغاني مـــع قيادته الجديدة، ولأن ذلك الشـــعب خارج للتو من ملحمـــة بطولية أرغمت أنف جيش الإلحاد الروســـي، فكان لا بـــد للجيش الصليبي الدولي، بزعامـــة أمريكا، مـــن ظهير داخلي يعين علـــى تنفيذ المؤامرة. ووجد الأمريكيون ضالتهم في قوات (تحالف الشـــمال) بقيادة رباني وسياف، الرمزين البارزين في الجهاد ضد الروس، (اغتيل مســـعود قبل الاجتياح الأمريكي بثلاثة أيـــام)، وإذا بمجاهدي الأمس ضد غزو الروس؛ يقفـــون في الغد مع الغدر الأمريكي! وسبحان مقلب القلوب!!

وقد مثَّـــل ذلك التحالف جســـر عبور للمحتـــل الصليبي الأمريكي نكاية في حكم الطلبة الذين اعترضوا على اســـتمرار الحـــرب الأهلية! وســـقطت دولة الطالبـــان بالخيانة، بينما لم يُقِم أصحاب الشِّـــمال دولة لتحالف الشَّـــمال، بل وقع الجميع تحت أقدام حكم عميل جديد يلبس مســـوح الأفغان على جلود الأمريكان!

تجربة العراق بين «صحوات» المنافقين وغفلات المجاهدين:

كشـــف الشق السني من شـــعب العراق – والإسلاميون في مقدمتهم – عن شـــجاعة نادرة في التصـــدي للغارة الأمريكية المدعومة أممياً، والتي اســـتهدفت إخضاع العراق والســـيطرة عليه تمهيداً لهيمنة أمريكية أوســـع على ســـائر المنطقة، لكن مقاومة المجاهدين من أهل الســـنة أربكـــت خطط هذا الغزو، وهي لم تحبط مشروع السيطرة الأمريكية على العراق فحسب، بل أجهضت مشـــروعاً أضخم يقبع وراءه، وهو مشـــروع هيمنة الأمريكيين على العالم لمائة عام قادمة تحت اسم (مشروع القرن الأمريكي)، والذي ســـقط في أروع انتصار، على أطغى قوة، في أسرع مدة.

كان ذلك الإنجاز تاجاً على رأس كل مســـلم، لا في العراق فحســـب، بل في ســـائر أنحاء العالم، وقد اشتركت كل فصائل المقاومة في شَـــقِّ الطريق نحوه، وإن كان بنســـب متفاوتة، ولم تكن هناك تناقضات ظاهـــرة عرقياً أو مذهبياً بين الاتجاهات الرئيسة لتلك المقاومة، إذ كانت كلها سنية في خاصتها وعامتها، وكذلـــك لم تظهر اختلافات حادة فـــي الاجتهادات في مراحل النصـــر الأولى، فبدا المجاهدون على قلـــب رجل واحد، وكانت هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية من المجاهدين تتفق كلها على مبدأ دحـــر الغزاة، لكنها اختلفت فيما بعد في أمور أخرى، من بينها: الموقـــف من المتعاونين مع المحتل، وكيفية إدارة البلاد بعد خروج ذلك المحتل، وطبيعة العمل السياســـي الـــذي يمكن من خلاله توظيف ثمرة النصر لصالح العراقيين وسائر الأمة. الاتجاهات الجهادية الثلاثة بفصائلها كان منها من يرى أن العراق نفســـه يمكن أن يكون مبدأ انطلاق نحو تحرير إرادة الأمة كلها، وكذلك فـــإن العدو ليس هو المحتل فقط، بـــل كل من تعاون معه.. لكن تلك الرؤية لم تلقَ موافقة الاتجاه الثاني من الفصائل التي رأت عدم التوســـع في الإطار الجهادي زمانياً ولا مكانياً ولا إنسانياً، إلا في حدود ما يتعلق بالشأن العراقي، بينما كان الاتجاه الثالث

ميالاً للحل السياسي وحده، ولو بالمشاركة في المرحلة الانتقالية التي وضعت أمريكا بالاشتراك مع إيران خطوطها العريضة.

ومع هذا؛ فقد كان كل العرب السنة على وفاق في هدف إخراج المحتل، وقد مثَّل هذا غصة في حلوق أعداء العراق وأعداء الأمة كلها، ولذلك وضعوا أعينهم على اتجاه رابع، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهم فريق المختَرَقين المنتفعين من الغزاة والمستفيدين من بقائهم، أولئك هم فئام المنافقين آفةُ كل زمان ومكان، وأَوكَلوا إليهم بثَّ الفرقة وإثارة اللغط حول أهداف كل اتجاه من المجاهدين، فتركز التشويه في البداية على الأشد نكاية في العدو، ثم بدأوا من خلال أبواقهم بتصنيف المقاومين للعدوان إلى إسلاميين ووطنيين - يعني علمانيين -، ثم إلى سياسيين وجهاديين، ومتشددين ومعتدلين، ومواطنين وأجنبيين، حتى ثبَّتوا فيما بعد مصطلح تقسيم المقاومة إلى «شريفة» و«غير شريفة»؛ كل ذلك تمهيداً لتنفيذ استراتيجية وكر التآمر الأمريكي (مركز راند للأبحاث) التي دعت إلى ضرب ما يُسمى «الإسلام المتشدد» بما يُسمى «الإسلام المعتدل»! بعد تطبيع التعامل مع ذلك التصنيف إعلامياً وسياسياً. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد - في العراق وغيره - أن كل من يريد شريعة الإسلام هو عندهم متشدد، سواء كان سعيه لإقامتها عالمياً أو محلياً، سياسياً أو ميدانياً، سلمياً أو عسكرياً.

ثم تقرر ضرب الجميع بالجميع، في ظرف غفلة قبيحة مدانة ضربت الجميع حتى ألهتهم عن قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلم تنشد هذه الرحمة بالتراحم الواجب والاعتصام المفروض المستلزم نبذ الشقاق وتقليص الخلاف. ثم كانت الكائنة المتوقعة بتسليح أهل النفاق لضرب المختلفين، فقد صنعت أمريكا على عينها صنائع وضيعة من المنافقين، وأطلقت عليهم اسم «صحوات العراق»؛ لتقضي قضاء مبرماً على صحوة كل العراقيين! فبينما كانت المقاومة بجميع فصائلها تذيق الأمريكيين وعملاءهم مرارة الهزيمة باهظة التكاليف، كان هناك من يبثّ ثم يوسع ثم يعمّق الفرقة بينهم، لينصرفوا عن مواجهة الأمريكيين وعملائهم، إلى مواجهات فيما بينهم؛ ليفضي ذلك إلى ضعف يسهّل هزيمتهم وتصفيتهم جميعاً - بأيدٍ محلية أسلحتها أمريكية وبتحويل شهري يصل إلى ٢٠٠ مليون دولار. وبدأ الصدام بين مجموعات المجاهدين المتناثرة المتناحرة، وبين جيش بلغ قوامه نحو مائة ألف من المرتزقة الخونة الذين جرى تجهيزهم لإخراج كافة المجاهدين السنة من ساحة المعركة، معتدلين أو متشددين، سياسيين أو عسكريين، مواطنين أو مهاجرين، وهو ما نرى - بكل أسف - أنه وقع على الوجه المخطط له، حتى صار أهل السنة في العراق بين مجاهد مطارد، وسياسي محاصر، وعوام لم يعد أمامهم اليوم إلا الاعتصام والتظاهر لاستجداء أدنى الحقوق! ومع ذلك تتوعدهم الصحوات التي ثُبِّت أخبثها بالجيش العراقي، بتكرار حملات عام ٢٠٠٦م.

وبعد:

فهذه تجارب مريرة، لكن الأمرَّ منها هو تناسيها وتجاهلها ثم تكرارها لاستنساخها، لمزيد من الانكسار بعد كل انتصار.

- هل يريد الإسلاميون المختلفون في مصر أو سورية أو ليبيا أو تونس، أن يتكرر اليوم في بلادهم ما وقع بالأمس القريب في أفغانستان أو العراق أو الصومال؟

- وهل يعي الإسلاميون في مصر، على وجه الخصوص، أن رهان الأعداء معقود على إيصالهم إلى مرحلة الصدام بعد الخصام، وعلى نقلهم - في مراحل لاحقة - من مربع التنافس الحزبي إلى مستنقع التقاتل الحربي؟

- وهل يتنبَّه المجاهدون في سورية مبكراً لمؤامرة تكرار (السيناريو) العراقي في صفوفهم، من خلال تقسيمهم إلى ذات القسمة التي انقسم بها العراقيون السنة؟

- هل بذل المصلحون لذات البين مجهودات أو أطلقوا مبادرات في الإصلاح والتأليف توازي أو تقارب ما يصرفه المفرِّقون من وقت وجهد في التفريق والتمزيق من حيث يشعرون أو لا يشعرون؟

إن الوقت قد حان لإطلاق مبادرة إصلاحية ذات مقومات شرعية ومكونات عالمية للمسارعة في القيام بالفريضة الكفائية التي يأثم الجميع بتركها، وهي فريضة إصلاح ذات البين بين الموحّدين وبذل جهود في (التقريب) بين أهل السنة وأهل السنة؛ فنيران الاختلاف نرى نذرها اليوم تشتعل ثم تستعر في أكثر المواطن الساخنة في عالمنا الإسلامي، فهل يقوم فريق من «الإطفائيين» المحتسبين بتدبير الخطط لإخمادها وتقدير مكونات وإمكانات القيام بها؟ إن هذا ما نرجوه وما ندعو إليه قبل أن تدهمنا أيام تذهب بما تبقَّى لدينا من آمال وأحلام.. والله حسبنا ونعم الوكيل.

الانتساب لأهل السنة وتقليل النزاع

■ د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

> طاف اثنان من الخوارج بالبيت الحرام، فقال أحدهما لصاحبه: جنة عرضها كعرض السماء والأرض لا يدخلها غيري وغيرك؟! فقال الآخر: نعم. فقال الأول: هي لك! وترك رأيه(١).

مسألة الانتساب لأهل السنة والجماعة كسائر المسائل التي تجاذبها إفراط وتفريط، فهناك من حجّر واسعاً، وحصر أهل السنة في اتباعه، وقصرهم على أصحابه، كما قال ابن تيمية: "كثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة، ويجعل من خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى"(٢).

(*) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.
(١) هذه القصة رواها اللالكائي في أصول الاعتقاد، ٦/ ١٢٣٤هـ.
(٢) الفتاوى، ٣/ ٣٤٦.

وفي المقابل نجد أقواماً لا يميّزون بين أهل السنة وأهل القبلة، ويلحقون أهل البدع والأهواء بأهل السنة والجماعة.

ومما يقلل الاختلاف الجاثم بين طوائف من المتسنّنة: التذكير بضرورة الاجتماع والائتلاف، والنهي عن الفرقة والاختلاف، وأن ذلك لا يتحقق إلا بلزوم السنة ظاهراً وباطناً، والاعتصام بنصوص الوحيين، فسبب الاجتماع والألفة: العمل بالدين كله، وسبب الفرقة: ترك حظّ مما أُمر العبدُ به، ومتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، كما قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]. كل من كان عن السنة أبعد، كان التنازع والاختلاف في مقولاتهم أعظم[١].

فلن تجد اتفاقاً واجتماعاً إلا بأخذ الدين كله، والدخول في السلم كافة، عكس ما يتوهمه بعضهم من أن الاجتماع لا يحصل إلا بالتخلّي عما يجب التمسّك به، والتنازل عما يتعيّن الاعتصام به من أصول وقواعد لأجل مجاملات وتراجعات، أو مصالح موهومة.

وهذا يؤكد ضرورة التفقّه في دين الله، والرسوخ في العلم، والتمييز بين ما كان معلوماً من الدين بالضرورة فلا تصح مخالفته، ولا تصلح معارضته؛ وما كان محل اجتهاد تسع مخالفته، ويثاب مخطئه؛ فهناك أصول كبيرة قد هوّن من شأنها بعض متسننة العصر - مثل: الحكم بما أنزل الله وما يناقضه - لأجل جهل مشوب بهوى، وردود أفعال، ويقابل ذلك: مسائل اجتهادية فروعية اختلف فيها العلماء قديماً، ولم يتفرّقوا ولم يبدّعوا.. لكنها صارت الآن محل تهويل وتبديع وتضليل لدى بعض المنتسبين للسنة.

ثم إن أهل السنة هم من فهم النصوص الشرعية ظاهراً وباطناً، وحقق الاتباع لنصوص الوحيين ظاهراً وباطناً[٢].

فالعناية بإصلاح السرائر، والقيام بتزكية النفوس وفق الهدي النبوي، والتخفف من الأهواء والحظوظ، وضبط الشهوات وإلجامها؛ لهو أعظم سبيل في إصلاح ذات البين بين طوائف أهل السنة، فإن الناظر إلى أهل السنة في الوقت الراهن قد يلحظ علماً بالشريعة، ودراية بالأحكام الظاهرة، واتفاقاً في مصادر التلقي والاستدلال.. لكن النفرة قائمة والشحناء قائمة.. وإنما ذاك لأجل شهوات خفية، وحظوظ وأثرة.

«إن الاختلاف من لوازم النشأة الإنسانية، فالشهوات والشبهات لازمة للنوع الإنساني، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]»[٣].

فلا بد من مدافعة الشبهات بالعلم واليقين، ولا بد من معالجة الشهوات بالصبر والترويض، فغالب الاختلاف الواقع بين الأمة هو جحد للحق الذي مع المخالف.. وهذا أقرب للشهوات والغي منه إلى الشبهات والجهل.

يقول ابن تيمية في هذا الشأن: "واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء تجد من هذا الضرب، و هو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيباً فيما يثبته أو في بعضه، مخطئاً في نفي ما عليه الآخر.. فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب.."[٤].

إن التخوّف والهلع من الذوبان في محيط المخالفين، قد يكون عجزاً وضعفاً، ولا يكون مسوغاً في تهويل الخلاف، وإيثار المناكفة والنزاع.. وإنما تكون المدافعة للزلات بالعلم بالحق والرحمة بالخلق، فالرسوخ في العلم بالله وأحكامه يحفظ أهل السنة من الانفلات والذوبان، ويحقق لهم النفع والقبول والإصلاح.

وإن تحريك الوجدان بما يرضي الرحمن، وإحياء واعظ الله في قلب كل مؤمن، وإزالة سخائم القلوب، والسعي لسلامة الصدور؛ إن ذلك كفيل بالتخلّص من ركام كثير في خلاف مفتعل، لا حظّ له من العلم والتحقيق. ورحم الله الإمام الشافعي القائل: "ألا يستقيم أن تكون إخواناً، وإن لم تتفق في مسألة"[٥].

إن جملة من الخلاف الواقع في الأمة سببه الذنوب، وإن الاستغفار والتوبة إلى الله يرفع البلاء ويجلب الرحمة[٦].

وإن الحديث عن لزوم السنة والاتباع ينبغي أن يقترن بالحديث عن ضرورة الألفة والاجتماع، فابن تيمية - مثلاً - كان أعظم الناس دعوة لمنهج أهل السنة تقريراً

(١) ينظر: الدرء، ١/١٥٧؛ الفتاوى لابن تيمية، ١/١٧، ٣/٤٢١؛ والاقتضاء، ٢/٨٤٠.
(٢) ينظر: الفتاوى لابن تيمية، ٤/٩٥.
(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية، ٨/٣٦٧.
(٤) الاقتضاء، ١/١٢٥.
(٥) السير للذهبي، ١٠/١٦.
(٦) ينظر: الفتاوى، ٣٥/٨٣.

وتأصيلاً، ونقضاً ونسفاً لأصول البدع والانحراف، ومع ذلك كان يقول: "إن الله أمرنا بالجماعة والائتلاف، ونهانا عن الفرقة والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].. ربنا واحد، وكتابنا واحد، ونبينا واحد، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين"(١).

ومما يحقق الاجتماع، ويقلّص دائرة الفرقة والنزاع؛ أن يحرر ويظهر ضابط المفارقة لأهل السنة والجماعة، سواء في المسائل أو الدلائل، ومتى يحكم على الفرقة أو الطائفة بأنها خارج أهل السنة.

وقد بيّن ذلك ابن تيمية – في غير مواطن – فقال: "وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والإجماع"(٢).

فهذا ضابط المفارقة في الدلائل، فمن كان يتلقى دينه من العقل والقياس – مثل المعتزلة ونحوهم من المتكلمة –، أو يتلقى دينه من الذوق والوجد – كحال المتصوفة –؛ فليس هذا سبيل أهل السنة.

وأما ضابط المفارقة في المسائل، فقد حرره الشاطبي بقوله: "هذه الفرق إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرّق شيعاً.. ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا كثّر من إنشاء الفروع المخترعة، عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة"(٣).

وقرر ابن تيمية قريباً من ذلك، فقال: "والبدعة التي يعدّ الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة، كبدعة الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة"(٤).

واستصحاب أن أهل السنة يعلمون الحق ويرحمون الخلق.. مما يحجّم النزاع ويقلل الخلاف، وكلما ازداد العلم واليقين، كلما عظمت الرحمة والإشفاق، "وأئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، ولا يقصدون الشرّ لهم ابتداءً، بل إذا عاقبوهم وبيّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق"(٥).

لقد سام المعتصمُ الإمامَ أحمدَ أصناف العذاب من جلد وسجن، لكن الإمام أحمد كان يقول: "كل من ذكرني ففي حلّ إلا مبتدعاً، وقد جعلت أبا إسحاق – المعتصم – في حلّ.. – إلى أن قال – ما ينفعك أن يعذّب الله أخاك المسلم في سبيلك"(٦).

وأمر مهمّ يسهم في تقليص الخلاف، وهو مراعاة عوارض الأهلية كالجهل والتأوّل ونحوهما، فليس كل من زلّ فقارف بدعةً يكون مبتدعاً، وكذا مراعاة اختلاف الأحوال والبلدان، كما حرره ابن تيمية بقوله: "وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة، ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم"(٧).

وقال – في مراعاة أحوال الأماكن والبلدان –: "فإنهم [الكلابية والأشاعرة] أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة، والحديث عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة ونحوهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها المعتزلة والرافضة"(٨).

فاللهم اجمع على الحق كلمتنا، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

---

(١) الفتاوى، ٣/ ١٨٢.
(٢) الفتاوى، ٣/ ٣٤٦، وانظر: الواسطية، ص ٢٣.
(٣) الاعتصام، ت: مشهور، ٣/ ١٧٧.
(٤) الفتاوى، ٣٥/ ٤١٤.
(٥) الرد على البكري لابن تيمية، ص ٢٥٦.
(٦) السير للذهبي، ٩/ ٢٦١.
(٧) الفتاوى، ١٩/ ١٩١.
(٨) بيان تلبيس الجهمية، ٣/ ٥٣٨.

مَعالِمُ في طريق الائتلاف

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

عندما تتأمَّلُ واقعَ الدعوةِ والدعاةِ في العالم الإسلامي، سوف تقفُ على مشاهدَ وبرامجَ رائعةٍ تسرُّ الخاطر، لكنكَ في الوقتِ نفسهِ سوفَ تلاحظُ أنَّ من الأدواءِ المزمنةِ التي أثقلت الدعوةَ وأنهكت الدعاةَ، ظاهرةَ التفرُّقِ والتنازعِ والتدابرِ بين الدعاة!

وبعضُ هذا التنازع ناتجٌ عن اختلافاتٍ منهجيةٍ وعلميةٍ لها حظٌّ من الأثرِ أو النظر، ومثل هذا النوعِ ينبغي أن يعالَجَ برؤيةٍ علميةٍ وأفق دعوي بعيداً عن التهويشِ والجدلِ والمكايدة!

وكثيرٌ من تلكَ الاختلافاتِ تحركُها الأهواء، ويسودُها البغي، وتذكيها العصبياتُ الحزبيةُ والمشيخيَّة.. وما ذاقَ حلاوةَ الدعوةِ مَنْ تعلَّقَ قلبُه بِمَغْنَم شخصيٍّ، وعمَّر حياتَه الدعويةَ بالتهارش والقيل والقال.. وما ذاقَ حلاوةَ الدعوةِ مَنْ كان همَّه الانتصارُ للجماعة أو الحزب على حساب الحق.

قلّب بصرَك أنَّى شئتَ في محاضن العلم والدعوة، وستجد ظاهرةَ التوتر والتعانف والاحترابِ الداخلي تبرز لك بجلاء. وهذه بلا شك بيئةٌ خصبةٌ للفشل وذهابِ الريح وانتشارِ الوهن واستهلاكِ الطاقات، كما أنها بيئة خصبة لتمرير كثيرٍ من دسائسِ ومؤامراتِ المناوئين.

واقعٌ مؤلمٌ بلا شك!

مـا التقيتُ أحداً مـن العلماءِ أو الدعاةِ إلا رأيتُه يألَم لهذا التفرُّق، ويسـوق لك النصوص التي تأمـر بالاجتماع وتذم الفرقة، لكن قلَّ أن تجدَ مبادراتٍ عمليةً فاعلةً لرأبِ الصدع ولمِّ الشـمل، فهذا يُعْرِض وذاك يُكَابر؛ ليستمرَّ الخلاف، ويصَّاعد في دوائرِ الأتباع!

وأحسـبُ أننا سنعالج جزءاً كبيراً من هذا التفرُّق، وسنسيرُ في الاتجاهِ الصحيح؛ إذا صَدَقَ منا العزمُ، وحرصنا على الانطلاق من المعالم التالية:

المعلم الأول:

تعزيـز الولاء للحق والاعتصام بالحجـة والبرهان، وأن يكون مناط الولاء والنصرة والتعاون رضا الله – عز وجل –. ومن الآفات التي ينبغي الحـرص على علاجها ودرئها أن يُعقد الولاء والتعاون على الأسـاس الحزبي أو المشـيخي؛ وإن كان على حساب الحق، وفـي هذا يقول النبي ﷺ: (من نصـر قومه على غير الحق؛ فهو كالبعير الذي ردي وهو ينزع بذنبه)[1]. وقد رسـم الإمام ابن القيم المنهج الحق بقوله: «عادتنا في مسائل الدين كلها، دقها وجلها، أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة»[2].

إن تلك التجمُّعاتِ الدعوية في العالم الإسـلامي.. الجماعاتُ والأحـزابُ والجمعياتُ والمنظماتُ؛ تمثِّل أزمةً حقيقيةً في تنازعها وافتراقهـا، لكـن ألا يمكن أن تتحوَّل الأزمةُ إلـى فرصةٍ لتحقيق التنـوُّعِ الإيجابي والتكاملِ الدعوي، والحفـاظ على معاقد الولاء وأواصر الأخوّة، ثـم ندير خلافاتنا بمنهج يجمعُ ولا يُفرِّق، ويُؤلِّف ولا يُشتِّت؟!

هذه التجمُّعاتُ وسـيلة فلا تصرفنَّكُم مماحكاتُها عن الطريق، قال الله – تعالى –: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَـبِيلِهِ ذَلِكُـمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ومشـكلة بعضهم ظنه أنَّه لا طريق له لتحقيق أهدافه إلا بإقصاء الآخرين وتهميشهم، أو توظيفهم في مشروعه ليكونوا تحت عباءته، ومـا درى أنَّ كثيـراً من النزاع يمكن أن يـزول أو تخف حدته إذا أدركنا أنَّ الساحة الدعوية تتسع لكل الجهود المخلصة.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم (٥١١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي صحيح الجامع رقم (٦٥٧٥).
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين: (ص ٣٩٣).

المعلم الثاني:

إحيـاءُ شـعيرةِ التناصحِ والتواصـي بالحق، بالرحمةِ والإحسان، لا بالتشفِّي والانتقام؛ فالنصيحةُ المشـفِقَةُ آيةٌ من آياتِ المحبةِ والولاء، والسكوتُ عن الخطأ يزيد من شِقَّةِ الخلافِ ولا يعالجها.

ومن علامات النصيحة المخلصة: أن يكون الرد بنية التقويم والإرشاد، وليس الفضيحة والإسقاط! وفي هذا السـياق يقول ابن تيمية: «الرد على أهل البدع مـن الرافضة وغيرهم إن لم يقصد منه بيان الحق وهدي الخلق ورحمتهم والإحسـان إليهم؛ لم يكن عمله صالحاً، وإذا غلَّظ في ذمِّ بدعة ومعصية كان قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد، كما في نصوص الوعيد وغيرها. وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيـراً والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله، للرحمة والإحسان لا للتشفي والانتقام»[3].

وقد أشـار أبو نصر السجزي (ت: ٤٤٤هـ) إلى أنَّ المتكلم في السنة إذا أراد اتباعها فإنه يُعان على خصومه، أما من أراد المغالبة فربما غلب[4]!

وفي الوقت نفسه لن تحقِّق النصيحة مقصودها الشرعي إذا تزيَّنت بلباس الشدَّة والقسوة، وقد ثبت في الصحيح أن رسـول الله ﷺ قـال: (من يحرم الرفق يحرم الخير)[5].

(٣) منهاج السنة النبوية: (٥/ ٢٣٩ – ٢٤٠).
(٤) الرد على من أنكر الصوت والحرف: (ص ٢٣٥).
(٥) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٩٢).

المعلم الثالث:

إحياءُ فقه التغافرِ والتماسِ العذرِ وحُسن الظن وحفظ السابقة ومعرفة الفضل لأهله.. ونحوها من أخلاق ذوي المروءات، قال الله – تعالى –: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ونحن أحوج ما نكون إلى إحياء منهج الصحابة – رضي الله عنهم –؛ فقد سطروا أروع الأمثلة في سلامة الصدر والتغافر وسعة الأفق والتماس العذر لأهله، وتأمّل هذه القصة التي رواها الزهري فقال: «حدَّثني عروة أنَّ المسور بن مخرمة أخبره أنه وفد على معاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله! لتكلِّمني بذات نفسك بالذي تعيب عليَّ. قال مسور: فلم أترك شيئاً أعيبُه عليه إلا بيَّنتُ له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تعُدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامَّة، فإنَّ الحسنة بعشرة أمثالها، أم تعدُّ الذنوب وتترك المحاسن؟ قال: ما تُذكر إلا الذنوب. قال معاوية: فإنَّا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه؛ فهل لك يا مسور ذنوبٌ في خاصتك تخشى أن تهلك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقَّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أُخيَّر بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلا اخترتُ الله على ما سواه، وإني على دين يُقبَل فيه العمل ويُجزَى فيه بالحسنات، ويجزَى فيه بالذنوب، إلا أن يعفو الله عنها. قال: فخصمني. قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلَّى عليه»[١].

فتأمّل الإنصاف وسرعة الفيء لأولئك الأفذاذ – رضي الله عنهم –، ولا شك أنَّ التغافر وسلامة الصدر يحتاج إلى ترويض ومجاهدة ومغالبة للنفس، فمن يقوى على ذلك إلا أصحاب العزائم؟! قال الله – تعالى –: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٥١)؛ وانظر تخريج المحقق.

المعلم الرابع:

إشاعةُ ثقافةِ التطاوع لقول النبي ﷺ: (تطاوعا ولا تختلفا)[٢]، فالتطاوعُ يَدلُّ على صفاءِ النفس وقوةِ الشخصية وسِعَةِ الأفق، ولا يتحقق إلا بقدر كبير من السماحة والاستعداد للتوافق.

والتطاوعُ لا يعني التنازلَ عن الحقِ أو القبولَ بالباطل، أو السكوت عن الأخطاء، لكنه يعني الملاينة واتساعَ الصدرِ للاجتهادات السائغة، وتقديم المصالح العامة على الخاصة، والكبرى على الصغرى، وسعة الأفق في احتواء النزاعات.

إنَّ من الآفات المزمنة التي لا تكاد تخطئها العين: شيوع روح المكابرة والاستعلاء والتعنّت والاعتداد بالرأي، والتهوين من قدر الآخرين علماً أو عملاً؛ وهذه أسباب تعوق التطاوع وتقطع سبيل الملاينة، وتؤكد حاجتنا الماسة لإعادة بناء منظومتنا التربوية والأخلاقية.

ومن أعظم موانع التطاوع أيضاً: شح النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقد عرَّفه الشيخ السعدي بقوله: (هو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له)، ثم ذكر أن السماحة ضد الشح، وهي: (بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك)، وبيَّن بعد ذلك أنه: (متى وُفّق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه. فإن كان خصمه مثله، اشتد الأمر)[٣].

ولعل هذا من أعظم أسباب إخفاق مشاريع التنسيق والتعاون بين الدعاة والتجمعات الإسلامية؛ فالعلاقة المتينة المستمرة لا تستقيم إلا بالسماحة والتطاوع. وأرجو أنَّ في كل تيار دعوي فئاماً من ذوي الحلم والسماحة ولين الجانب، ممَّن يألف ويؤلف؛ وهؤلاء هم الجسر الحقيقي للتطاوع، يبنون بأخلاقهم العالية بساط التوافق والتواصل البناء، وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: (المؤمنون هينون لينون، مثل الجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن سيق انساق، وإن أنخته على صخرة استناخ)[٤].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير رقم (٣٠٣٨)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير رقم (١٧٣٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (٢/ ١٨٣ – ١٨٤).

(٤) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير رقم (٢١٤)، وحسنه لغيره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩٣٦).

المعلم الخامس:

العـــدلُ في الأقوالِ والأعمالِ والأحـــكام، مع كلِّ أحدٍ وفي كلِّ حال؛ فالمخالفـــة الحزبيةُ لا تجيزُ البغيَ أو الجورَ، قال الله – تعالى –: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـوَى﴾ [المائدة: ٨]، وقـــال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُـوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وكثيراً ما ينظرُ بعضُ الدعاةِ بمنظارَين: منظارٌ يضخِّمُ فيه نفسَه وجماعَته ومَنْ يحب، ومنظارٌ يُقزِّمُ فيه الآخرين ويبخسُهم حقوقَهـــم، والموضوعيةُ في قراءةِ الواقـــعِ الدعوي أمرٌ عزيزٌ لا يسمو إليه إلا أهلُ الصدقِ والورعِ!

وقد أشار ابن تيمية إلى ملحظ مهم قلَّ من يتنبه له؛ فقال: «الحكم بـــين الناس في عقائدهم وأقوالهم، أعظم من الحكم بينهم في مبايعهم وأموالهم»[١].. فهل يدرك هذا من يتهوك في أعراض العلماء والدعاة؟!

المعلم السادس:

حفـــظُ مقادير العلماء والدعاة واجبٌ شـــرعيٌّ، ولا يجوز أن تســـقط مكانتُهـــم أو تهدر محامدُهـــم لزلةٍ عابرةٍ أو فلتةٍ عارضـــة، فالعبرةُ بكثرة المحاســـن، والمنصفُ كما قال الإمام ابن رجب: «من اغتفر قليلَ خطأ المرء في كثير صوابه»[٢]. ولو أننا أسقطنا العالم أو الداعية بسبب خطأ وقع فيه، هل ســـيبقى لنا أحدٌ من علمائنا أو دعاتنا في القديم أو الحديث؟! وتأمل حكمـــة الإمام ابن القيم إذ يقول: «لو كان كل من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأُهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها»[٣].

وثبت في الحديث الصحيح: (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر)[٤]، وقد أشـــار السعدي وغيره إلى أن هذه قاعدة عامة في جميع العلاقات الاجتماعية[٥].

وتتبُّعُ العثرات وإشـــاعةُ الزلات وكتمانُ الصالحات؛ آفةٌ خطيرةٌ تدل على ضعف الديانة وقلة المروءة، وقد اســـتعاذ النبي ﷺ من (خليل ماكر عينه تراني وقلبه يرعاني، إذا رأى حسنة دفنها، وإذا رأى سيئة أذاعها)[٦].

ولهـــذا؛ توجَّعَ الأئمـــة قديماً وحديثاً من صنيع هـــؤلاء، فها هو ذا الإمام الشعبي يقول: (لو أصبت تسعاً وتسعين، وأخطأت واحدة، لأخذوا الواحدة وتركوا التسع والتسعين)[٧]. وعندما تتبّع الحميدي بعض أخطاء الشـــافعي عتب عليه أحمد بن حنبل قائلاً: «تمرُّ مائة مســـألة يخطئ خمساً أو عشراً، اترك ما أخطأ وخذ ما أصاب»[٨].

إنَّ تربيةَ الشـــباب علـــى التخوّض في أعراض الدعاةِ وتتبُّع زلاتهم، من الآفات التي أثقلت المسيرةَ الدعوية وأوجـــدت بيئة خصبـــة للتعانف اللفظي والتفرق والتنازع لأي ســـبب عـــارض! ولهذا أقول للشـــباب: إذا رأيت الداعيةَ ناصحاً لإخوانه، ينأى بنفسه عن الجدلِ ويتورع عن القيل والقال ويحبس لســـانه عن فضول المنازعات وتتبع العثرات؛ فاعلم أنه صاحبُ دين وعقل ومروءة، فالزم صحبته.

المعلم السابع:

التواصلُ الدَّعويُّ الممكـــن بين الدعاة ليس مســـاراً واحداً، بل مســـاراتٌ متعددةٌ تُبْنَى على بعضها، فأعلى درجاتها الوحدة، وأدناهـــا الســـلامةُ وكـــفُّ الأذى، وبينها مســـاراتٌ كثيـــرةٌ ممكنةٌ قابلـــةٌ للتطبيق، كالتنســـيقِ والتكامـــلِ والتعـــاون، وبعدها مســـارات كثيرة تثير عوامل النزاع والفرقة وتشتيت قوة الأمة.

ومن العســـير جداً أن يتـــم التعاون أو التنسيق في أجواء من التشنج والتوتر، كما أنه من العســـير أيضاً أن يتحقق التواصل والتكامـــل علـــى قاعدة هشـــة من علائق الأخوّة التي تســـتبطن الشح والأثرة وسوء الظن!

إنَّ القـــدرةَ علـــى إدارةِ العلاقـــةِ بين الإسلاميين برؤيةٍ ناضجةٍ تخفِّفُ من حِدَّة الاحتقانِ وتســـعى لدرءِ النزاعات؛ هي أقلُّ الواجبِ المنوطِ بأعناق الروّاد، والأمةُ التي لا تعرفُ كيـــف تُديرُ خلافاتها كيفَ لها أن تعرفَ طريقَ نهضتها؟!

وأحســـب أن تعزيز الائتـــلافِ وتغليب مصالـــحِ الأمـــة لـــن يتحقـــقَ إلا بمبادرةِ القـــدواتِ العاملَة الناصحـــة، وإذا تقاصر الرواد تطاول الأقزام!

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٧/ ٤٦٤).
(٢) القواعد: (٣).
(٣) مدارك السالكين: (٢/ ٣٩).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع رقم (١٤٦٩).
(٥) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار (ص ١٠١-١٠٢).
(٦) أخرجه الطبراني في الدعاء، وقال الألباني: إسناده جيد، السلسلة الصحيحة رقم (٣١٣٧).
(٧) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٠-٣٢١)؛ وسير أعلام النبلاء: (٤/ ٣٠٨).
(٨) آداب الشافعي ومناقبه للرازي: (ص ٤٤).

الإرشاد إلى سعة الصدر في مسائل الاجتهاد

أبو الحارث محمد المطري

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. أمر الله المؤمنين في هذه الآية بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر، وهم العلماء والأمراء[١]، فإن حصل تنازع واختلاف في أي مسألة فليردوا حكمها إلى الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فيستنبط من وفّقهم الله من أهل العلم حكمَ الله في المسألة المتنازع فيها كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ولم يقل لعلموه كلهم، بل بعض العلماء يعلمه وبعضهم لا يعلمه، ولذا يحصل الخلاف في الفهم بين العلماء كثيراً، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «فهذان نبيان كريمان حكما في حكومة واحدة فخص الله أحدهما بفهمها مع ثنائه على كل منهما بأنه آتاه الله حكماً وعلماً، فكذلك العلماء المجتهدون - رضي الله عنهم - للمصيب منهم أجران، وللآخر أجر، وكل منهم مطيع لله بحسب استطاعته، لا يكلفه الله ما عجز عن علمه» اهـ[٢].

والمسائل الاجتهادية هي التي ليس فيها نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع، أو فيها نصوص متعارضة في الظاهر، أو سنة مختلف في ثبوتها[٣]، فيختلف أهل العلم في المسائل الاجتهادية لاختلاف أفهامهم، فمنهم من يصيب فله أجران، ومنهم من يخطئ فله أجر واحد، وخطؤه مغفور له؛ لأن إدراك الصواب في جميع المسائل الاجتهادية إما متعذر أو متعسر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٣/ ٤١).

(٣) انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ١٦٠)، وأعلام الموقعين لابن القيم (٣/ ٢٥٢).

[الحج: ٧٨]، وقال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وعن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد وأخطأ فله أجر)[١]، وهذا من رحمة الله وتيسيره لهذه الأمة، قال سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وفي الدعاء العظيم الذي علمه الله عباده في آخر سورة البقرة ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله: قد فعلت كما في صحيح مسلم من حديث ابن عباس[٢].

فإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز التشنيع على العالم إذا أخطأ في مسألة اجتهادية لم يوفّق للصواب في اجتهاده فيها، ولا يلزم من خطئه فيها أن يكون آثماً، بل له أجر على اجتهاده كما سبق بيانه، وكذلك لا يشنع على من أخذ بقوله من العامة، فإن الواجب عليهم سؤال أهل العلم كما قال الله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فإن سألوا من يثقون بعلمه فقد قاموا بما أوجب الله عليهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، قال شيخ الإسلام: «الحاكم ليس له أن ينقض حكم غيره في مثل هذه المسائل ولا للعالم والمفتي أن يلزم الناس باتباعه في مثل هذه المسائل... وكذلك قال غير واحد من الأئمة: ليس للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه، ولهذا قال العلماء: إن مثل هذه المسائل الاجتهادية لا تنكر باليد وليس لأحد أن يلزم الناس باتباعه فيها، ولكن يتكلم فيها بالحجج العلمية، فمن تبين له صحة أحد القولين تبعه، ومن قلد أهل القول الآخر فلا إنكار عليه» اهـ[٣].

وينبغي التنبيه إلى أن المسائل الاجتهادية هي التي يسوغ فيها الخلاف لاختلاف الأفهام، وأما المسائل الواضحة التي فيها نص أو إجماع فلا يجوز الاجتهاد فيها، والخلاف فيها شر لا يسوغ ولا يجوز.

وليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وقولهم مسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل، أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعاً قديماً وجب إنكاره وفاقاً، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول: المصيب واحد، وهم عامة السلف والفقهاء، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضاً بحسب درجات الإنكار... وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس، والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه؛ فيسوغ إذا عدم ذلك فيها الاجتهاد لتعارض الأدلة المتقاربة أو خفاء الأدلة فيها، وليس في ذكر كون المسألة قطيعة طعن على من خالفها من المجتهدين كسائر المسائل التي اختلف فيها السلف وقد تيقنا صحة أحد القولين فيها» اهـ مختصراً[٤].

وبهذا يتبين أن من رجَّح قولاً من الأقوال في المسائل الاجتهادية، لا يجوز لأحد أن يطعن فيه، ولا أن يطعن فيمن أخذ بقوله من العامة، ولا يكرههم على قولهم، بل هذا من فعل أهل الغلو والبدعة الذين يفرِّقون الأمة فيوالون ويعادون على المسائل الاجتهادية، فيؤذون المؤمنين ويمتحنونهم ويقعون في أعراضهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً!! قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال النبي ﷺ: (إن من شرار عباد الله من هذه الأمة المشَّاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت)[٥]، أي يطلبون العيوب القبيحة للأبرياء، وقال النبي ﷺ: (يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟ ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أولئك هم وقود النار)[٦]، وقال رسول الله ﷺ: (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان غشوم ظالم، وغالٍ في الدين يشهد عليهم ويتبرأ منهم)[٧].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ويوالي عليه ويعادي غير كلام

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦).
(٢) صحيح مسلم (١٢٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/٧٩).
(٤) الفتاوى الكبرى (٣/١٦٠).
(٥) أخرجه أحمد (٢/٤٠٠) من حديث عبد الرحمن بن علم وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤٩).
(٦) صحيح الترغيب والترهيب للألباني (١/١٦٦).
(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/٢٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٦٢٨).

الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرِّقون به بين الأمة يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون» اهـ[1].

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «قاعدة في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الأمة في الرواية والرأي، مثل: الأذان، والجهر بالبسملة، والقنوت في الفجر، والتسليم في الصلاة، ورفع الأيدي فيها، ووضع الأكف فوق الأكف، ونحو ذلك، فإن التنازع في هذه العبادات الظاهرة أوجب أنواعاً من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون:

أحدها: جهل كثير من الناس أو أكثرهم بالأمر المشروع.

الثاني: ظلم كثير من الأمة أو أكثرهم بعضهم لبعض وبغيهم عليهم.

الثالث: اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

الرابع: التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه، ويحب بعضاً ويواليه على غير ذات الله، وحتى يفضي الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز، وببعضهم إلى الاقتتال بالأيدي والسلاح، وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض؛ وهذا كله من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله، والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله، قال الله - تعالى -: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يُتفرق؛ هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ كقوله ﷺ: (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)[2]. ثم قال: عامة هذه التنازعات إنما في أمور مستحبات ومكروهات لا في واجبات ومحرمات» اهـ مختصراً[3].

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً: «مسألة البسملة الخطب فيها يسير، وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنها إذا الداعي لذلك هو ترجيح الشعائر المفرقة بين الأمة، وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جداً لولا ما يدعو إليه الشيطان من إظهار شعار الفرقة... ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً وقال: الخلاف شر» اهـ[4].

وينبغي أن يُعلم أن أكثر المسائل الاجتهادية لا يقطع المجتهد بالصواب فيها، بل يرجح قولاً على قول بحسب ما يغلب على ظنه أنه الصواب، فإنه إذا تعذر الوصول إلى اليقين تكفي غلبة الظن، وهذا من يسر الشريعة وسماحتها، كما قال النبي ﷺ: (إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار)[5].

وما أحسن ما قاله الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى -: قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول المخالف خطأ يحتمل الصواب. فالعالم الواسع الاطلاع يتسع صدره للمخالفين له؛ لمعرفته بأقوال العلماء، وأدلتهم، ولتمييزه بين الأدلة القطعية والظنية والدلالات القطعية والظنية، ومعرفته بخلاف العلماء في بعض القواعد الأصولية والفقهية والحديثية، ومعرفته بخلاف أئمة الحديث في الجرح والتعديل وتصحيح بعض الأحاديث وتضعيفها، فالحديث المختلف في تصحيحه أو تضعيفه قد يرجح المجتهد صحته وهو ضعيف في نفس الأمر، وقد يرجح ضعفه وهو صحيح في نفس الأمر، وهذا أمر معلوم عند أهل العلم[6]. قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «تعليل الأئمة للأحاديث مبني على غلبة الظن» اهـ[7].

فالعلماء المنصفون يعرفون متى يجزمون بما ترجح لديهم ومتى لا يجزمون، ويفرقون بين مقام الجزم ومقام الاحتمال، ويعيبون على من يجزم في مقام الاحتمال[8].

ومن اصطلاح بعض العلماء أنهم يقولون: هذا القول أصح إذا كان القول الآخر صحيحاً غير ضعيف، وله قوة وحظ من النظر، ويقولون: هذا القول هو الصحيح إذا كان القول الآخر

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٤).
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وهو في صحيح الجامع الصغير (٢٥٩٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٦ - ٣٦٨).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٠٥ - ٤٠٨).
(٥) أخرجه البخاري (٢٥٣٤) ومسلم (١٧١٣).
(٦) راجع رسالة رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية، والكفاية في عِلم الرواية للخطيب ص ٥٢ وما بعدها، وشرح الألفية للعراقي ص ٩.
(٧) فتح الباري (١/ ٥٨٥).
(٨) انظر على سبيل المثال: فتح الباري (٢/ ٨٧)، (٢/ ١٢٢).

ضعيفاً[1].

والعالم المنصف يفقه أحكام المصالح والمفاسد، فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا معاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً، فهي تحصل المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما[2]. وقد يقع الاشتباه والتردد في باب المصالح والمفاسد، والعالم المنصف لا يستهين بغيره من العلماء وأهل الخبرة، بل يحرص على معرفة أقوالهم، ويطلب مشاورتهم، فإن خالفوه في تقدير المصالح والمفاسد عذرهم، قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: «وهذا الباب واسع جداً لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون ينظرون للأمرين وقد لا يتبين لهم – أو لأكثرهم – مقدار المنفعة والمضرّة أو يتبين لهم ولا يجدون من يعينهم على العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء، فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل»[3].

وأختم مقالتي هذه ببعض النقولات النفيسة التي تبين ما كان عليه أهل العلم الراسخون من سعة الصدر في مسائل الاجتهاد، فإنه مَنْ كثر علمه اتسع صدره وصان لسانه، ومَنْ قلَّ علمه ضاق صدره وأطلق لسانه، قال بعض العلماء: العلم ثلاثة أشبار: فمن دخل في الشبر الأول تكبر، ومن دخل في الشبر الثاني تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث علم أنه لا يعلم.

العلم بحر منتهاه يبعد
ليس له حدٌّ إليه يُقصد
وليس كل العلم قد حويته
أجل ولا العشر ولو أحصيته
وما بقي عليك منه أكثر
مما علمت والجواد يعثر

(١) انظر مقدمة منهاج الطالبين للنووي.
(٢) انظر فتاوى ابن تيمية (٢٠/٤٨) (٢٣/٣٤٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٢٥٧).

وقال بعض السلف: من لم يسمع الاختلاف فلا تعدوه عالماً[4].

عن الأعمش قال: «أدركت أشياخنا زراً وأبا وائل فمنهم من عثمان أحب إليه من علي، ومنهم من علي أحب إليه من عثمان، وكانوا أشد شيءٍ تحاباً وتواداً»[5].

وقال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: «يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة!»، قال الذهبي معلقاً على هذه القصة: «هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه فما زال النظراء يختلفون»[6].

وعن يحيى بن سعيد قال: «ما برح المستفتون يستفتون فيحل هذا ويحرّم هذا، فلا يرى المحرّم أن المحلل هلك لتحليله، ولا يرى المحلل أن المحرّم هلك لتحريمه»[7].

وقال سفيان الثوري: «إذا رأيت الرجل يعمل بعمل قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه»[8].

وأخيراً: أنقل بعض كلام أهل العلم فيمن أخطأ في المسائل التي لا يسوغ فيها الاجتهاد، ولا يجوز فيها الخلاف، ليتبين إنصافهم وعدلهم حتى مع من وقع في بدعة أو كان من المبتدعة، وليعلم أنهم أرحم الناس بالناس ولكن أكثرهم لا يعلمون.

قال الشاطبي: «الابتداع من المجتهد لا يقع إلا فلتة، وبالعرض لا بالذات، وإنما تسمى غلطة أو زلة، لأن صاحبها لم يقصد اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل الكتاب، أي لم يتبع هواه ولا جعله عمدة، والدليل عليه أنه إذا ظهر له الحق أذعن له وأقرَّ به»[9].

وقال الذهبي: «ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده – مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق – أهدرناه وبدعناه، لقلّ من يَسْلم من الأئمة معنا»[10].

وقال المقبلي: «ومن المعلوم أنه ليس من الفرقة الناجية أن لا يقع منها أدنى اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة، إنما الكلام في مخالفة تصير صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها»[11].

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/١٠٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/١٦٩).
(٦) سير أعلام النبلاء (١٠/١٦).
(٧) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٦١).
(٨) فتح البر بترتيب التمهيد لابن عبد البر (٤/٥٤٨).
(٩) الاعتصام ص ١١٤ بتصرف.
(١٠) سير أعلام النبلاء (١٤/٣٧٦).
(١١) العلم الشامخ ص ٤١٤.

وقال شـــيخ الإســـلام ابن تيميـــة: «إن المتأول الذي قصد متابعة الرســـول ﷺ لا يكفّر ولا يفسّق إذا اجتهـــد فأخطأ، وهذا مشـــهور عند الناس في المســـائل العملية، وأما مســـائل العقائد فكثير من النـــاس كفّر المخطئين فيها، وهـــذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحســـان، ولا عن أحد من أئمة المســـلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفّرون من خالفهم»[1].

وقال شـــيخ الإســـلام في معـــرض رده على الأشـــاعرة: «ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له مســـاع مشكورة وحســـنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحـــاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلـــم فيهم بعلم وصدق وعـــدل وإنصاف.. وخير الأمـــور أوســـطها.. والله يتقبل مـــن جميع عباده المؤمنين الحســـنات، ويتجاوز لهم عن الســـيئات: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـــبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]»[2].

وقال أيضاً: «إذ قـــال المؤمن: ﴿وَالَّذِيـــنَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـــبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِـــيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] يقصد كل من ســـبقه من قرون الأمة بالإيمان، وإن كان قد أخطأ في تأويل مخالف للسنة، أو أذنب ذنباً، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العمـــوم، وإن كان من الثنتين والســـبعين فرقة، فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليســـوا كفاراً بل مؤمنـــين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحق عصاة المؤمنين»[3].

وقال ابن القيم الجوزية: «أهل البدع الموافقون لأهل الإســـلام ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضـــة والقدريـــة والجهمية وغـــلاة المرجئة ونحوهم، أقسام:

أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يُكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى، وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً.

القســـم الثاني: المتمكن من الســـؤال وطلـــب الهداية ومعرفة الحق ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورياسته، ولذته ومعاشه وغير ذلك، فهذا مفرِّط مســـتحق للوعيد، وآثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات، فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من الســـنة والهدى ردت شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قبلت شهادته.

القســـم الثالث: أن يســـأل ويطلب، ويتبين له الهدى، ويتركه تقليداً وتعصباً أو بغضاً أو معاداة لأصحابه، فهذا أقل درجاته أن يكون فاســـقاً، وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل، فإن كان معلناً داعية ردت شهادته وفتاويه وأحكامه مع القدرة على ذلك، ولم تقبل له شـــهادة ولا فتوى ولا حكم إلا عند الضرورة»[4].

اللهم ألِّف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، وحبِّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وانصرنا على عدوك وعدونا.

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٣٩).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٠٢ – ١٠٣) باختصار.
(٣) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٤٠).
(٤) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ١٣٨ – ١٣٩ باختصار.

حوار مع قائد جبهة (لواء الإسلام) السورية

■ أجرى الحوار: هيثم الكناني

لواء الإســـلام اسم لمع مبكراً في ساحات الجهاد في أرض الشـــام المباركة، وانطلاقتـــه الأولى كانت من مدينة دوما في غوطة دمشـــق، حيث فســـطاط المسلمين يوم تقوم الملاحم في آخر الزمان، وهو اليوم يعد واحداً من أهـــم الفصائل الجهادية العاملة على أغلب التراب السوري، لا سيما في دمشق وريفها.

مجلة البيان كان لها لقاء مع قائد لواء الإسلام[1] تناول فيه نشـــأة اللـــواء، والدور المهـــم الذي يلعبه، وتطرق لبعض النواحي السياسية والإغاثية وغيرها، وفيما يلي نص الحوار:

(١) الشيخ محمد زهران بن عبد الله علوش «أبو عبد الله»، من مواليد دوما في ريف دمشق، ووالده هو الشيخ عبد الله علوش من مشايخ دوما العاملين والمعروفين بالتمسك بمنهج أهل السنة والجماعة والدعوة إليه. قرأ الشيخ زهران القرآن الكريم على والده وعلى بعض كبار شيوخ بلده، والتحق بكلية الشريعة في جامعة دمشق، ثم أكمل الدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية، ثم درس الماجستير في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وكان قبل الثورة يعمل في مجال المقاولات، حيث أسس شركة للخدمات المساندة للإعمار.

البيان: في بداية هذا الحوار نحب أن تطلعونا على بدايات التفكير في إنشاء لواء الإسلام؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فعندما قامت الثورة في آذار/ مارس ٢٠١١ كنت مسجوناً من قبل النظام، حيث إن النشاطات الدعوية التي كنت أمارسها في سورية سبّبت لي ملاحقات أمنية عديدة، بدأت عام ١٩٨٧ وانتهت بتوقيفي بداية سنة ٢٠٠٩ في أفرع المخابرات، إلى أن ختمت بالسجن في سجن صيدنايا العسكري الأول.

وقد مثلت الثورة حدثاً فارقاً، وشكلت المظاهرات في بدايتها ضغطاً على الحكومة جعلها تطلق سراح عددٍ من المعتقلين، فخرجت من السجن في ٢٠١١/٦/٢٢، أي بعد بداية الثورة بثلاثة أشهر، وحال خروجي من السجن عملت على تأسيس قوة عسكرية لمحاربة النظام كان اسمها في بدايتها سرية الإسلام، ثم تطورت إلى أن صارت لواء الإسلام في الوقت الحالي.

البيان: لكن ما الذي دفعكم لتأسيس السرية الأولى للواء الإسلام؟

بدأ التفكير في إنشاء قوة عسكرية لمحاربة النظام انطلاقاً من أمرين اثنين:

أولهما: الحكم الشرعي في كيفية التعامل مع النظام في ظل الظروف الناشئة في بداية الثورة، حيث انتهت دراستنا - بعد استشارة عدد من طلبة العلم - إلى تعيُّن الجهاد بالسلاح لهذا النظام، باعتباره من جهاد الدفع، وهو أحد نوعي الجهاد المشروع.

ثانيهما: التاريخ الأسود للطائفة النصيرية التي ينتمي إليها النظام، والتي ثبت أنها لم ترتدع عبر التاريخ إلا بالقتال.

البيان: وهل لكم أن تحدثونا بشيء من التفصيل عن لواء الإسلام؛ دوره، أماكن عمله، والهدف من إنشائه؟

لواء الإسلام - بفضل الله عز وجل - يعدّ القوة الأولى في دمشق وريفها، وله سلسلة عمليات ضخمة ضد هذا النظام، ويضم ألوفاً من المجاهدين، وهو مكون من مجلس قيادة، و٢٣ مكتباً إدارياً، و٦٤ كتيبة عسكرية، وينتشر في مناطق كثيرة من سورية.

وقد كانت غايتنا منذ البداية تحرير سورية من العصابة الحاكمة، وإقامة الدولة التي تجعل القرآن والسنة دستورها، وتحكم الناس بالعدل، وليس لنا أي مرجعية إلا علماء الإسلام الربانيين على اختلاف بلدانهم وأقطارهم. ونحن اليوم نسعى بكل ما أوتينا من قوة لتحقيق هذا الهدف وحماية الجهاد من الانحراف وحفظ ثمرته من السرقة.

البيان: مما لا شك فيه أن الخطوة الأولى دوماً تعترضها العقبات، لا سيما في أمر عظيم كالجهاد، وبخاصة في بلد مثل سورية حُكِم لعقود بنظام علماني طائفي قمعي، فما الصعوبات التي واجهتكم في البداية؟

لقد واجهتنا في البداية صعوبات شتى، وأهمها في نظري: عدم إقبال أهل العلم عندنا على الجهاد، بل صدهم الناس عنه بدافع الخوف والجبن أو السطحية في التفكير والجهل بالتاريخ، وغيرها من الأسباب، كما أننا في البداية عانينا كثيراً وفاتتنا فرص كبيرة لعدم قناعة الوجهاء من أصحاب الأموال بالحل العسكري، أضف إلى ذلك الصعوبات الأمنية الكثيرة والخطيرة التي حفّت الجهاد في بدايته، بسبب سيطرة النظام على البلاد.. إلى غير ذلك من الصعوبات.

البيان: وكيف تنظرون إلى سير الأعمال العسكرية في مختلف المحافظات اليوم؟

العمل العسكري يتطور - بفضل الله - تطوراً جيداً، لكن طول المدة وتدخّل الأجندات والركون إلى الدنيا من البعض؛ كل ذلك يعيق نجاح العمل، لكن مع كل هذا فالمبشرات كثيرة والحمد لله؛ كضعف الجيش وكثرة الانشقاقات فيه، واتساع المناطق المحررة، وازدياد قوة المجاهدين.

البيان: كانت هناك دعوات كثيرة لتوحّد الكتائب والألوية في كيان واحد، لكن هذا لم يتحقق حتى الآن، فما العوائق أمام هذا التوحد؟

هذه الدعوات أثمرت جزئياً عبر توحّد مجموعة من

الألوية والكتائب في جبهات موحدة، فنحن مثلاً في لواء الإسلام جزء من جبهة تحرير سورية الإسلامية، وكانت فكرة إنشائها تقوم على تجميع القوى العسكرية الإسلامية وتوحيد جهودها، والانطلاق بها نحو الأفضل، وينضوي تحت الجبهة عدد من الألوية والكتائب، على رأسها: صقور الشام، والفاروق، ولواء التوحيد، وغيرها.

وأما عدم توحّد كل الألوية في كيان واحد، فقد يكون من أهم الأسباب تدخّل الممولين للألوية في سياساتها، فهذا مع عدم قدرة بعض قادة الألوية على التطاوع مع الآخرين؛ يدفعان للانزواء والانفراد في موضوع التعاون والتطاوع، لكن هناك سبل يجري العمل عليها لتحقيق شيء من المأمول، ولعل الله تبارك وتعالى ييسر الأمر.

البيان: دار كلام في المدة السابقة عن تشكيل نواة لما يشبه الصحوات في العراق، فهل لديكم معلومات حول مثل هذا الأمر؟ وما مدى قابليته للتنفيذ؟ وهل لديكم خطط للتعامل مع مثل هذا الوضع؟

نحن لدينا إحساس بأن بعض الجهات الخارجية والداخلية تحاول تشكيل صحوات سورية؛ ذلك أننا لا نجد أي مبرر لبعض الجهات الخارجية والداخلية في دعم عصابات من المجرمين والحثالات والإعراض عن دعم المجاهدين الصادقين، إلا أن هذه الجهات تمهد لصحوات في سورية، ونقول بكل أسف إن مشروع الصحوات مع صعوبة تنفيذه في سورية على غرار ما حدث في العراق، إلا أنه لا يستحيل تنفيذه إن ساء الوضع أكثر من ذلك، وأنا لا أجد حلاً لهذه المعضلة أنجح من توحّد الكتائب الإسلامية الذي سيدفع كثيراً من الباطل ويعلي كثيراً من الحق.

البيان: الثورة السورية طالت بشكل لم يسبق له مثيل في باقي البلاد التي قامت فيها الثورات، وهذا قد يصيب بعض الناس باليأس، فما قولكم؟

جوابي على هذا هو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقوله عز وجل: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وأنا أدعو جميع إخواني في سورية وخارجها إلى التحلي بالصبر والتعلّق بالله جل وعلا وعدم اليأس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وأقول لهم كما قال كليم الله موسى عليه السلام لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

البيان: بارك الله فيكم، ولكن على الجانب الآخر هناك من يرى في طول هذه المحنة منحاً وعطايا، فما رأيكم؟

هذا صحيح، والمنح والعطايا في هذه الثورة كثيرة: منها إقبال الصادقين على تجريد النية لله عز وجل، وتمييز المجاهدين الصادقين من الوصوليين الذين يلبسون لبوس الجهاد وهو منهم براء، ومنها انقطاع الحجة عن أصحاب الحلول التي تتوسط بين الحق والباطل، ومنها ظهور كلام المؤمنين الصادقين وتمييزهم عن المنافقين، وأيضاً ازدياد الجرأة العسكرية لدى المجاهدين بشكل كبير جداً، ولعل ذلك تهيئة من الله لأمر عظيم قادم.

البيان: هذا يجرنا للكلام عن الحالة الإيمانية لدى المجاهدين ولدى عامة الناس، فكيف تقوّمونها اليوم؟

الحالة الإيمانية ما زالت بفضل الله جل وعلا مرتفعة في قلوب عباد الله، رغم ما لحق بهم من ضيق في أرزاقهم وأعمالهم، ورغم القتل والتدمير والتشريد والمعاناة العظيمة وما نراه من آثار ذلك عليهم؛ فرغم كل الألم والمعاناة إلا أن

الناس ما زالوا يدفعون أولادهم للالتحاق بركب المجاهدين الصادقين، وما زال المجاهدون يتواثبون إلى النزال، ويتسابقون إلى الجنان، وهذا فضل من الله تبارك وتعالى.

البيان: كنا نسمع قديماً عن عدم وجود قبول شعبي للمنهج السلفي في سورية، فهل صحيح أن كثيراً من الناس مع بداية الثورة صاروا يتقبّلون هذا المنهج؟

نعم هذا صحيح، وبفضل الله فقد وُضِع القَبول للمنهج السلفي في بلادنا مع بداية الثورة لأسباب عدة، أهمها: أن أوضح صورة للاضطهاد الديني كانت متجلية في اضطهاد النظام لدعاة المنهج السلفي في كل سورية، والسبب الآخر أن الثورة أثبتت مصداقية الأطروحات السلفية في اعتماد مبدأ العقيدة ميزاناً للولاء والبراء، وتمييز الأصدقاء عن الأعداء، وهذا المبدأ كثيراً ما كان يحاربه أعداء السلفية الذين سقطوا في بداية الأحداث، وفقدوا مصداقيتهم، وكُشفت الأقنعة عن وجوههم القبيحة المعادية للأمة؛ فسقوط رموز أعداء السلفية كالدكتور البوطي[1] والحسون وكثير من الخونة الآخرين؛ أثبت مصداقية المنهج الذي عبّر عنه السلفيون ودعوا الناس إليه وقاسوا الويلات من أجله في السجون.

البيان: لكن كيف السبيل للمحافظة على هذا المكسب الكبير؟

يمكن ذلك بزيادة عدد الدعاة إلى الله على هذا المنهج في بلادنا، مع دعمهم دعماً كبيراً في المجالات الدعوية والإغاثية وغيرها.

البيان: طالما تطرقتم للدعوة، فهل هناك جهود دعوية تقومون بها في المناطق المحررة؟

نعم ولله الحمد، فنحن نقوم بجهود دعوية متنوعة تتجلى في إنشاء كثير من المعاهد الدعوية، إضافة لتمكين الخطباء وطلبة العلم من حَمَلة المنهج السلفي، ودعمهم وتوجيههم ونشر الكتب والمجلات وغير ذلك.

البيان: وكيف ترون مستقبل العمل الدعوي على منهج أهل السنة والجماعة؟

لا شك أن مستقبل العمل الدعوي على منهج أهل السنة والجماعة سيكون أفضل بكثير من ذي قبل - إن شاء الله تعالى -؛ لأننا لم نرَ حرباً على هذا المنهج كالحرب التي كان يشنها النظام ضده، إلا ما قرأناه في الكتب عن حرب العبيديين أو من يسمون الفاطميين لهذا المنهج أيام حكمهم لمصر، ومع ذلك بقي هذا المنهج في بلادنا صامداً، لكن هذا المستقبل المشرق الذي نرجوه يتوقف بعد توفيق الله تعالى على توافر الكوادر الدعوية واجتهادها وانطلاقها وتفانيها كما كنا نرى منها أيام النظام.

إن الناس في بلادنا طيبون محبون للحق، ينقادون عند توافر الداعية الصادق الذي يكون بهم رحيماً، ويكون لهم موجهاً رفيقاً وأخاً عطوفاً وناصحاً أميناً، فنسأل الله تبارك وتعالى أن يعلي كلمته ويرفع راية دينه.

البيان: هناك سؤال يدور في أذهان كثير من الناس خارج سورية عن الكيفية التي يتم بها التعامل مع احتياجات الناس الغذائية والصحية وغيرها؟

هناك صعوبة كبيرة في توفير احتياجات الناس من كل النواحي المعيشية؛ كالغذائية والصحية وغيرها؛ لذا فقد اضطررنا لتكليف جزء كبير من قواتنا بالقيام بهذه المهام؛ من توفير الدقيق ونقله، وتوفير المحروقات وتوزيعها على الناس، وتشغيل الأفران، وحماية خطوط الإمداد، وتوفير الحماية لبعض مصادر التغذية، وإنشاء مؤسسات إغاثية كما هو الحال في مؤسسة (نور الإسلام) التي أنشأها لواء الإسلام.

أما كيف يتدبر الناس أمورهم فأقول إن الناس في ضعف شديد وبلاء، ولا معين لهم إلا الله، ونحن نحاول أن نوفر فرص عمل لألوف العاطلين فيما يفيدهم وأمتهم، ويكون عوناً ورديفاً للجهاد، وهذا حاصل في أكثر من ثلاثين مؤسسة ومكتباً أسسها لواء الإسلام في سورية - ولله الحمد.

البيان: إذا انتقلنا للجانب السياسي، فكيف تنظرون إلى الخطوة الأخيرة المتعلقة بتشكيل الحكومة المؤقتة؟

نحن نقول بكل وضوح وصرامة، إنه ومنذ سقوط الدولة العثمانية جرت العادة على أن يقطف الثمرة من لم يزرع بذرتها، ونحن موقفنا من كل المشاريع السياسية أننا نحرص

(١) تم إجراء هذا الحوار قبل مقتل البوطي.

على أن يقطف الثمرة أهلها الذين سقوها بدمائهم؛ فنحن لن نُخدع هذه المرة إن شـاء الله. نحـن نقبل بأي حكومة تنطلق من الشريعة الإسلامية مصدراً وحيداً للتشريع، وتحافظ على حقوق الأكثرية المسلوبة خلال العقود السابقة، وتتحرر من التبعية للخارج، أما غير ذلك فلن نسمح بتمرير حكومة تقتات على ثمار الثورة التي سقاها شهداؤنا بدمائهم.

البيان: لكن ما السبيل لذلك، لا سيما أن كثيراً من أنصار الثورة يأخذون على الكتائب الرئيسة عدم وجود كيانات سياسية تمثلها وتتحدث باسمها، فما السبب؟

إن الطريق التي سلكها كثير من الكتائب الرئيسة تحتاج في كثير من الأحيان إلى نوع جيد من الساسة ليمثلوها، هذا النوع الذي يجمع بين الفقه في الدين، الذي هو المصدر والمنبع للسياسة الشرعية، وبين المعرفة بالواقع الداخلي، الذي هو المنطلق والسلاح للحرب السياسية، وبين إدراك سياسة الدول الأخرى التي تقوم على المصالح ولا تراعي المبادئ، وكيفية التعامل معها بسياسة شرعية تقوم على المبادئ وتراعي المصالح؛ هؤلاء الساسة الذين يدركون كل ما سبق هم عملة نادرة لا تتوافر في كثير من البقاع والأحيان، وغالباً ما تجدهم عند توافرهم قادة يسوسون الأمة في الداخل، وهناك جهود كبيرة الآن لانتقاء عدد من الساسة الشرعيين ليحكموا مجموعة سياسية لعدد من الكتائب تتحدث باسمها وتستثمر عملها في الملتقيات السياسية.

البيان: لكن المخاوف كبيرة من تكرار تجارب لا تخفى عليكم من بذل المجاهدين دماءهم وأرواحهم ثم مجيء من يقطف الثمرة بدلاً منهم، فكيف تنظرون للمستقبل بعد سقوط النظام؟

نوهنا سابقاً إلى أن مشاريع قطف الثمرة جارية الآن على قدم وساق وبأشكال متعددة، فنحن نعتبر أن تشكيل كتائب جديدة في مناطق محررة، وبعد ما يقرب من سنتين من الجهاد، هو مشروع لقطف ثمرة جهاد من استشهدوا في تحرير هذه المناطق، وكذلك ما يفرض علينا من قيادات سياسية من مشاريع جاهزة ومعدة سلفاً دون المشاركة في دراستها واختيارها هو مشروع لقطف ثمرة الجهاد، وأيضاً الضخ الإعلامي المسعور لمشاريع إغاثية وتعليمية بعينها هو مشروع لقطف الثمرة، وشراء ولاءات بعض الكتائب المعدمة مادياً وغير ذلك كثير؛ كل هذه مشاريع لقطف الثمرة.

وفي ضوء هذه المعطيات والصراع على قطف الثمرة، فنحن ننظر للمستقبل في ظل اجتهاد مفاده أن الأمر سيؤول إلى صراع إعلامي وسياسي وفكري شديد إن كانت الكتائب المجاهدة الباذلة واعية للصوص الثورات وقاطفي الثمار، وسيؤول الأمر إن شاء الله بعد هذا الصراع لأخذ أهل الحق حقوقهم، والله أعلم.

البيان: نحن في الختام نريد أن نوصل صوتكم إلى إخوانكم في مشارق الأرض ومغاربها فكيف يمكن للمسلمين مساعدتكم؟

إننا اليوم نخوض حرباً كبيرة، ونحن بحاجة إلى جهد كل مسلم صادق في مساعدتنا في كل المجالات، ونحن ننصح إخواننا بالإقلاع عن خوض تجارب خاضها من قبلنا وأثبتت فشلها، وأخص بالذكر إخواننا الداعمين الذين يغفلون في كثير من الأحيان عن اعتماد التاريخ ميزاناً لتزكية الكتائب والأشخاص الذين يدعمونهم، فالامتناع عن دعم أشخاص ذوي تاريخ مشرف في الدعوة والعمل، والإقبال على دعم أشخاص ذوي تاريخ معاكس أو تاريخ غامض؛ ليس عدلاً ولا يخدم مصلحة الأمة، ثم التعقيد من الداعمين الصادقين يدفعنا للوقوع في مآزق كبيرة لا تحمد عقباها.

البيان: في ختام هذا الحوار الطيب لا يسعنا إلا أن نشكركم على ما أتحتموه من وقتكم الثمين لمجلة البيان وقرائها، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يمنّ عليكم بالنصر القريب وأن يقرّ أعين المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها بالفتح المبين، فجزاكم الله خيراً.

بارك الله فيكم، ونفع بكم، ووفقنا وإياكم وعامة المسلمين لما يحب ويرضى.

[المسلمون.. والعالم]

الحراك الشعبي قبل الحويجة
فلاح المعاضيدي

الصفويون والكرد.. انتهاكات الماضي ومخاوف المستقبل
فرست مرعي

بنجلاديش والانتقام من الهوية الإسلامية
مجدي داود

مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

الحراك الشعبي قبل الحويجة

■ فلاح المعاضيدي

كلماتي هذه تأتي رداً على سؤالٍ مفاده؛ هل الربيع العراقي آتٍ؟

فأقول إنه بلا شك أن من ينظر إلى الحراك الشعبي في كل المحافظات السنيّة سيتبادر إلى ذهنه أن الربيع ناشرٌ ازهارَه لا محالة، خاصة وهو يشاهد سرعة الاستجابة العفوية وتنامي أعداد المتظاهرين والمعتصمين، خاصة في محافظة الأنبار التي تعدل ثلث مساحة العراق تقريباً، وهي ذاتها من أشعل جذوة المقاومة وأبقتها وقّادة بوجه الاحتلال الأمريكي، وكيف أن قوة تحركها جذبت أخواتها من المحافظات الأخرى التي تشترك معها بعوامل كثيرة؛ كالتهميش السياسي والإقصاء الإداري والظلم والاضطهاد والتهجير والقتل، الذي يسعى إلى سحق هوية أهل السنّة. أقول: ذلك كله وغيره معه يعطي انطباعاً كي (يتفاءل) المرء بقدوم ربيع زاهر، لكن من يتابع المشهد العراقي عليه أن يأخذه بكليته، ولا يقس ما يجري على ما كان في تونس وليبيا ومصر واليمن، حتى سورية؛ لأن القياس هنا مع الفارق واختلاف المعطيات على الأرض واضح، فليس في الأرْبِعة التي مرت على تلك البلدان جنوب شيعي يصبر أهله على ظلم بني جلدتهم وفسادهم الإداري والمالي حتى انحدرت بهم الحياة إلى أسفل الدركات، فأبناء الطائفة الشيعية لا يحركون ساكناً؛ لأنهم لا يريدون أن تهتز حكومة طائفتهم أكثر مما هي مهزوزة، فالطائفة عندهم فوق كل الاعتبارات، وحكومتهم تستحق كل التضحيات، خاصة وهم يدركون أن المنافس الأجدر بإدارة الدولة موجود وممكن أن تؤول إليه الأمور.

ثم إذا ما ذهبنا إلى شمالي العراق، فقادة الأكراد في مثل هكذا أوضاع تتجمد عندهم التفاعلات ويتعطل العمل وتتوقف السياسة إلّا من الفُرجة، فهم يكتفون بالمشاهدة إلى حين ميلان كفة أحد أطراف التجاذب، ويكون عندها لكل حادث حديث.

وربّ قائل يقول: لماذا في الجنوب كان الحديث عن الجماهير، في حين كان الكلام فيما يخص الشمال عن القيادات الكردية؟ فأقول: أولاً أنا هنا أصف حالاً حسب رؤيتي، ثانياً أن الشعب الكردي أسلمَ الحياةَ السياسية لقادته، كما أنه راضٍ بما تَحقق لهم من منجزات، فيريدون الحفاظ عليها، في حين أن العامل الطائفي أُشرِبَ في نفوس أهالي المحافظات ذات الغالبية الشيعية من قِبَل ساستهم، فلا يحتاجون إلى تدجين بعد أن أُشبعوا بالخوف من الآخر.

وليس هذا الواقع فحسب، بل إن التحالف الشيعي الكردي، والذي عاد على ألسنة قادته وساسته؛ يتطلب من طرفيه توحيد المواقف أو مقاربتها أو عدم التشويش – على أقل تقدير – من طرف على قرارات ومواقف الطرف الآخر التي يأخذها تجاه من كان أساس التحالف ضدهم وضد مصالحهم، والمنطق يقول: إذا ما وجد تحالف فثمة جهة متحالف عليها، وإلّا ما معنى وجود تحالف لو لم يكن هناك مبرر له أو جهة قادرة على الوقوف بوجه مشروع المتحالفين، وبكل تأكيد ليس هنا سوى أهل السنّة والجماعة (العرب) ممن يمثل عائقاً من وجهة نظر التحالف الشيعي الكردي، ولعل من الضروري أن نشير إلى أن مجرد وجود مثل هكذا تحالف وإن كان غير فاعل الآن؛ فهو رسالة سلبية وغير مُطَمْئِنة لشريك أصيل في الوطن، ويفهم من خلاله أننا سنتخذ كل الوسائل، المباحة وغير المباحة، من أجل أن لا تصلوا إلى سدة الحكم مرة أخرى، وهذا ما يبرر لنا الموقف الباهت من القادة الكرد تجاه ما يجري من تطهير

مذهبي يتعرض له السـنّة، حيث الصمـت، إلّا من تصريحات متباعدة ليـس لها صدى على الأرض، وعـدم الأخذ على يد الحكومـة مع كل ما يملكـون من أوراق ضغـط، لا بل يذهب بعضهـم للتصريح بأن الكرد لن يكونوا جـزءاً من الصراعات الطائفية؟! وهذا البعض وغيره يدرك حقيقة الأمر أن ليس ما يجري لـه علاقة بالصراعات الطائفية، فأي صراع يحتاج إلى متصارعـين متقاربين بالقوة ويملكـون نفس الفرص أو فرصاً متقاربة للصراع، وحين يقوم حاكم ما بانتهاج كل ما من شـأنه إقصـاء وتهميش وتقتيل وتهجير أهـل مذهب بعينه وهؤلاء لا يملكون بدورهم سوى الوسائل السلمية الضعيفة؛ فهذا تطهير وليس صراعاً.

ويأتي هذا الموقف من قبل الساسـة الكرد، حسـب رؤيتي، لالتزامهم بمـا تعاهدوا عليه أمام صانعي القـرار الدولي قبل احتلال العراق وبعده، وأمام شريك (المظلومية)، ولخوفهم كذلك مـن إعادة حقبة السـبعينيات والثمانينيات، وهم الآن في حيرة من أمرهم؛ فهذا الشـريك بدأ ينقلب عليهم من خلال نسفه كل التعهدات والمواثيق التي أخذها على نفسـه، وما يصدر من قادة حكومة الشـراكة من حديث حول حكومـة أغلبية والانتهاء من مسألة التوافقات الثلاثية وبناء حكومة (وطنية)؛ ما هو إلا دليل على الرغبة في فض الشـراكة على طريق فض التحالف بعد أن رأى رأس الحكم أنه لم يعد بحاجة إلى من يقيّد يده التي أطلقتها الإدارة الأمريكية وإيران وبدرجة أقل القادة الكرد أنفسهم.

وربّ سـائل يسأل عن سـر هذه العداوة أو الخصومة بين مكونات الشعب العراقي، أو الشـيعة والكرد، تجاه أهل السنّة العـرب؟ والحقيقة أن الأمـر ليس كذلك، بل يـراد أن يكون على هذه الصورة، فالأكراد والعرب السـنة بينهم من الوشائج والروابـط الكثير، والذي يتجول فـي محافظات ذات الأغلبية من هؤلاء أو هؤلاء، يلمس ذلك، لكن الأمر ما بيّناه في سـبب موقف القادة الكرد مـن ناحية وممن أفرزته الأحداث كواجهة لأهل السنّة العرب من ناحية أخرى، حيث لم يجد فيهم المقابل ما يشجعه على التقارب.

أما العلاقة – وهنا أقصد العلاقة المجتمعية – بين الشيعة والسـنّة، فقد تكون أوثق؛ لأنها تضم علاقة نسـب ومصاهرة واسـعة، بل إن كثيراً من القبائل والعشائر ينقسم أبناؤها على الشـيعة والسنّة، وينحصر الإشـكال هنا وهناك فيمن يمثلون هذه الأطراف. وأرى أن أبعد من يمثل حقيقة خلفيته هم القادة الشيعة وأغلب ساسـتهم؛ لأنهم الأكثر ضرراً بمن يمثلون على المديين القريب والبعيد، فهم يؤصّلون لهذه الخصومة كي تكون مركّبة صعبة التحلل، فيركّبونها من ثلاث ظلمات، فهم يريدونها خصومة عقدية فكرية سـلوكية، وكذلك خصومة انتقام، حيث إن أهل السـنّة هـم من حكم وظلم على طول سـنين عجاف، والظُلمة الثالثة أنهم بغير هكذا أسلوب من الحكم – المبني على قمـع الآخر وقلعه من جذور نواحي الحياة – لا يدوم لهم حكم ولا سـلطة؛ لأنّ دولة المؤسسات ودولة القانون وحقوق الإنسان تعني بلوغ الكفاءات والقدرات المدنية منها والعسـكرية مفاصل الدولة المهمة ومركز القرار، وأنّ أهل السـنّة والجماعة لهم باع طويل في ذلك، وأن أكثرهم قرباً بشعبه هم القادة الكرد لو أنهم أطلقوا النظر بعيداً صوب التأريخ وصوب المستقبل، وتخلصوا من عقدة الذاكرة السلبية.

هذا هـو الواقع الذي يعيش فيه الحـراك، كما أن هناك مجموعـة عقبات تعترض الحراك الشـعبي السـنّي لا بد له من تجاوزها كي يصل لهدفه المنشـود؛ فهو أولاً يصطدم بنهج حكومة موسـوم باللف والدوران والمراوغة، ومعالجة ذلك تكون بالصبر مع تفعيل الوسائل المتاحة؛ كالتصعيد الميداني، وخروج الإعلام من روتينه ليولد ضغطـاً يمكنه انتزاع بعض الحقوق، حيث إن المتتبع يرى أن الحكومة تتأثر بمثل هكذا ضغوط على سـهولة الإتيان بها؛ لأنها تعمل بالفعل وردّ الفعل لغياب العمل المؤسسـي في رئاسة الوزراء، مع ملاحظة أن فعل هكذا ضغط لا يدوم طويلاً، فلا بد من الضرب والحديد ساخن، حيث تكون عودة الحكومة للمراوغة عودة سـريعة.. ومن العقبات أيضاً أن شريك الوطن هو شريك قلق، بمعنى أنه غير مستقر ومتذبذب المواقف، وقد يكون السـبب في ذلك مع الأسـباب الخارجية والأيديولوجية أنّ أهل السـنّة والجماعة لا يجيدون اللعب بما لديهم من أوراق، والأنكى من ذلك أن شركاء الوطن لم يجدوا – كما بيّنا – كتلة قيادية تمثل فعلاً أهل السنّة وليس لديها القدرة على إقناع الآخرين بفائدة التعاون والتنسيق الاستراتيجي معها، ما يجعل الأطراف لا تذهب بعيداً في الاصطفاف مع قضيتهم، وليس ما هو أوضح دليلاً على هشاشـة ممثلي السنّة من موقف وزرائهم تجاه تجاهل مطالب الحراك وتأجيل الانتخابات في أكبر محافظتين سـنيّتين (الأنبار ونينوى)، في الوقت الذي اتخذ فيه وزراء الكتلة الصدرية موقفاً موحداً ضد سلوكيات الحكومة هذه.

ولعل ذلك وما سبقه من مواقف متتالية ومرتبكة هو ما دفع مسـؤولاً وقيادياً كردياً بارزاً لأن يصف السنّة بالمكون الضعيف ولا يُلقى له بال.. إذن؛ لكي يجتاز الحراك هذه العقبة عليه أن يتمخّض عن ولادة قادة من صميم أهل السنّة ويحملون مشروعاً واضحاً لا يتأثر بالأشـخاص ولا الموروثات الجهوية أو الفكرية إلّا بالقدر الذي يصب في جوهر سـنيّة القضية وبما يسهم في استرداد الحقوق والعمل على بناء الوطن.

وتبقى العقبة الكؤود ما يمثله الموقف الدولي بأمريكا التي تريد أن تُبقي الوضع في العراق على ما هو عليه دون تأزيم أكبر ولا حتى انفراج، وهذا الأمر هو السبب وراء الموقف العربي والإقليمي، وهكذا موقف يستلزم من الحراك رمية حجر ترجّه لتصنع منه ارتدادات داخلية وخارجية، ومن ثم فلا بد من قوة لا تخلو من مجازفة (محسوبة) فيها تضحيات لاجتياز هذه العقبة، وهنا تبرز إحدى أوراق اللعب، (الأقليم)، وهي ما يمتلكه المجتمع السنّي، خاصة رأس حربته الأنبار، من قوة بشرية ومادية جرّبها العدو قبل الصديق بما يمهد لعقد تحالفات جديدة تؤطّر لدولة ما بعد حكومة تجيد صناعة الخصوم والأعداء وتبذِّر ما لديها من رصيد الأصدقاء والحلفاء.

ولعل من التحديات على الناحية الخارجية – عربياً وإقليمياً ودولياً –، هو أنّ ما يجري في العراق من حراك شعبي ليس فيه شَبَه لا من قريب ولا من بعيد بما جرى في دول عربية ولا بما سيجري في أخريات، اللهم إلا ما سيحدث في دولة هنا أو هناك، مع اختلاف الكتلة البشرية التي ستحركها دول إقليمية ودولية؛ فالحراك أو الانتفاضة العراقية هي انتفاضة سنيّة، أي أنها تمثل لوناً واحداً من الموزاييك البشري في العراق، وسيبقى كذلك نتيجة لما قدمناه، وبذلك يكون الحراك قد فَقَدَ عوامل رئيسة في التفاعل معه – الدول العربية على الأقل –، فلكونه سنيّاً فإنه اصطبغ بصبغة دينية عقدية، وهذا ما لا ترغبه ولا ترضاه الدول الأخرى، حتى التي يحكمها نفس المعتقد؛ لأنها تخشى على نظام حكمها ولا تخشى على نظام أمتها، لا بل إنها تخشى على نظامها ونفسها من أي حراك أو ثورة أو حزب ذات طابع أو منهج إسلامي، ولكون الحراك بلون واحد فهو لا يدفع بدول العالم لكثير تفاعلٍ؛ لكونه سيقبل التقزيم، وأولها أنه سيعتبر شأناً داخلياً، ولتجاوز هذا الأمر لا بد من تفعيل الحراك على المستوى الشعبي الدولي، وتحريك المنظمات الحقوقية.

وهذا كله هو بعض الأمر من الناحية المنطقية وَفق السياقات الدولية وواقعها، أما من الجانب التحليلي فإن العراق سبق إخوانه من البلدان العربية في دخوله مضمار التغيير وَفق منظومة الجيل الرابع من الاستعمار الذي يقتضي إنشاء ما يسمى الدول الفاشلة، حيث لحقه، ولم يسبقه كما هو الظن، كل من مصر وتونس وليبيا واليمن وما سيكون من شأن سورية، فلكي يكتمل دور إيران الوظيفي في المنطقة كان لا بد من أن يكون الحكم في العراق شيعياً طائفياً؛ لأن العقل الطائفي غير قادر على إدارة دولة فضلاً عن أن يبني دولة ويقيمها، فمن تتملّكه النزعة الطائفية لا يجيد غير التسلط والظلم كأدوات للسيطرة، ومن ثم سيستمر العراق دولة غير مستقرة ودولة فاشلة ينخرها الفساد السياسي والإداري والمالي، وحتى الخلقي، لكننا نلاحظ أن الدول الكبرى لا تريد من عجلة الفشل التي تسير في العراق أن تزيد من سرعتها، فلا بد لها أن تدور وفق ما هو مسموح لها حتى اكتمال الأجزاء الأخرى من مخطط التشظيظ، فهي متخوفة من أن يفلت زمام الحراك السني بما يجعله خارج الإرادة والإدارة ولو عن بُعد، وهذا يفسر لنا البرود الذي تتعامل به دول شقيقة وحميمة لأهل السنّة والجماعة في العراق، وكأن الضوء الأخضر الذي كان بارقاً أمامها في الدول الأخرى قد انطفأ، حتى إن الآلة الإعلامية العربية العالمية تتعامل على استحياء مع ما يجري على أرض جمجمة العرب.

وهنا لا بد من القول إنه إذا أراد أهل السنة في العراق ضرب الجيل الرابع بما لا يؤهله لأداء دوره أو تكملته وفق الخريطة المغذية له، فعليهم تفعيل أوراق لا يراد لها أن تفعّل في الوقت الراهن، ولأنني لا أتصور أن أحداً منهم ينتظر استرداد الحقوق والحفاظ على الهوية والكيان على طبق من فضة، فهذا دونه خرط القتاد، فإذن لا بد من التشابك العملي مع الخصوم، ولكي لا تكون التضحيات كبيرة وغالية؛ ينبغي الضغط على الجراح، وأول ذلك محاصرة وعزل العناصر المضادة لمشروع الأمة من المحيط السنّي بما لا يجعلها فاعلة، ثم الوصول إلى مرحلة تغييبهم عن المشهد السياسي، وبعد ذلك يكون الانتقال إلى مرحلة الإدارة الذاتية التي تضعِف تسلط المركز، على أن لا تطول هذه المرحلة، فالواجب أن تردفها مرحلة استقلال الإرادة والقرار إلّا بما يؤمن ارتباطهم بالعراق، وكل ذلك يسير بخطىً متوازية مع خطوات لترتيب البيت الداخلي، وإني لأرى ذلك أنه يتماشى مع الأحاديث والآثار النبوية الصحيحة التي تتحدث عن الكتل المؤمنة التي يناط بها مسؤولية الحفاظ على الأمة الإسلامية، خاصة ونحن على مشارف زمنٍ قد بعث بإرهاصات رحيله.

لذلك كله أقول لمن يتوقع أن ربيعاً عراقياً قد لاحت تباشيره؛ إنك إمّا واهم أو أنك متفائل أكثر مما ينبغي أو على الأقل إنه من باب رفع معنويات أهل السنة، وفي ذلك خطورة كبيرة على المعنويات إذا حصل ما تفرزه المعطيات بخلاف التوقعات، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن يقف المظلومون عن حراكهم أو تَسَبُّت تفاعلاتهم، على العكس، لكن عليهم أن يعملوا وفق الواقع وتُرسم الأهداف التي تناسب المرحلة وأدناها القبول بالرفع الجزئي لما يقع عليهم من ظلم، ويعملوا على تغيير الرافعات للوضع وتقوية ما موجود وتعزيزه بما يؤهل مجيء ربيع في سنتهم التي لا تعرف غير فصل الخريف فصلاً، فهل تكون أحداث الحويجة بداية لمرحلة جديدة تنسف كل التوقعات.

الصفويون والكرد..

انتهاكات الماضي ومخاوف المستقبل

■ فرست مرعي

لقد أثار الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، وصعود نجم الشيعة وسيطرتهم على مقاليد الأمور فيه بدعم أمريكي وإيراني منذ طرد السلطان العثماني مراد الرابع الصفويين من هذا البلد عام ١٦٣٨م؛ العديد من الأسئلة حول بعض المفردات التي تردّدت في الساحة كثيراً في الآونة الأخيرة، خاصة بعد الشد والاحتقان الطائفي الذي وصل إلى ذروته بعد تدمير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء في شباط ٢٠٠٦م، مثل: الصفويون، والغزو الصفوي، والتشيّع الصفوي، وما إلى ذلك من المفردات.

ويبدو أن الكثير من القرّاء والمتعطشين للمعرفة في العالمين العربي والإسلامي، لا يدرون الحقيقة التاريخية للصفويين، وتأسيس دولتهم، والمذابح التي ألحقوها بالمسلمين من أهل السنة، وكيفية استيلائهم على الحكم في الهضبة الإيرانية وفرضهم التشيّع كمذهب رسمي لبلاد إيران، ابتداء من مطلع القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي – ولحد الآن، رغم أن جلّ سكان إيران كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ما عدا سكان مدن قم وكاشان ونيسابور، وكيف أنهم احتلوا العراق، وتحديداً بغداد، مرتين، وفعلوا بسكانها من أهل السنة والجماعة من القتل والتنكيل ما تقشعر من هوله الولدان.

إن انتقال زعامة الصفويين إلى (السلطان إسماعيل) يعدّ من لدن المؤرخين نقطة تحول مهمة في الحركة الصفوية، وذلك لما أبداه السلطان من نشاط في توحيد دفة الحركة وقيادتها. وفي الوقت نفسه، فإن مقتل أجداده: جنيد، ثم حيدر، وإخوته: يارعلي، ثم إبراهيم؛ أصبح ملحمة أثارت حماس مريدي الطريقة الصفوية ودفعتهم إلى نصرة الحركة والانتقام من قتلتهم، حيث راجت إشاعات شيعية بين سكان منطقة كيلان (شرق إقليم أذربيجان) رواجاً عظيماً بأن دورهم قد حان لإدارة البلاد والانتقام من أعدائهم، وأخذت صوفية مدينة لاهيجان وأنصار الصفويين من القزلباشية يزدادون يوماً بعد يوم.

معاناة الكرد السنة في ظل الحكم الصفوي:

بدأ السلطان إسماعيل الصفوي (١٤٩٤-١٥٢٤م) نشاطه العسكري في الولايات الشمالية من دولة الآق قوينلو، وكان لديه أكثر من سبب يدفعه للبدء بهذه الجهات؛ فإن حكام هذه الولايات أصبحوا الآن بعيدين عن المراكز الرئيسية لقبيلة الآق قوينلو (الخروف الأبيض) في بغداد وديار بكر، كما أن استقلال حاكمها (ألوند ميرزا) بهذه الجهات من شأنه أن يطلق له العنان دون أن يواجه ضغطاً فعالاً من قبل الأمراء المنافسين الذين سيسرّهم التخلص من أحد منافسيهم.

استطاع (إسماعيل الصفوي) أن يغلب خصمه (فرخ يسار) قاتل أبيه في قرية كلشان في ولاية شماخي الواقعة في منطقة القفقاس، ويقتله، وفي رواية أن يأسره، حيث وضعه في قدر كبير وأمر أتباعه بأكله. بعدها استولى على مدينة (باكو) عاصمة جمهورية أذربيجان حالياً. ولما سمع (ألوند ميرزا) بهذه الأخبار السيئة اتحد مع السلطان (مراد) على أمل القضاء على إسماعيل، لكن الأخير استطاع دحرهما في المعركة التي جرت بينهما في (شرور) قرب نخجوان (منطقة القفقاس) أوائل سنة ١٥٠١م وقتل نحو ثمانية آلاف من تركمان قبلية الآق قوينلو، ولاذ ألوند ميرزا بالفرار إلى ديار بكر، ومات فيها سنة ١٥٠٤م. وبعدها دخل (إسماعيل الصفوي) مدينة تبريز مظفراً وأعلن نفسه شاهاً فيها عام ١٥٠١م، واتخذ من تبريز عاصمة له، وبعد دخوله تبريز أمر بأن تقرأ الخطبة باسم الأئمة الـ ١٢، وأن تسكّ على العملة عبارة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله)، ثم يتبع ذلك ذكر اسم السلطان، وأقرّ مذهب الشيعة مذهباً رسمياً لدولته، وارتدى علامة هذا الرسم تاجاً من السقرلاط الأحمر (الديباج الأحمر) بعد أن خلع الملابس الخاصة بالتصوف. وبعد هذا النصر جرد (الشاه إسماعيل) جيوشه على عراق العجم وقاتل (مراد بك) زعيم الآق قونيلو (خلف ألوند ميرزا) على مقربة من مدينة همدان (غرب إيران)، وألحق به الهزيمة، فلما فر (السلطان مراد) إلى شيراز أتاها (الشاه إسماعيل) يتعقبه، وفي ربيع الأول ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م دخل هذه المدينة، وسقطت نتيجة هذا العمل أسرة الآق قونيلو تماماً في الهضبة الإيرانية، وضمت عراق العجم (غرب إيران) وأقاليم فارس وكرمان، إلى دولة الشاه إسماعيل. وعلى أثر انسحاب السلطان (مراد بن يعقوب) إلى العراق، تقدمت الجيوش الصفوية فاحتلت مراكز الآق قوينلو الأخرى داخل الهضبة الإيرانية، الواحدة تلو الأخرى، وهي: أصفهان وشيراز وهمدان.

التوسع الصفوي في العراق وكردستان:

في سنة ١٥٠٦م غادرت القوات الصفوية العاصمة تبريز واتجهت إلى إقليم كردستان الذي يفصل الهضبة الإيرانية عن إقليم العراق العربي وعن الأناضول؛ لمحاولة الاستيلاء عليه، لكنها فشلت من النيل منه لوقوف الزعيم الكردي (صارم بن سيف الدين المكري) في وجهها، لكن ذلك لم يمنع من أن يخضع عدد من أمراء كردستان طوعاً وكرهاً للنفوذ الصفوي.

وقد دشن العهد الصفوي (١٥٠٢ – ١٧٣٦م) بداية جديدة للتاريخ الكردي في إيران تشغل الفواجع والأحداث الدموية معظم صفحاته، على حد تعبير المؤرخ (كمال مظهر)، فإن مؤسس الدولة الصفوية إسماعيل الصفوي (١٤٨٧ – ١٥٢٤م)

كان يرفض كل ما هو كردي؛ بسبب كونهم من أهل السنة والجماعة، بحيث إنه لم يتحمل حتى أولئك الأمراء من الكرد الذين أتوه إلى بلدة (خوي) لتقديم الولاء له، فأمر بإلقاء القبض عليهم جميعاً، وعيَّن مكانهم ولاة من أتباعه (القزلباش)، وفي تعليق له على تلك الحقبة يقول محمد أمين زكي ما نصه: «وكان عهد الشاه إسماعيل وسيره في الكرد مثل عهد تراكمة الآق قوينلية (التركمان الشيعة)، عهد ظلم وعدوان شديدين؛ لأن الكرد كانوا من أهل السنة فكان لا يأمن جانبهم ولا يثق بهم، بخلاف التركمان الذين كانوا من غلاة الشيعة، فلهذا لم يكن يدع فرصة تمر من غير أن ينتهزها ويلحق فيها بالأكراد أذى كبيراً؛ فمن ذلك أنه قدم مرة إلى بلدة خوي فتقدم إليه أحد عشر أميراً من أمراء الكرد مقدمين له الطاعة والخضوع، فما كان منه إلا أن ألقى القبض عليهم جميعاً – على خلاف ما كانوا يأملون منه – وزجهم في السجن، وعيّن بدلهم ولاة القزلباشية في إماراتهم الموروثة، فكان من ضمن هؤلاء الأمراء المنكوبين (الملك خليل) حاكم (حصن كيف)، وزوج أخت الشاه إسماعيل نفسه، حيث لبث في سجن تبريز ثلاثة أعوام كاملة إلى أن نجا منه على أثر الخسارة الكبيرة للشاه (إسماعيل الصفوي) أمام السلطان العثماني (سليم الثاني – ياووز) في معركة جالديران الشهيرة في ٢٣ آب ١٥١٤م».

ومن جانب آخر، فإن الدولة العثمانية عرفت كيف تستفيد من الصراعات المذهبية التي جرت بين الأمراء الكرد والدولة الصفوية، حيث وقفت إلى جانب الكرد في صراعهم المصيري ضد الصفويين وتجاوزاتهم؛ لذلك سرعان ما ثارت كردستان السنية ضد الحكم الصفوي الشيعي في كافة أنحاء كردستان الشرقية والوسطى، حيث تمكن الثوار الكرد من طرد الحكام الصفويين الموالين للشاه إسماعيل، وعندما حاول الأخير استعادة ما فقده من نفوذ في المناطق الكردية، جوبه بمقاومة شديدة أينما حل، ما كلف الكرد خسائر جسيمة؛ فإن حصار قوات الشاه إسماعيل لمدينة ديار بكر الذي دام أكثر من عام واحد، أودى بحياة ١٥ ألفاً من سكانها.

واستمرت هذه المجازر طيلة العهد الصفوي، فعندما زحف الشاه طهماسب (١٥٢٤ – ١٥٧٦م) سنة ١٤٥٤م على كردستان، فإنه (لم يترك في الطريق الذي سلكه عامراً إلا دمره)، وأعادت جيوشه الكرة مرة ثانية على كردستان في سنة ١٤٥٥م لتدمر من المدن الكردية في كردستان العثمانية: بدليس، أرجيش، موش، وأخلاط، وغيرها (تدميراً كاملاً، وتقتل من أهاليها مقتلة عظيمة)، ليكمل رئيس حرسه (أمير سلطان روملو)، أحد قادة القزلباش، من بعده عمله (كان أفظع وجهاً، وأشنع صورة)، فقد ارتكبت القوات الصفوية (من الأعمال الوحشية وضروب القسوة والفظاعة، ما أنسى الناس هول الأعمال البربرية التي اجترحها في هذه البلاد كل من هولاكو وتيمورلنك)، وفي يوم واحد قتل رجال الشاه طهماسب ٤٠٠ من أبناء عشيرة دنبلي الكردية، ونفذوا حكم الموت بكل دنبلي كان يعمل في بلاط الشاه، ما أجبر من تبقى على قيد الحياة من الكرد الدنبليين على اللجوء إلى داخل الأراضي العثمانية.

وعندما اجتاحت الاضطرابات الدولة الصفوية أيام حكم الشاه إسماعيل الثاني (١٥٧٦ – ١٥٧٧م) والسلطان محمد خدا بنده (١٥٧٧– ١٥٨٧م)، واستطاعت الدولة العثمانية السيطرة على أجزاء كبيرة من أذربيجان؛ أعلن الكرد تعاطفهم مع العثمانيين رفقاء المذهب السني، وعندما تولى الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ – ١٦٢٩م) الحكم، استطاع طرد العثمانيين من أذربيجان، وصمم على الانتقام من هؤلاء الكرد السنيين وتشريدهم متى سنحت الفرصة لذلك، فقد توجه بنفسه على رأس جيش كبير إلى مدينة خوي (شمال كردستان إيران)، ومن هناك زحف على منازل عشيرة محمودي الكردية التي دافع رئيسها مصطفى بك عن قلعة ماكو وقاتل ببسالة، لكن الجيش الصفوي (عاث في تلك البلاد فساداً، وغالى في النهب والسلب والتدمير، وقتل من الأهالي مقتلة عظيمة)، نقل منهم بضعة آلاف من النساء والأطفال الذين عوملوا معاملة الأسرى إلى منطقة خراسان الشرقية، كما يقر مؤرخ الشاه عباس الشهير (إسكندر منشي).

وقد حاول الكرد من أبناء عشيرة مكري الضاربة استعطاف الشاه عباس بعد أن أمّنهم على حياتهم، وتقدم زعيمهم (قباد خان) ومعه مائة وخمسون فارساً إلى الشاه عباس الموجود في مدينة مراغة في ذلك الوقت؛ لإظهار خضوعهم وتقديم فروض الطاعة للشاه، لكن ما إن وصلوا إلى بلاطه حتى فتك بهم جميعاً.

ولم يكتفِ الشاه عباس بالتنكيل بهم في ديارهم، وإنما أقدم على اتخاذ خطوة أشد وأقسى، وهي تهجير عدد كبير

منهم إلى مناطق أخرى بعيدة عن ديارهم بآلاف الكيلومترات؛ ليفقدوا الحماس للأرض التي يعيشون عليها، فتخبو نار ثورتهم، وليعيشوا في ذل الغربة والاستكانة، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية، ومعهم كل أمتعتهم ووسائل معيشتهم وقطعان ماشيتهم، إلى شرق خراسان (شرق إيران)؛ ليكونوا فاصلاً بشرياً بين الإيرانيين والأوزبك فيما وراء النهر، ولعله أراد بهذا الإجراء أن يجعل من هؤلاء الكرد السنيين أول من يتلقون ضربات الأوزبك السنيين، وبهذا يتخلص من كليهما معاً. ولم يكتف الشاه عباس الصفوي بما فعله معهم حتى الآن، بل فرض عليهم ضرائب باهظة، ووضعهم تحت رقابة صارمة وحكم حديدي؛ كي لا يتيح لهم أي فرصة للخروج عليه ومعاودة الثورة ضده بسبب قسوته وتعصبه الشديد ضد كل ما هو من أهل السنة والجماعة بشتى قومياتهم؛ فقد كانت قوات القزلباش الصفوية قد هاجمت سنة ١٦٠٨م الأكراد البرادوستيين (= منطقة المثلث العراقي الإيراني التركي حالياً) مستهدفة قلعتهم الحصينة (قلعة دمدم) الواقعة جنوب مدينة أورمية، انطلاقاً من التعصب المذهبي المقيت على حد تعبير المؤرخ (حسن الجاف)، وقد تصدى الثوار الكرد للجيوش الصفوية، وجرت إثر ذلك معارك طاحنة دافع فيها الكرد عن ديارهم وقلاعهم دفاع الأبطال المستميتين، أصابوا خلالها الجيش الصفوي بخسائر باهظة، وكان لزعيمهم (أمير خان يكدست – صاحب اليد الواحدة) القدح المعلى في هذا المضمار، ولم يترك الكرد القلعة لهؤلاء الأعاجم الشيعة إلا بعد أن أبيدوا عن بكرة أبيهم إبادة تامة، لتتحول هذه المأساة إلى ملحمة بطولية أشاد بها المستشرقون وتغنى بها الأدباء والشعراء، وما زالت تسري في التراث والوجدان الكردي سريان النار في الهشيم.

وبهذا يتبيّن لنا أن الكرد السنة قد تعرضوا لعمليات إبادة جماعية منظمة وتهجير قسري طيلة العصر الصفوي على يد معظم سلاطينهم، لا لسبب إلا للتعصب الطائفي البغيض المقيت على حد تعبير المؤرخين الكرد الرواد، من أمثال: البدليسي، ومحمد أمين زكي، ومن المعاصرين: كمال مظهر، وشكور مصطفى، ونوشيروان مصطفى، وغيرهم.

لذلك؛ فإن تقديم بحوث ودراسات عن شرق كردستان (كردستان الإيرانية) من شأنه أن يكشف النقاب ويميط اللثام عن المعاناة اليومية والعذابات المجحفة بحق الكرد البائسين الذين لا يزالون يتعرضون لاضطهاد عرقي وتعصب طائفي بغيض على يد السلطات الإيرانية الإسلامية! إلى وقت كتابة هذه الأسطر، رغم تبجح بعض الزعامات السياسية والفكرية الكردية العلمانية واليسارية خارج إيران بأن الكرد في إيران يعيشون في وضع جيد، وهذا ربما يعود إلى علاقاتهم الخاصة؛ لأنها آوتهم ودعمتهم أيام الحرب مع العراق، أو تعاطفهم الأيديولوجي مع قادة إيران بسبب محاربتهم المسلمين أصحاب العقيدة الصحيحة، متناسين في الوقت نفسه حملات الإعدام بحق العلماء والقادة والمثقفين، وتعليقهم على أعمدة الكهرباء على مرأى من وسائل الإعلام المختلفة، إضافة إلى اعتقال المئات ونفيهم بحجة محاربة دولة الولي الفقيه (الجمهورية الإسلامية الإيرانية الشيعية)؟، وقصف أراضي كردستان العراق على مدار السنة بحجة محاربة المعارضة الكردية المسلحة، ومحاولة إدخال المخدرات والأدوية والأطعمة الفاسدة إلى كردستان العراق، فضلاً عن اغتيال الدكتور عبد الرحمن قاسملو، رئيس الحزب الديمقراطي الكردي الإيراني في ١٩٨٩، وإعدام العالم والداعية الكردي (ناصر سبحاني) في سنة ١٩٩٠م الموافق لعيد الأضحى عام ١٤١٠هـ، واغتيال (شرف كندي) خليفة قاسملو عام ١٩٩٢م، واغتيال رئيس علماء كردستان الإيرانية (أحمد مفتي زاده) عام ١٩٩٣م، والداعية (فرسد فروغ).

من جانب آخر، فإن هذا لا ينفي تعرّض الشعوب الإيرانية الأخرى من أهل السنة والجماعة من البلوش والتركمان والعرب، بل حتى الفرس السنة؛ لعمليات اضطهاد وقتل وإعدام النخب الدينية والثقافية والاجتماعية وسجن وتشريد الآخرين بحجج واهية وسخيفة لا تقل شأناً عما فعلوه بالكرد، وما زالت هذه العمليات القذرة مستمرة في عهد ما يسمى الجمهورية الإسلامية الإيرانية!

وتجدر الإشارة إلى أن الأقليات الشيعية والباطنية في الدول الإسلامية السنية غير مضطهدة بالقياس إلى الأقليات الإسلامية السنية في إيران، وتتحمل هذه المسؤولية الأخلاقية والقانونية منظمات حقوق الإنسان الدولية والإقليمية التي لم تتطرق إلا على استحياء إلى هذه الانتهاكات الصارخة بحق القوميات غير الفارسية في إيران، وغالبيتها من المنتمين إلى عقيدة أهل السنة والجماعة.

بنجلاديش

والانتقام من الهوية الإسلامية

■ مجدي داود
Mdaoud_88@hotmail.com

تشهد "بنجلاديش" اليوم أزمة خطيرة، حيث تنتشر الفوضى والعنف، ويشتعل المسلمون غضباً، وسط ترقب لما سيحدث خلال الأسابيع القليلة الماضية، بعد صدور أحكام بالإعدام على بعض قادة ورموز "الجماعة الإسلامية"، على خلفية ما تقول الحكومة إنها "جرائم قتل وإرهاب" قاموا بها خلال "حرب الانفصال" عن باكستان عام ١٩٧١م، وهي الأحكام التي وصفتها الجماعة الإسلامية ومؤسسات حقوقية بأنها أحكام مسيّسة ناتجة عن محاكم مسيّسة، كما ظهرت دلائل على تدخّل الحكومة في عمل المحكمة وإجبار القضاة على إصدار أحكام الإعدام تلك.. في المقابل يصرّ التيار العلماني على تنفيذ الأحكام، متجاهلاً كافة المآخذ القانونية على المحكمة، فيما يعتبر حرباً شديدة على الجماعة الإسلامية وانتقاماً من الهوية الإسلامية للبلاد التي تسعى الجماعة للحفاظ عليها.

بنجلاديش هي سابع أكبر دول العالم من حيث عدد السكان، إذ إن عدد سكانها نحو ١٦٠ مليون نسمة، ٩٦٪ منهم مسلمون، فهي رابع أكبر الدول من حيث عدد المسلمين فيها، ويعتبر الإسلام الديانة الرسمية داخلها، لكن تعيش الديانات الأخرى وتمارس شعائرها في سلام، واستقلت بنجلاديش عن باكستان عام ١٩٧١.

قصة الانفصال

يرى كثير من المؤرخين أن بذور انفصال بنجلاديش عن باكستان زرعت يوم تقسيم شبه القارة الهندية حين رفض المستعمر البريطاني وصل باكستان ببنجلاديش جغرافياً، فصارت الدولة الواحدة منقسمة جغرافياً إلى منطقتين بعيدتين؛ باكستان والتي عرفت حينها بباكستان الغربية، وبنجلاديش التي عرفت بباكستان الشرقية، وشجعت الهند انفصال بنجلاديش عن باكستان، وذلك عن طريق بعض البنجاليين الذين كانوا يرددون أن البنجاليين لا يحظون بنفس الاهتمام والمعاملة الذي يحظى به الباكستانيون، وزاد ترويج هذا الأمر حتى انتخابات عام ١٩٧٠ التي فاز فيها حزب "مجيب الرحمن" من بنجلاديش بالأغلبية النيابية، وكان قد قدم مقترحاً من ست نقاط يمثل بذرة انفصال بنجلاديش، فرفض الجنرال يحيى خان الذي يصر على الوحدة، تسليم السلطة لمجيب الرحمن، وقامت حرب أهلية، حتى أعلن الجيش الباكستاني في بنجلاديش استسلامه أمام الجيش الهندي الذي خاض حرباً ضد باكستان لدعم انفصال بنجلاديش.

كانت الجماعة الإسلامية في ذلك الوقت ترفض انفصال بنجلاديش؛ إدراكاً منها لخطورة تقسيم البلاد، والارتماء في الأحضان الهندية، وقد انتقمت منها الحكومة البنجالية على الفور بعد الانفصال، حيث سجنت الآلاف من المعارضين للانفصال، ثم تم العفو عنهم ضمن اتفاقية ثلاثية تمت بين بنجلاديش وباكستان والهند، كما تم العفو عن ١٩٥ عسكرياً لم يكن من بينهم أي من قادة الجماعة الإسلامية الذين يحاكمون الآن.

محاكمة بعد ٣٧ عاماً

الجماعة الإسلامية هي أكبر القوى الإسلامية في بنجلاديش، وإلى جانبها توجد قوى أخرى، مثل: مجلس الخلافة وحركة الخلافة، والتيار السلفي الذي يُعنى بعلم التوحيد، وجماعة التبليغ والدعوة وهي لا تهتم بالشؤون العامة وليس لها دور في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنها تمتلك وتدير العديد من المؤسسات، ومنها: جمعية العمال، وجمعية الفلاحين، وجمعية التربية الإسلامية، ومطبوعة يومية، وأخرى أسبوعية، وثالثة شهرية، فضلاً عن إدارة العديد من المدارس وثلاث جامعات حكومية تحظى بحضور إسلامي قوي في أوساط الطلاب.

خلال السنوات الأخيرة تعاظمت قوة الجماعة الإسلامية، وصارت تمثل قوة سياسية واجتماعية مهمة في البلاد، فالمعارضة الرئيسية تتمثل في الحزب الوطني البنجلاديشي وتقوده خالدة زيوار، والتي وجدت حلفاءها بين الأحزاب الإسلامية، مثل: الجماعة الإسلامية البنجلاديشية، وجماعة أويكا جوتا الإسلامية، بينما انحازت رابطة عوامي التي تنتمي إليها رئيسة وزراء بنجلاديش الحالية شيخة حسينة ابنة شيخ مجيب الرحمن الذي أعلن استقلال البلاد عام ١٩٧١ وأصبح رئيسها المؤسس بعد الحرب؛ إلى اليساريين والأحزاب العلمانية.

وقد أزعج هذا الوضع التيار العلماني الذي يسيطر على الحكم في البلاد، فأثار قضية الانفصال مجدداً بعد مرور ٣٧ عاماً عليها، وطالبوا بمحاكمة قادة الجماعة الإسلامية بدعوى ارتكابهم جرائم حرب ونهب وسلب وتأييدهم الجيش الباكستاني خلال حرب الانفصال، كما قررت الحكومة، بقيادة رئيسة الوزراء الشيخة حسينة، حظر أي ممارسة إسلامية سياسية ومنع التعليم الإسلامي، وشنت حرباً شرسة ضد الجماعة الإسلامية وأنشطتها السياسية والاجتماعية والتربوية والدعوية، وذلك تحت ضغط الشيوعيين في الحكومة، وهم لا يقلون عن نصف عدد الوزراء؛ للقضاء على الجماعة الإسلامية وتضييق الخناق على قادتها، حتى إن الحكومة قامت بحذف البند الأساسي من دستور البلاد وهو الإيمان بالله وتكوين العلاقة مع الدول المسلمة.

وفي عام ٢٠٠٩ قدمت الأمم المتحدة دعماً للحكومة البنجالية لمحاكمة قادة الجماعة الإسلامية بتهمة ارتكاب جرائم حرب خلال حرب الانفصال، وطلبت الحكومة البنجالية من باكستان والولايات المتحدة تزويدها بالوثائق الخاصة التي تتصل بالحرب، في الوقت ذاته ترفض محاولات المحامين الدوليين التدخل بدعوى أن هذا أمر داخلي، وأنشأت الحكومة محكمة خاصة بجرائم الحرب بغرض "محاكمة كل من أدين بالتعاون مع القوات الباكستانية خلال حرب الاستقلال وارتكاب جرائم حرب".

أحكام الإعدام وانتقادات حقوقية

أصدرت المحكمة حكماً بالإعدام على عدد من أكبر رموز الجماعة الإسلامية، على رأسهم اثنان من كبار شيوخ البلاد وعلمائها، وهما: الشيخ دِلْوَار حسين سعيدي، والشيخ أبو الكلام آزاد، وقد لاقت تلك الأحكام انتقادات واسعة من قبل عديد من الهيئات والمنظمات الحقوقية الدولية، مثل: منظمة العفو الدولية، ومنظمة هيومان رايتس ووتش، ورابطة المحامين الدولية، والمركز الدولي للعدالة الانتقالية، والاتحاد الدولي للقضاء، وكذلك عدد من الشخصيات والرموز السياسية العالمية، مثل: الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، وعدد من أعضاء مجلس اللوردات بالمملكة المتحدة.

وقال الاتحاد الدولي للقضاء في تقريره عن هذه المحاكمات الذي نشر في ٢٢ يناير الماضي، بعد أن شكل وفداً من ١٤ عضواً زار بنجلاديش في ديسمبر الماضي لمراقبة وقائع المحكمة؛ إنه يجب إيقاف حكم الإعدام على "أبي الكلام آزاد" والمحاكمات الأخرى؛ نظراً لأن بنجلاديش لا تؤمِّن محاكمة عادلة للمتهمين، وأن المحاكمة لا يمكن أن تطابق المعايير الدولية؛ لأن القاضي والمدعي العام ولجنة التحقيق عُيِّنوا كلهم من قبل الحكومة، والمتهمون هم سياسيون حزبيون من المعارضة، ومحاكمة بهذا الشكل لا يمكن أن تكون خاضعة للمعايير الدولية.

واقترح التقرير ١٢ خطوة لتأمين محاكمة عادلة لقادة الجماعة الإسلامية، على رأسها: تجريد القضية من العناصر السياسية، والتعامل معها على أساس قانوني، وتعريف الجرائم التي وردت في محكمة جرائم الحرب بشكل واضح، وإعادة تعيين القضاة لضمان الحياد، واستبدال القضاة والمدعين العامين وغيرهم في القضية، وتعيين قضاة محايدين ومدعين عامين يتّسمون بالنزاهة، والتحقيق مع المسؤولين الذين يسيؤون استخدام سلطتهم، وأن تكون السلطة القضائية في مأمن من

الضغوط السياسية، والتحقيق مع الذين وضعوا القضاء تحت الضغط.

وقد أعلنت منظمة هيومان رايتس ووتش أن هذه المحاكمات لا تصل إلى مستوى العدل العالمي، وأن التغييرات التي أحدثت في قوانين بنجلاديش لا ترقى أبداً للمستوى المطلوب، مما يعرض قادة الجماعة الإسلامية السابقين لاعتقال تعسفي ومحاكمات سياسية جائرة وأحكام ظالمة.

وأوضحت المنظمة أن نظام المحاكمة في بنجلاديش يحتاج إلى تعديلات لضمان العدالة، منها: السماح للمتهم بالتأكد من مدى حيادية من يحاكمه، وتعريف مصطلح جرائم الحرب لأنه غير واضح في القانون البنجلاديشي ولم يعدل طبقاً للمعايير الدولية، والتأكد من أن الدفاع يأخذ الوقت اللازم للاستعداد؛ لأن القانون الحالي يسمح له فقط بثلاثة أسابيع، وإنشاء مكتب للدفاع كما هو الحال في البلاد الأخرى.

الجماعة ترفض والعلمانيون يسيؤون ويحرضون

رفضت الجماعة الإسلامية الأحكام الجائرة الصادرة عن المحكمة بحق قادتها ورموزها، وأصدرت بياناً طالبت فيه المجتمع الدولي بأن يقوم بدوره في مخاطبة رئيسة وزراء بنجلاديش بأن توقف فوراً مهزلة المحكمة الجائرة التي تود عبرها تلفيق التهم ضد قادتها الأبرياء؛ توطئة لشنقهم. وناشد البيان الأمم المتحدة أن تقوم بإدارة محكمة جرائم الحرب والضغط على الحكومة للإفراج عن قادة الجماعة الإسلامية المعتقلين بكفالة. كما طالبت منظمة المؤتمر الإسلامي بإصدار بيان علني يدين النشاط غير القانوني لحكومة بنجلاديش، واستضافة اجتماع وزراء خارجية الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، وانتقاد ما يسمى المحكمة الجنائية ببنجلاديش بأنها عملية غير متناسقة مع المعايير الدولية.

وخرج أنصار الجماعة الإسلامية إلى الشارع رفضاً لهذه الأحكام الجائرة، وتصدت لهم الحكومة، ووقع كثير من القتلى والجرحى في صفوف المتظاهرين، وحذرت الجماعة الحكومة من مغبّة تنفيذ حكم الإعدام بحق قادتها، فإنها وحدها تتحمّل عواقب هذه الفعلة المشينة، وقالت إنه "في حال رأت هذه الحكومة أنه لا يمكن أن تتعايش في سلام مع هؤلاء العلماء، فإننا نطالب بترحيلهم خارج بنجلاديش رغم أن مسلمي الداخل أولى بوجودهم وجهودهم، لكن على الأقل بقاؤهم أحياء هو ذخر للأمة وركن متين ينفع الله به المسلمين عامة".

أما التيار العلماني فقد نظم تظاهرات في العاصمة البنجالية دعا فيها إلى تنفيذ أحكام الإعدام ضد قادة ورموز الجماعة الإسلامية، ضارباً بعرض الحائط الانتقادات الحقوقية الكثيرة التي وجهت للمحكمة، متنكراً لكل خطاباته الرنانة حول احترام حقوق الإنسان وحرياته.

في الوقت ذاته، تطاول العلمانيون على المقدسات والشعائر الإسلامية، ووجّه المدونون العلمانيون إساءات بالغة للإسلام والمسلمين، فيما تشير أصابع الاتهام إلى شيخة حسينة بالوقوف وراء تلك الإساءات؛ لهدم الثوابت الإسلامية، فتطاول أحدهم على رب العزة – سبحانه وتعالى – وعلى نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، فيما قال آخر معلقاً على أحكام الإعدام "إنه لا أحد يستطيع أن يوقف حُكم الإعدام في الشيوخ المذكورين، حتى لو نزل الله للحيلولة دونه لشَنَقْنَاه كذلك"، وذلك دون أن تحرك الحكومة ساكناً لمعاقبة هؤلاء، ما أدى إلى تزايد الشكوك بوقوفها وراء تلك الهجمة على الثوابت الإسلامية.

قابل المسلمون في بنجلاديش هذه الإساءات بموجة غضب عارمة، ودعت الجماعة الإسلامية أنصارها وجميع المسلمين للخروج في تظاهرات حاشدة للتنديد بهؤلاء المدونين، والدعوة إلى فرض قيود صارمة على المدونين الذين يسيؤون إلى الإسلام، وإنزال عقوبة الإعدام بهم، وشارك في التظاهرة مئات الآلاف، ووفقاً لبعض التقديرات فقد وصل عدد المتظاهرين لنحو ثلاثة ملايين متظاهر هتفوا "الله أكبر، الشنق للمدونين الملحدين".

خاتمة

إن تدافع الأحداث على هذا النحو بين محاولات القضاء على الجماعة الإسلامية وفتح ملفات مضى عليها عقود من الزمان، ومحاكمات مسيّسة تتساقط عليها الانتقادات كما الأمطار، والتضييق على الأنشطة التربوية والاجتماعية، والتغيير في الدستور لترسيخ علمنة البلاد، والهجوم على الثوابت والمقدسات الإسلامية؛ ليؤكد أن هناك صراعاً قوياً بين العلمانية والإسلام، وأن الحكومة البنجالية الحالية تشن حرباً شرسة على الدين الإسلامي والهوية الإسلامية في البلاد، ولكي تحقق نجاحاً في ذلك ينبغي توجيه ضربات قاضية إلى الجماعة الإسلامية التي كان لها – بفضل الله – الدور الأبرز في الحفاظ على هوية البلاد، ونشر الدعوة الإسلامية، وهو ما تقوم به الحكومة.

مرصد الأخبار

عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

الجيش الفرنسي يقرِّر الاستغناء عن ٢٤ ألف موظف بحلول ٢٠١٩

بين عامي ٢٠١٦ و٢٠١٩ ستستغني القوات المسلحة الفرنسية عن ٦ آلاف موظف كل سنة، ليصل العدد الكلي للموظفين المسرَّحين من الجيش إلى ٢٤ ألفاً مع نهاية المدة. هذا ما كشفته الحكومة في النسخة الجديدة من «الكتاب الأبيض» الذي يرسم الخطوط العريضة لسياسة الدفاع الفرنسية على مدى سنوات محددة.

وبحسب هذا الكتاب، فإن ميزانية الدفاع ستبقى في حدود ١٨٠ مليار يورو خلال الفترة ذاتها؛ تطبيقاً لوعد قطعه الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند في مارس ٢٠١٣ بتجميد نفقات القوات المسلحة. ويظل بذلك الجيش الفرنسي صاحب ثاني أعلى ميزانية في أوروبا بعد الجيش البريطاني.

تأتي هذه الإجراءات استكمالاً لبرنامج كان بدأه الرئيس السابق اليميني نيكولا ساركوزي عام ٢٠٠٨، إذ أعلن عن تخفيض أعداد العاملين في الجيش بواقع ٥٤٠٠٠ بحلول ٢٠١٥.

المسلمون في النمسا يطالبون بعطلة في أعيادهم الدينية

طالب رئيس الجالية الإسلامية الرسمية في النمسا، فؤاد سنج، السلطات النمساوية؛ بضرورة تعديل القانون النمساوي الصادر عام ١٩١٢ الذي ينص على الاعتراف رسمياً بالدين الإسلامي منذ أكثر من مائة عام؛ بحيث يتضمن منح المسلمين في النمسا عطلة عن العمل ليوم واحد في كل عيد لهم مثلما يمنح المسيحيون البروتستانت عطلة في يوم الجمعة التي تسبق عطلة الكاثوليك بعيد الفصح.

في حين أعلن كبير أساقفة النمسا، كاردينال كريستوف شونبرون، تحفظه تجاه طلب رئيس الهيئة الإسلامية في النمسا، معتبراً أنها مسألة تحتاج إلى مناقشة مجتمعية واسعة، مع تأكيده على ضرورة مراعاة نسب الأغلبية في البلاد.. كما أن أعداد أفراد الجالية الإسلامية المقيمة في النمسا ليست كبيرة بالدرجة التي تجعل من أعيادها الدينية إجازات عامة رسمية في البلاد.

(الأهرام: ٢٠١٣/٤/١٦)

إصلاح الفاتيكان

أعلن البابا فرانسيس، بابا الفاتيكان، تشكيل مجلس من ٨ كرادلة يهدف لإصلاح الفاتيكان إدارياً. ويأتي هذا القرار تلبية لاقتراحات صدرت عن المجمّع العام لكرادلة الفاتيكان الذي عقد لتنصيبه خلفاً للبابا بنديكيت السادس عشر. وستكون مهمة المجلس الجديد تقديم التوصيات لإدارة الفاتيكان، فضلاً عن إعداد تعديلات في الدستور الرسولي «باستور بونس» المنظم لإدارة الفاتيكان.

(الأهرام: ٢٠١٣/٤/١٥)

(*) نرحب بمقترحاتكم البنّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

مرصد الأخبار

الإسلام في بريطانيا يتحوَّل من دين مهاجر إلى متوطِّن

اعتبرت مجلة الإيكونوميست البريطانية تزايد أعداد أئمة المسلمين ممن ولدوا وتدربوا على الإمامة في بريطانيا، بمنزلة جزء من تحول الإسلام في تلك الدولة الأوروبية من دين مهاجر إلى متوطن. ورصدت المجلة تجمّع ستة آلاف رجل وامرأة من المسلمين كل أسبوع في أحد مساجد حي وايت تشابل شرقي لندن، لأداء صلاة الجمعة التي يخطب فيها أئمة هذا المسجد بثلاث لغات مختلفة؛ لإفهام المصلين من مختلف الجنسيات.

(الأهرام: ٢٠١٣/٤/١٦)

بعثة تنصيرية في مخيم الزعتري بالأردن

كشفت تقارير صحافية عن تنكّر بعثات تنصيرية بصفة هيئة سياسية للدخول لمخيم الزعتري للاجئين السوريين في الأردن، بذريعة مراقبة أوضاع المخيم عن قرب ومتابعة أحوال اللاجئين.

وقال أحد اللاجئين إن «٦ أشخاص (٤ نساء ورجلان) من الجنسية الآسيوية دخلوا المخيم كانوا يتعمّدون التفرُّد ببعض اللاجئين جانباً حاملين كتباً تنصيرية».

وبحسب المصدر، فإن هؤلاء الآسيويين «لوحظ من خلال الكلام معهم أنهم يناقشون تلك العائلة على أساس اختصاص نفسي، وعند التجاوب معهم يفتحون الكتاب ويشرحونه لهم ويقدمون المساعدة»، لافتاً إلى أنهم «يعدون بمساعدات كبيرة جداً فيما لو اعتنقوا «المسيحية» أو اقتربوا من ذلك فكرياً».

يشار إلى أن مخيم «الزعتري» للاجئين السوريين في الأردن يضم نحو ١٦٢ ألف لاجئ ولاجئة سورية.

(مفكرة الإسلام: ٢٠١٣/٤/١٧)

علامة تعجب

٥٥ ٪ من الإسرائيليين يؤيِّدون الزواج المثلي

أظهرت نتائج استطلاع أجراه معهد «فانلس» للأبحاث والدراسات بطلب من القناة الثانية، أن ٥٥٪ من الإسرائيليين يؤيدون الزواج المثلي، بينما ٣٨,٤٪ ممن تم استطلاع آرائهم عبر الإنترنت لا يؤيدون ذلك الزواج.

وبحسب نتائج الاستطلاع، فإن ٧٦٪ ممن شملتهم العينة والذين يؤيدون الزواج المثلي، هم من العلمانيين، في حين أن ٩٪ فقط من المتدينين قالوا يجب المصادقة أو السماح بالزواج المثلي في «إسرائيل».

وحول إمكانية زواج الذكور بعضهم من بعض في إطار الحاخامية وبزواج يهودي، فقد عارض ذلك ٥٩,٦٪ منهم، في حين وافق على ذلك نحو ما يقارب ٢٥٪، بينما لم يجد المستطلع إجابة لدى ما يقارب من ١٤٪.

يذكر أن هذا الاستطلاع جاء برغبة من القناة الثانية بعد مصادقة فرنسا الأسبوع الماضي على قانون يقضي بالسماح للزواج المثلي، مشيرة إلى أن الاستطلاع جاء من أجل معرفة ما هي إمكانية قبول الجمهور الإسرائيلي قانوناً كهذا.

تقرير معلومات عن الجيش الإسرائيلي (٢٠٠٠ - ٢٠١٢)

أصدر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات في بيروت، كتاباً جديداً يسلّط الضوء على الجيش الإسرائيلي في الفترة ٢٠٠٠-٢٠١٢، ويعرض الكتاب نشأة الجيش الإسرائيلي وهيكليته وأنواع الأسلحة.

وذكر حقائق عن الجيش الإسرائيلي، مثل:

- يرجع تأسيس الجيش الإسرائيلي إلى ١٩٤٨/٥/٢٦، أي بعد إعلان قيام «إسرائيل» بـ ١٢ يوماً.
- الخدمة العسكرية تعد إلزامية لكل يهودي، من سن ١٨-٥٥ عاماً، وكل أنثى من ١٨-٣٨ عاماً.
- المرأة شكلت ٣٤٪ من مجمل عدد الجنود في الجيش الإسرائيلي وفق إحصائيات لسنة ٢٠١٠.
- احتلت «إسرائيل» المركز الرابع في قائمة الدول المصدرة للأسلحة في العالم في سنة ٢٠١٠.
- تقدر الصحفية منى أبو شحادة، وهي من فلسطينيي ١٩٤٨، عدد فلسطينيي ١٩٤٨ الذين يخدمون في الجيش الإسرائيلي، بما بين أربعة وخمسة آلاف.

وجاء في بداية التقرير أن هدف الجيش الإسرائيلي هو «حماية وجود دولة إسرائيل وحماية استقلالها وإحباط جميع جهود العدو لتشويش سير الحياة الطبيعية فيها».

ويتناول القسم الأول من التقرير عرضاً لتأسيس الجيش الإسرائيلي وأهدافه ومقدمات ولادته. ويتحدث القسم الثاني عن الوحدات والتشكيلات العسكرية في الجيش الإسرائيلي، وهي (قيادة المنطقة الشمالية، وقيادة المنطقة الجنوبية، وقيادة الجبهة الداخلية، والقيادة الوسطى)، وهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، وتتألف من عدة أجنحة. ويبيّن تقسيمات أسلحة الجيش الإسرائيلي من سلاح الجو وقوات المشاة وسلاح وقوات البحرية، ثم يعرّج على الخدمة الإلزامية في الجيش الإسرائيلي ودور المرأة فيه والأزمات، ومنها: (التهرب من التجنيد، والانتحار، وتقليص الخدمة الإلزامية، ودور الدين والدروز)، وكذلك يتعرض للتحديات والمشاكل العامة التي يواجهها الجيش الإسرائيلي، مثل:

أولاً: ضعف العمق الاستراتيجي.

ثانياً: تراجع قوة الردع.

ثالثاً: اختلال استراتيجية نقل المعركة إلى أرض العدو.

رابعاً: الفساد المالي والأخلاقي والسياسي.

خامساً: التغيّرات في البيئة المحيطة سياسياً وعسكرياً.

وكذلك يشير التقرير للمناورات العسكرية الداخلية، والمناورات العسكرية المشتركة مع الدول الأخرى، وتسلّح الجيش الإسرائيلي وتطوره.

ويعرض القسم الثالث للعلاقة الإسرائيلية العسكرية الخارجية، وأبرزها الولايات المتحدة الأمريكية، إضافة إلى أبرز الدول ذات العلاقة العسكرية مع إسرائيل؛ كفرنسا وبريطانيا.

وجاء في خاتمة البحث ما يلي: مما لا شك فيه أن قيام الدولة العبرية جراء عمل استحلالي عسكري لا يستند إلى حقوق تاريخية أو مسار تاريخي، قد انعكس على طبيعة الكيان، وبالتالي على طبيعة وهيكلية وأهداف وتركيبة الجيش الإسرائيلي؛ فالجيش الإسرائيلي الذي دأب على تصنيف أغلب الجيوش العربية على أنها «جيوش معادية» مما حتم عليه أن يبحث دائماً عن مصادر دعم خارجية تكون كفيلة لجعله الأقوى من حيث التسلح والكفاءة القتالية بين جيوش المنطقة.

وأصبح الكيان الإسرائيلي عموماً، والجيش الإسرائيلي خصوصاً، أكثر تأثراً وحذراً من جراء ثورات الربيع العربي، فالموقف المصري بعد انهيار حسني مبارك صار داعماً لقوى المقاومة في مفاوضتها لإقرار اتفاق التهدئة بعد العدوان على غزة سنة ٢٠١٢، وباتت القيادة العسكرية تعيش حالة من التخوف والترقب على جبهة الجولان من جراء الأحداث الواقعة في سورية منذ سنة ٢٠١١.

في ضوء ما تقدم، يبدو أن الجيش الإسرائيلي سيظل يتأثر بالظروف السياسية الداخلية وطبيعة المجتمع الإسرائيلي، كما أن التفوق العسكري في ضوء تنامي قوى المقاومة وتحولات البيئة الاستراتيجية المحيطة بإسرائيل؛ أصبح موضع شك، وهو ما يدخل المؤسسة الإسرائيلية في مسارات غير مستقرة وغير واضحة المعالم قد يكون لها تأثير كبير في طبيعة ومستقبل الدولة العبرية.

مرصد الأرقام

كشف رئيس المركز السعودي للدراسات والأبحاث عن أن السعوديين أنفقوا ١٠ مليارات ريال على شراء الهواتف المحمولة، مشيراً إلى أن المملكة تحتل المركز العاشر عالمياً في حجم الإنفاق على تقنية الاتصالات. وأضاف أن دراسة استقرائية قام بها المركز للعام ٢٠١٢، كشفت عن أن نسبة نمو الاستهلاك في السعودية وصلت إلى ١١,٥٪ بالنسبة للطبقة المتوسطة.

وكان الاتحاد الدولي للاتصالات قد قال في وقت سابق إن عدد مستخدمي الهواتف النقالة حول العالم سيتجاوز عدد السكان الفعلي للكرة الأرضية، وذلك بحلول عام ٢٠١٥. (الشرق)

كشف أحمد لقمان، المدير العام لمنظمة العمل العربية، عن أنه تم تسجيل ما يقرب ٢٠ مليون عاطل عربي عن العمل بسبب الأوضاع السائدة في بعض البلدان العربية من حالة عدم الاستقرار. (الأهرام: ٢٠١٣/٤/٢١)

أعلن الدكتور باسم عودة، وزير التموين والتجارة المصري، اعتماد وزارة المالية ١١ مليار جنيه لتمويل شراء القمح المحلي من المزارعين والتجار. (الأهرام: ٢٠١٣/٤/٢١)

عدد جنود جيش الاحتلال الذين قتلوا خلال المعارك والحروب التي خاضها جيش الاحتلال منذ ما يسمى قيام «دولة إسرائيل» على الأراضي الفلسطينية المحتلة؛ ٢٥,٥٨٧ قتيل.

(يديعوت أحرنوت: ٢٠١٣/٤/١٤)

ارتفعت حصيلة الضرائب المصرية بنسبة ١٠٨٪ لتصل إلى ١٤٤,٦٧٧ مليار جنيه في التسعة أشهر الأولى من العام المالي ٢٠١٢ - ٢٠١٣ مقابل ١٣٣,٩ مليار لنفس الفترة في العام السابق.

(الشروق: ٢٠١٣/٤/١٥)

تغريدات

د. عائض القرني

@ Dr_alqarnee

من يطالع كتاب (منهاج السنة) لابن تيمية يظن أنه كتبه الآن كاشفاً خطط الصفويين المجوس وحزب اللات.

ياسر الزعاترة

@YZaatreh

المالكي يعلّق عمل ١٠ قنوات فضائية في العراق. هل يعتقد أنه سيستفرد بالمحتجين على إجرامه وطائفيته؟ تفكير عبثي في زمن الفضاء المفتوح.

صالح النعامي

@salehelnaami

الحاخام بارلي: حروبنا ضد العرب حوّلت الأرض من قوة الشيطان إلى المجال الإلهي. ويقول الحاخام ميديا: الحروب تطهر الأرض من الشر والفساد.

عبدالعزيز الطريفي

@ abdulaziztarefe

ضربت الذلة على كثير من المسلمين وهم كالسيل؛ لأنهم خالفوا أمر الله فهانوا عنده فوهنهم عند عدوهم.

د. محمد يسري إبراهيم

@Drmohamad Yousri

نعوذ بالله من زمن أصبح فيه الكذب ديناً يتلقاه الأصاغر عن الأكابر.

د. خير الله طالب

@Khairallah Taleb

موعدنا مع النصر في دمشق؛ بحسب انتصار الحق في قلوبنا، وقيام العدالة في بيوتنا.

مسلمو سيريلانكا.. بين الاضطهاد الطائفي والقهر السياسي

د. أحمد محمود السيد(*)
mr.ah54@hotmail.com

تقع جزيرة سيريلانكا جنوب قارة آسيا في المحيط الهندي، وإلى جنوب شبه جزيرة الهند، ويفصل بينها مضيق «بالك».. عرفها العرب باسم سرنديب، وكانت إحدى الجزر التي وصلتها سفن العرب في تجارتهم مع الشرق الأقصى، فلقد قاموا برحلات تجارية إلى الجزيرة قبل الإسلام وبعده، ثم أطلق عليها «سيلان».

وصل الإسلام سيريلانكا مبكراً في نهاية القرن الهجري الأول وبداية القرن الثاني، وظلت تحت الاحتلال البريطاني من عام ١٧٠٦م إلى عام ١٩٤٨م، حيث نالت استقلالها وتغيّر اسمها إلى سيريلانكا في عام ١٩٧٢م.. يَبلغ عدد سكانها ٢٠ مليون نسمة، ويُشكِّل المسلمون منهم ١٠ في المائة (وفقاً للإحصائية التي تمَّ إجراؤها في عام ٢٠١٢).. ينتمي سكان سيريلانكا إلى أجناس مختلفة، أبرزها: العناصر السنهالية، وتشكل أكثر من ثلث السكان، وإلى جانبهم جماعات التاميل، وينقسمون إلى جماعتين: تاميل من الهند، وتاميل سيلان، ثم أقليات من المور والماليزيين والإندونيسيين، وهناك عناصر درافيدية قديمة. واللغة الرسمية في سيلان هي السنهالية (لغة أغلبية السكان)، وإلى جانبها لغة التاميل، ويتحدثها ربع السكان، هذا إلى جانب اللغة الإنجليزية.

يوجد الإسلام وسط محيط من الأديان المختلفة، فيدين بالبوذية ثلثا السكان «٦٤٪»، وإلى جانبهم أقلية هندوسية «٢٠٪»، ثم أقلية مسيحية «٥٪»، وهكذا تعيش الأقلية المسلمة وسط هذا الخليط، إلا أن المسلمين أقوى الأقليات، فعددهم نحو ٢ مليون نسمة، ويتركز المسلمون في النطاق الشرقي من سيريلانكا، وفي المدن المهمة.

وصول الإسلام إلى هذه المنطقة ارتبط بوصوله إلى الهند وجزر إندونيسيا، فلقد كان العرب على صلة تجارية بجزيرة سرنديب قبل ظهور الإسلام، وكان طبيعيّاً أن يصل التجار العرب المسلمون إليها خلال القرن الهجري الأول، غير أن الانتشار الفعلي للإسلام في جزيرة سيلان بدأ بنهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني، حيث انتشر الإسلام في سواحل الجزيرة، ثم وفد إلى الجزيرة مسلمون من التاميل الهنود، ومسلمون من الملايو وإندونيسيا، ولقد اتخذ ملوك جزيرة سيلان مستشارين لهم من العرب والمسلمين في فترات سابقة على الاستعمار الأوروبي.

لقد تُرجمت معاني القرآن الكريم إلى اللغتين: السنهالية، ولغة التاميل، وقامت بالترجمة منظمات إسلامية بسيريلانكا. ويطبق المسلمون الشريعة الإسلامية في معاملاتهم. ويوجد نحو ٥٠٠ مدرسة ابتدائية إسلامية تخضع لإشراف حكومة البلاد، وهناك نوع من المدارس تفتح أبوابها لأبناء المسلمين يوم الأحد حيث العطلة الأسبوعية، وتسمى «المدارس الأحدية»، أسستها جمعية إسلامية لتعليم أبناء المسلمين مبادئ الدين الإسلامي وحفظ القرآن الكريم، وتدرَّس بها علوم الدين باللغة العربية في العاصمة، وهناك كلية السيدات المسلمات في مدينة كليليا، كما توجد كلية الزاهرة في مدينة كولمبو، وتأسست سنة ١٣١٠هـ، وجامعة كيلانيا للدراسات الإسلامية؛ وتخضع هذه المؤسسات التعليمية لإشراف الدولة، ويُعيَّن خريجوها للتدريس في المدارس الابتدائية الإسلامية، ومدارس الأيتام، وتوجد مدارس تحفيظ القرآن الكريم، ودار للثقافة الإسلامية، ومكتبة إسلامية، وهناك جامعة الفلاح في كاتانكودي في شرق البلاد، ومشروع الكلية العربية في مدينة كينيا. وهناك عدد من الجمعيات الإسلامية يبلغ عددها نحو ٣٨، بين هيئة وجماعة ومؤسسة، منها الجماعة المسلمة، وجمعية أنصار السنة، وجماعة التبليغ، وجمعية الشبان المسلمين، ومن الجمعيات الإسلامية جمعية ندوة البخاري، والجماعة الإسلامية، وجمعية الأمين، هذا إلى جانب عدد من الجمعيات الخيرية. وللمسلمين ثلاث صحف تصدر شهرياً، وهناك حزب سياسي إسلامي تشكل في سنة ١٩٨١م، وهو حزب المؤتمر الإسلامي السيريلانكي في مدينة كولمبو.

ويمكن حصر مشاكل المسلمين فيما يلي: المشاكل الطائفية، نشاط القديانية، نشاط البهائية، طائفة إنكار الحديث النبوي الشريف، وظهرت هذه الطائفة حديثاً، وتصدر مجلة شهرية.. وعداء تيارات أخرى كالشيوعية، والماسونية، والحرب الأهلية الحالية وما يقوم به ثوار نمور التاميل من مذابح.

أهم النشاطات العدائية لهم في الوقت الحالي تتمركز في: ١- محاربة علامة «حلال» الصادرة من قبل «جمعية علماء سيريلانكا». ٢- محاربة تجار المسلمين وضرب اقتصادهم. ٣- تخويف الأغلبية البوذية من تكاثر المسلمين وانتشارهم وبناء المساجد الجديدة، وبأن سيريلانكا ستكون دولة مسلمة بعد عام ٢٠٢٥ - ٢٠٣٠م. ٤- محاربة الزي المدرسي المحتشم لبنات المسلمين، وإجبارهن على الزي المدرسي العادي القصير. ٥- محاربة العباءة السوداء والنقاب، وإجبار المسلمات على اللباس التقليدي. ٦- نشر المعلومات غير الصحيحة عن الإسلام والقرآن، وعن النبي الكريم ﷺ؛ لتأليب البوذية ضد الإسلام.. وغيرها.

أهم المصادر:

- موقع السي آي إيه.
- موقع الإسلام.
- موقع مجلة المجتمع.

(*) مدير وحدة بحوث العالم الإسلامي في المركز العربي للدراسات الإنسانية.

كيف اغتال الجيش الصهيوني الشهيد الجعبري؟

■ د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com
@adnanabuamer1

بعد خمسة أشهر على جريمة اغتيال قائد الجناح العسكري لحركة حماس، أحمد الجعبري، بدأ الكشف التدريجي عن اللحظات القليلة التي سبقت القرار، لا سيما أنه لم يخطر في بال جهاز "الشاباك"، الذي أدار الضربة الافتتاحية للحرب الأخيرة على غزة، وجوهرها اغتيال الجعبري؛ أن يكون تأثيره هامشياً على أداء الذراع العسكرية للحركة، رغم أن ما توقعته الأذرع الأمنية الأخرى تجاوز الضربة المعنوية، بأن يكون الوزن النوعي للضربة أثقل وأبعد مدى.

وبعد ٥ شهور على الاغتيال، يتبيّن أن كل ما فعلته "إسرائيل" هو تصفية الحساب مع الرجل المسؤول عن قتل يهود، وخطط لعمليات، وأركعهـا في صفقة التبادل، والتغيير الجوهـري الوحيد الذي طرأ على غزة ليس في القوة العسكرية لحماس، بل في حافزها على فتح الجبهة مع "إسرائيل".

وقد تمت عملية التصفية بقرار مباشـر من قائد الجيش، "بيني غانتس"، الذي أعلن بدء عملية "عمود السـحاب" بعد دقائق معدودة فقط، مما اعتبرهـا "إحراز صورة النصر"، وهـي اغتيال المطلوب رقـم ١، الجعبري ٥٢ عاماً، الذي وقـف على رأس قائمة الأهداف، واسـتُعملت حوله جميع القدرات، وأُعلن قبل سـنتين أنه الهدف ذو التفضيل الأعلى، وانتظر الجيش فقط الوقت المناسب والموافقة.

بل إن من "حافظ" عليه حياً، ومنع اغتياله، هو الجندي "شاليط" فقط؛ لأنه اعتبر المسـؤول عن اختطافه واحتجازه أسيراً ٥ سنوات، وطول تلك المدة امتنع الجيش عن المسّ به؛ خشية على حياة الجندي، لكن كان واضحاً أن حصانته ستزول منذ لحظة الإفراج عن الأخير.

تعقب الجيش

لقد علم الجعبري أنه يحيا في زمن مستعار، ونجا في الماضي من اغتيال، لكنه كان عالماً جيداً بأن الجيش يتعقبه، وسلك سـلوك مطلوب على نحو قاطع، فسكن عدة بيوت، ولم يسـافر وحده في سـيارة، بل بجانب ناس اعتمـد عليهم فقط، ولم يخرج لتناول الطعام في المطاعـم، بل جيء بالطعام لبيتـه، واعتمد على حلقة ضيقة فقط من المساعدين المقربين.

كما صرف وقته لتطوير الذراع العسـكرية، واعتاد أن يُجري لقـاءات عمل مع المسـتويات العليا للذراع، ويصل لمواقـع ميدانية، ويراقب التدريبات، واجتهد كي لا يخرج في جولات كثيرة؛ لأنه علم أن الجيش يتعقبه، وفي لقاءات كثيرة كان كبار مسؤولي الذراع الذين يأتون إليه؛ كي لا يضطر للخروج إليهم، والكشف عن نفسه.

(*) كاتب فلسطيني.

أكثر مـــن ذلك، فلم يكـــن الجعبري فقـــط رئيس أركان حماس، بل يقع في الوسط بين المستويين العسكري والسياسي للحركة، وتحكم جيداً جداً بالذراع العسكرية، وذو صلة بالقيادة السياســـية؛ لأن هاتين الذراعين غير مفصولتين بعضهما عن بعض.

وفي الـ ٤٨ ســـاعة الأولى للحـــرب الأخيرة، بُذلت جميع الجهود الاســـتخبارية للبحث عن فرصة اغتياله، أو مسؤولين كبـــار آخرين من قـــادة ألوية في الذراع العســـكرية لحماس، وحين جاء سؤال الحكومة في تل أبيب: كيف يمكن أن نفاجئ حماس؟ كان اســـم الجعبري علـــى الطاولة! حيث عُرض على قسم البحث سؤالان:

١ - كيف سترد حماس على الاغتيال.. هل تطلق صواريخ على "تل أبيب"، أم تستمر في نفس المدى؟

٢ - كيف سيؤثر اغتيال الجعبري في الحركة في أمد بعيد؟

ولذلك؛ فقـــد عرضت أجهزة الاســـتخبارات الصهيونية عدداً من سيناريوهات الرد المحتملة من حماس اشتملت على إطـــلاق صواريخ على مركز الكيان، وهنا بحث الجيش "الكلفة مقابل الفائـــدة"، لكن من رجح كفة الاغتيـــال عملية القضاء على مخزونات القذائف الصاروخية بعيدة المدى لحماس التي خُطـــط لتنفيذها بعد اغتيال الجعبـــري فوراً، والاعتماد على قدرات منظومة "القبة الحديدية".

الســـؤال الثاني إجابتـــه أكثر تعقيـــداً، فالجعبري عامل مهـــم جداً في حماس، لكنها تســـتطيع أن تواجه غيابه، ومنذ اغتيال زعيميها أحمد ياســـين والرنتيسي، أدركت عدم وجود كل شيء في يد إنســـان واحد، وأصبحت البنية الحاكمة شبه هرم مقطـــوع الرأس ليس طرفه الأعلى شـــخصاً واحداً، بل ٤-٥ من كبار المسؤولين، لكن التقدير أن اغتياله سيتسبّب في زعزعة شديدة، وشـــعور بالتغلغل الاستخباري، وتجديد الردع الذي ضاع بعد "الرصاص المصبوب" ٢٠٠٨.

التخطيط العملياتي

في الســـياق ذاته، فإن مســـؤولاً رفيع المستوى في هيئة القيادة العامة الصهيونية مطلعاً على تدبيرات التخطيط، قال إنـــه حينما بدأ التباحث في العملية لم يظهر اســـم الجعبري باعتباره هدفاً للعمليات، لكن رئيس هيئة الأركان كان يحتاج لـ "ضربة افتتاحية"، قاصداً ٢-٣ من كبار المســـؤولين في الرتب الميدانية، ولذلك جاءت توصية "الشاباك" بأن تكون ضربة بدء عملية عمود الســـحاب هي اغتيال الجعبري، والتزم بأن يقدم جميع المعلومات المطلوبة لإنشاء صورة استخبارية دقيقة كاملة تفضي لاغتياله الناجح، مع أقل عدد من المصابين من الأبرياء، ومعلومات جُمعت مدة ســـنين، وتم الحصول عليها في الوقت الحقيقي.

وفي الجلســـة المغلقة ظهر لأول مرة اسم الجعبري، وذكر المصطلح المســـتعمل لاغتيالـــه "إصابة دامغـــة"، فتم تضييق الخنـــاق حول الحلقـــات المتصلة بـــه؛ العائلة والمســـاعدين المقربين والمســـاعدين البعيدين وكبار المســـؤولين في الحركة ورجـــال الارتباط؛ لا يمكن العلم في أي دائرة توجد التفصيلة الاســـتخبارية التي تجعله مستهدفاً؛ لأنه اعتاد دائماً أن يُبدل مســـاعديه والســـيارات والبيوت، ولم ينم مرة واحدة أكثر من ليلة واحدة في نفس المكان.

ولذلك؛ فقـــد اختار الجيش العناصـــر المكلفة بالاغتيال بحرص على حسب مستوى أهليتهم، ولم يترك شيئاً للصدفة، ولم يثر احتمال الفشل؛ لمعرفته العميقة بالتقنيات والقدرات.

وهكذا أدرك الجيش أن الخناق حول الجعبري بدأ يضيق، وعلـــم أن "اليوم هو اليوم"، حيث تقاطعـــت جميع المعلومات، وبدأ "يحاصره"، ويدرك أين يوجد ولماذا، ومتى سيكون هناك، ومع كم من الناس، وفي غضون ســـاعات قليلة أصبح بيقين، وعلم أي مبنى سيدخل، ويجب الآن فقط أن ينتظر كي يخطئ ويخرج.

وفيمـــا كان يتابع رئيس هيئـــة الأركان ما يجري على أرض غـــزة من مكتبـــه في الطابق ١٤ فـــي قيادة الجيش بتل أبيب، عبر شاشـــتين تبثان الصور المرسلة من الطائرة الاســـتخبارية، ويرى في الوقت المناسب البيت الذي يوجد فيه الجعبري، بحســـب المعلومات الاستخبارية؛ تجلت ذروة التمويـــه الأمني ضد حماس، في حـــين كان رئيس الوزراء "بنيامين نتنياهو" ووزير الحرب" إيهود باراك" في جولة على الحدود الشمالية والجولان، وفي إطار صرف الذهن تقرر عدم إلغاء الجولة، كما بقي قائد سلاح الجو في واشنطن، وقرر "غانتس" إبقـــاءه هناك وعدم عودته بصورة مفاجئة؛ لئلا يلفت أنظار حماس!

ابن حبيب وتأسيس المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي

«الواضحة نموذجاً»

د. نورالدين بوكرديد(*)

مقدمة

لقد بلغ ابن حبيب مرتبة الاجتهاد المذهبي وسادت آراؤه الفقهية الأندلس والمشرق، ولقي تراثه الفقهـي إقبالاً وتقديراً عنـد عامة الناس، وترك أثـراً واضحاً في حركة الفقـه المالكي وتطويره عبر العصـور.. فمن هو العلامة ابن حبيب؟ وما التأثير الذي تركه بآرائه ومؤلفاته في رواد الفقه المالكي؟ وما أثر مؤلفاته على حركة الفقه المالكي وتطويره؟

(*) أستاذ في الجامعة الإسلامية بالنيجر.

المبحث الأول: التعريف بابن حبيب

المطلب الأول: الحياة الشخصية

الفرع الأول: مولده ونسبه ونشأته

هو الإمام أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس بن مرداس، السلمي، القرطبي، المالكي، الأندلسي.. لُقِّب بالفقيه الكبير وعالم الأندلس وعالم الدنيا.. ولد سنة ١٧٠هـ، وقيل ١٧٤هـ.. نشأ في القرية التي ولد فيها، وهي البيرة، وكان أبوه يعصر الأدهان ويستخرجها ويقوت عياله منها، ولم يلتفت في حياته إلى ملذات الدنيا وشهواتها[١].

(١) تاريخ علماء الأندلس لابن الفارض: ١\٢١٢، ترتيب المدارك للقاضي عياض: ٢\٣٠، معجم البلدان لياقوت الحموي: ١\ ١٩٦، الديباج المذهب لابن فرحون: ص\١٥٤، الأعلام للزركلي: ٤\ ١٥٧.

الفرع الثاني: وفاته

توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٣٨هـ، وقيل سنة ٢٣٩هـ، وقيل ٢٣٧هـ، وقد صلى عليه ابنه يحيى، وقيل ابنه محمد، وقيل صلى عليه القاضي أحمد بن زياد، ودُفن في قرطبة بمقبرة أم سلمة في قبلة مسجد الضيافة ورثاه عدد كبير من الشعراء[٢].

المطلب الثاني: الحياة العلمية

الفرع الأول: شيوخه وتلامذته

أولاً: شيوخه

أخذ ابن حبيب العلم عن أكابر أصحاب مالك، وقيل إنه لقي مالكاً – رحمه الله تعالى – في آخر عمره، ومن أهم شيوخه:

١- مالك بن أنس: هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وهو أشهر من أن نترجم له.

٢- ابن الماجشون: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون التيمي، فارسي الأصل، والماجشون لقب جده أبي سلمة، كان فقيهاً مالكياً فصيحاً، دارت عليه الفتيا في أيامه بالمدينة، توفي سنة ٢١٢هـ[٣].

٣- ابن عبد الحكم: هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث، فقيه مصري من أجلِّ أصحاب مالك، وكان صديقاً للشافعي.. من مصنفاته: المختصر الكبير، وسيرة ابن عبد العزيز، والمناسك، توفي سنة ٢١٤هـ[٤].

٤- أصبغ: هو أصبغ بن الفرج بن سعد بن نافع مولى عبد العزيز بن مروان، من أهل الفسطاط، فقيه من كبار المالكية بمصر، من تصانيفه: الأصول، وتفسير غريب الموطأ، توفي سنة ٢٢٥هـ[٥].

ثانياً: تلامذته

لابن حبيب – رحمه الله تعالى – من التلاميذ جمع كبير، منهم:

١- محمد فطيس: هو أبو عبد الله محمد بن فطيس بن واصل الغامقي البيري المتوفى سنة ٣١٩هـ[٦].

٢- مطرف بن عبد الرحمن بن إبراهيم القرطبي يكنى أبا سعيد المتوفى سنة ٢٨٢هـ[٧].

(٢) نفح الطيب للتلمساني: ٢\٧، تذكرة الحفاظ للذهبي: ٢\٥٣٧، شجرة النور الزكية لابن قاسم مخلوف: ١\١١٢، شذرات الذهب: ابن العماد: ٢\٩٠.
(٣) الديباج المذهب: ص٢٥٢، الأعلام: ٤\٣٠٥، شجرة النور الزكية: ص٨٥.
(٤) الديباج المذهب: ص٢١٧، الأعلام: ٧\٢٧٢، ترتيب المدارك: ٢\٥٢٣.
(٥) الديباج المذهب: ص١٥٨، الأعلام: ١\٣٣٦، ترتيب المدارك: ٢\٥٦٢.
(٦) تذكرة الحفاظ للذهبي: ٣\٨٠٢، تاريخ علماء الأندلس: ٢\٤٠.
(٧) بغية الوعاة للسيوطي: ص٣٩٢، الأعلام: ٧\٢٥٠.

الفرع الثاني: أهم آثاره ومناقبه

أولاً: أهم آثاره

من أهم مؤلفاتــه في ميدان الفقه الإســلامي ما يلي[1]: الواضحة: سيأتي الكلام عنه لاحقاً، الفرائض، كراهية الغناء، الجامع من مناسك النبي ﷺ، كتاب الربا، الرُّهون، والحدثان.

ثانياً: مناقبه

قال عنه ابن عبد البر: كان جماعاً للعلم، كثير الكتب، طويل اللســان، فقيه البدن، نحوياً عروضياً شــاعراً، نسابة إخبارياً، وقال نحوه ابن غلبون[2].

المبحث الثاني: تأثير ابن حبيب في رواد الفقه المالكي

يمكن عزو تأثير ابن حبيب على الحركة الفقهية المالكية إلى عاملين أساسين[3]:

العامــل الأول: إن جميع فقهاء المذهب المالكي الذين جاؤوا بعد ابن حبيب اعتمدوا أقوالــه واجتهاداته الفقهية وضمَّنوها مؤلفاتهم، واستشــهدوا بها، ما يدل علــى المكانة الفقهية التي حظي بها في تاريخ الفقه المالكي.

العامل الثانــي: نظراً للمكانة التي حظــي بها فقد جعله علماء المذهب محل ثقة فيمــا نقله بإخلاص وأمانة من أقوال الإمــام مالك، كما كانت مؤلفاته التي تداولها العلماء جيلاً بعد جيل شاهداً على الثقة.

إن تأثيــر ابن حبيب في تلامذته ومعاصريه كان ســبباً في أن يلقّــب بألقاب مختلفة كلها تشــهد بقيمته ومزاياه، ومن هذه الألقاب: (فقيــه الأندلس)، (عالم الدنيــا)، وهي ألقاب حميدة لا يتصــف بها إلا مــن حباه الله بالعلم. والســبب في ذلك تنوع اختصاصات ابن حبيب ومشــاركته في جميع العلوم التي جعلت منه رجلاً ذا تأثير قوي وكبير في تلاميذه ومعاصريه، فقد راحوا ينشــرون علمه ومؤلفاته في مصر والعراق والحجاز، وانتشــرت الواضحة شــرقاً وغرباً وتداولها الناس بعده بالدرس والاختصار والرواية عبر قرون عديدة، وذلك لاحتوائها على علم غزير[4].

كما كان له تأثير كبير في رواد الحركة الفقهية المالكية، حيث نجد معظم الذين جاؤوا بعده ينقلون عنه، ويستدلون باختياراته واجتهاداته في الفقه، وهنا ســأذكر بعض فقهاء المذهب الذين لهم وزنهم وتأثروا به في اجتهاداتهم ومؤلفاتهم، بداية من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري:

١- الخشني (ت ٣٦١هـ): هو أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشــني، من أهم مؤلفاته الفقهية التي ضمَّنها آراء ابن حبيب وفتاويه، كتاب أصــول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك[5].

٢- ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٦٨هـ): هو أبو محمد عبد اللــه ابن أبي زيد القيروانــي، كان إمام المالكية في وقته، وكان يلقب بمالك الصغير، مــن مؤلفاته: النوادر والزيادات، وكذلك كتابه الجامع، حيث اعتمد كثيراً في كتابيه على آراء ابن حبيب من خلال الواضحة[6].

٣- ابن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ): هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين القرطبي، من مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، أخذ عن ابن حبيب كثيراً من أقواله[7].

٤- ابن يونس (ت ٤٥١هـ): هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمــي، الحافظ النظار، من مؤلفاته كتابه الجامع الذي ضمَّنه أقوال وآراء ابن حبيب في الفقه[8].

٥- ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ): هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عاصم النمري حافظ المغرب محمد بن عبد البر، انتقد ابن حبيب، ولكنه نقل عنه وعن كتابه الواضحة كثيراً[9].

٦- أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ): هو سليمان بن خلف بن ســعد بن أيوب بن وارث بن الوليد الباجي الأندلسي القرطبي، مــن مؤلفاته المنتقــى الذي حــوى مجموعة مــن اختيارات واجتهادات ابن حبيب في الفقه[10].

٧- القاضــي المالقي (ت ٤٩٧هـ): هو أبــو المطرف عبد الرحمن بن قاســم الشــعبي المالقي، نســبة إلى مالقة جزيرة بالأندلس، من مؤلفاته كتاب الأحكام الذي اعتمد فيه آراء ابن حبيب وأقواله[11].

٨- ابن رشد (ت ٥٢٠هـ): هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشــد القرطبي صاحب البيان والتحصيل والمقدمات الممهدات، واعتمد في هذيــن الكتابين خصوصاً على آراء ابن حبيب في الاستدلال[12].

---

(١) الديباج المذهب: ص٢٥٥، تاريخ علماء الأندلس: ٢\٣١٣، الأعلام: ٤\١٥٧.
(٢) ترتيب المدارك: ٢\٣٣-٣٤-٣٥.
(٣) مواهب الجليل للحطاب: ١\٣٥.
(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص٢٤٨.
(٥) المدارك: ٧\٢٦٦، بغية الملتمس: ص ٧١.
(٦) المدارك: ٧\٢١٥، شجرة النور الزكية: ص٩٦.
(٧) بغية الملتمس: ص٧٧، شجرة النور الزكية: ص ١١١.
(٨) مواهب الجليل: ١\٣٥، شجرة النور الزكية: ص ١١١.
(٩) شجرة النور الزكية: ص ١١٩.
(١٠) طبقات الحفاظ: ص ٣٩-٤٠.
(١١) الصلة لابن بشكوال: ١\٣٢٩.
(١٢) شجرة النور الزكية: ص ١٢٩.

٩- ابن العربي (ت ٥٤٣هـ): هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافري المالكي الأندلسي، أخذ كثيراً عن ابن حبيب في مؤلفاته[١].

١٠- القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ): هو عياض بن موسى اليحصبي السبتي، تأثر في منهجه الفقهي بابن حبيب وأورد آراءه في كتبه الفقهية[٢].

١١- القاضي المتيطي (ت ٥٧٠هـ): هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ومتيطة قرية من قرى الأندلس، من مؤلفاته: (النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام)، أخذ كثيراً في هذا الكتاب من آراء ابن حبيب[٣].

١٢- ابن شاس (ت ٦١٠هـ): هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن شاس، من مؤلفاته: الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة، أخذ في كتابه هذا عن ابن حبيب كثيراً[٤].

١٣- ابن جزي (ت ٧٤١هـ): هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي الكلبي، له مؤلفات كثيرة، منها: القوانين الفقهية، عزا فيها كثيراً من المسائل الفقهية إلى اختيارات ابن حبيب[٥].

١٤- خليل بن إسحاق (٧٧٦هـ): هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة، حامل لواء المذهب المالكي في زمانه بمصر، ألف مختصراً في الفقه، المعروف بمختصر خليل، استفاد كثيراً من ابن حبيب[٦].

١٥- ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ): هو برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ أبي الحسن علي بن فرحون المدني، قاضي المدينة المنورة، من مؤلفاته التي أخذ فيها من آراء ابن حبيب في الفقه تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام[٧].

١٦- بهرام (ت ٨٠٥هـ): هو بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عوص قاضي القضاة في مصر، له تأليف مفيد على مختصر خليل اعتمد فيه كثيراً على أقوال ابن حبيب[٨].

١٧- العقباني (ت ٨١١هـ): هو أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني، له تآليف عديدة، منها: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، أخذ فيه بأقوال ابن حبيب كثيراً[٩].

١٨- ابن عاصم (ت ٨٢٩هـ): قاضي الجماعة أبو بكر محمد بن عاصم الغرناطي الفقيه الأصولي، أخذ عن ابن حبيب وتأثر باختياراته الفقهية في كتابه المسمى التحفة، الذي وقع عليه القبول واعتمده العلماء وشرحه جماعة منهم[١٠].

١٩- الونشريسي (ت ٩١٤هـ): هو أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم الفاسي، من مؤلفاته ذات القيمة العالية الفقهية في المذهب المالكي، كتاب المعيار، جمع فيه فتاوى المتقدمين والمتأخرين من فقهاء المذهب المالكي منهم ابن حبيب[١١].

٢٠- الحطاب (ت ٩٥٤هـ): هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المعروف بالحطاب، فقيه مالكي أصله من المغرب، ولد واشتهر بمكة، ومات في ليبيا، من مصنفاته: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، استند في شرحه على كثير من أقوال ابن حبيب[١٢].

من خلال ما ذكرنا يكفينا دلالة على قوة تأثير ابن حبيب فيمن جاء بعده من العلماء الذين نقلوا من كتبه واستفادوا من آرائه واجتهاداته. وريادته للمدرسة المالكية في الأندلس جعلت منه عالماً وهب حياته خدمة للعلم وأهله، ما جعل تلاميذه ومعاصريه ورواد المدرسة المالكية شرقاً وغرباً تأثروا بمنهجه الفقهي ونقلوا أقواله، فلا تجد كتاباً واحداً من كتب المذهب المالكي لا يستدل بقول لابن حبيب[١٣].

المبحث الثالث: أثر مؤلفات ابن حبيب في حركة الفقه المالكي وتطويره

المطلب الأول: قيمة مؤلفات ابن حبيب في تاريخ الفقه المالكي

تعدّ مؤلفات ابن حبيب، وعلى رأسها الواضحة، من أهم وأبرز المؤلفات الفقهية التي اعتمدها مالكية القرن الرابع الهجري والذين جاؤوا بعدهم، فلا نكاد نجد فقيهاً من فقهاء المذهب المالكي انطلاقاً من ابن أبي زيد القيرواني إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري؛ لا ينقل عن ابن حبيب ولا يستدل بفقهه، سواء تعلق الأمر بآرائه الفقهية المبثوثة في مظان كتب المذهب، أو تعلق الأمر بالواضحة نفسها، أو بما أثر عنه من أحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين[١٤].

(١) شجرة النور الزكية: ص ١٣٦.
(٢) الديباج المذهب: ٢\٤٦.
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التمبكتي، ص ٣١٦.
(٤) الجواهر الثمينة في عالم المدينة لابن شاس: ١\٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨.
(٥) شجرة النور الزكية: ص ٢١٣.
(٦) شجرة النور الزكية: ص ٢٢٣.
(٧) شجرة النور الزكية: ص ٢٢٢.
(٨) نيل الابتهاج: ص ١٤٧-١٤٩.
(٩) نيل الابتهاج: ص ١٨٩-١٩٠.
(١٠) شجرة النور الزكية: ص ٢٤٧.
(١١) البهجة للتسولي: ٢\١١٤.
(١٢) توضيح الأحكام للتوزري: ١\٢٠.
(١٣) الديباج المذهب شجرة النور الزكية: ٣٠٤.
(١٤) شجرة النور: ٢\٣٦٥.

ونظـــراً لقيمة مؤلفات ابن حبيب فـــي تاريخ الفقه المالكي خاصـــة وفي تاريـــخ الغرب الإســـلامي عامـــة، فقد حظيت بعناية واهتمام بالغين مـــن طرف العلماء، حيث قاموا بروايتها واختصارها وشـــرحها ونشرها في الأقطار الإسلامية، كمصر والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

ومن الذين تأثروا إلى حـــد كبير بمؤلفات ابن حبيب نجد ابـــن أبي زيد القيرواني الذي جعل كتاب الواضحة مصدراً من مصادر كتابه النوادر والزيادات.

ولقد أصبحـــت مؤلفات ابن حبيب منذ بداية القرن الرابع الهجري إلى وقـــت متأخر، مصدراً ومرجعـــاً لفقهاء المذهب المالكي اعتمدوها وأخذوا بها في مؤلفاتهم[1].

المطلب الثاني: فقه ابن حبيب من خلال الواضحة

عندمـــا يذكر ابن حبيب تذكر معـــه (الواضحة)، لا لكونها كتاباً له من جملة مؤلفاته فقط، بل لكونها كتاباً له وزنه وقيمته الفقهية داخل المذهب المالكي، فالواضحة تشكل إطاراً تطبيقياً لفقـــه ابن حبيب؛ لأنه جمـــع فيها اجتهاداتـــه وآراءه الفقهية ممنهجة ومنسقة بطريقة علمية هادفة.

الفرع الأول: محتوى الواضحة ومصادرها

أولاً: محتوى الواضحة

يحتوي جزء الواضحة الموجود بخزانة القرويين بفاس على ما يلي[2]:

- رغائب الوضوء.
- سنن الوضوء.
- ما يســـتحب من القصد مـــن الوضوء وما يكره من الغلو فيه والسرف.
- العمل في النسيان في الوضوء.
- ما يجوز الوضوء به من الماء وما لا يجوز.
- ما يستحب من السواك عند الوضوء.
- وضوء الجنب إذا أراد النوم وما يجوز للجنب فعله قبل الطهر.
- وضوء من مس القرآن.
- ما يُستحب من العمل في التغوط والتبول.
- ما جاء في الاستنجاء بغير الماء.

هـــذه هي العناوين التي يحتوي عليهـــا جزء الواضحة من مخطوطـــة القرويين، فكلها عناوين تتعلق بالوضوء، ما يفيد أن الجزء الأكبر الخاص ببقيـــة العبادات والمعاملات قد ضاع ولا وجود له.

وهـــذا الجزء عبارة عن رواية الســـماع لأنـــه لا مقدمة له تعرفنا بمضمونه على عادة الأقدمين الذين كانوا قبل أن يكتبوا لا بد أن يقدموا لذلك بمقدمة.

كما أنه لا خاتمة له، ولقد كتب في آخر المخطوط: كمل الجزء الأول بحمـــد الله وعونه، وصلى الله على محمد وســـلم، يتلوه في الثاني وضوء الذي يستنكحه المذي أو البول إن شاء الله تعالى[3].

ثانياً: مصادر الواضحة

من خـــلال الاطلاع علـــى مخطوطة القرويـــين للواضحة، نستشـــف ضمنياً مصادر الكتاب، فابن حبيب استقى معلوماته من فقهاء المذهب المالكي الكبار، ويظهر ذلك في كثرة اســـتدلاله بـــآراء هؤلاء الفقهاء، كما لا ننســـى التأثير الواضح لهؤلاء على حياة ابن حبيب، ويظهر هذا واضحاً في قطعة الواضحة بخزانة القرويـــين، فكثيراً ما يورد ابن حبيب في الواضحة: وحدثني ابن عبد الحكم، وحدثني أسد بن موسى..... ثم يورد استدلالاً آخر في صيغة أخرى: وسمعت ابن الماجشون، وسألت صعصعة.

كما يظهـــر من خلال قطعة الواضحـــة التأثر الكبير لابن حبيـــب بمنهجية الإمام مالك في الموطأ، حيث يوازي الواضحة بالموطأ مـــن خلال عمله بالبلاغات، فكثيـــراً ما يقول: وبلغني عن ابن مســـعود، كما أنه كثيراً ما يستدل بأقوال فقهاء المدينة مـــا يفيد أنه كان متأثراً بعمل أهـــل المدينة أحد مصادر الفقه المالكي، مثل قوله: حدثني عبد العزيز الأويســـي ابن محمد بن الحسن المدنيان[4].

كما يظهر في قطعة الواضحة أن ابن حبيب يبدي آراءه في كثير من القضايا فـــي قوله: والذي يبدو لي، والذي يظهر لي. كما يغلب على قطعة الواضحة اســـتدلال ابن حبيب بالأحاديث النبوية كقوله فيما يستحب من السواك عند الوضوء: إنه حسن مســـتحب مرغوب فيه كان رسول الله ﷺ يستحبه ويرغب فيه ويقول: (لولا أن أشـــق علـــى أمتي لأمرتهم بالســـواك مع كل وضـــوء)[5] حدثني بذلـــك ابن عبد الحكم عـــن ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

كما يســـتدل بأقوال مالك كقولـــه: ولا بأس أن يجلس في المسجد من ليس على وضوء.

كما يستدل بأقوال الصحابة والتابعين، كقوله: «وبلغني عن ابن مســـعود...، وبلغني أن مسلم بن يســـار الجهني وكان من

(١) الصلة لابن بشكوال: ١\٣٣٢.
(٢) الواضحة: ص ٧.
(٣) الواضحة: ص ١٣.
(٤) أخرجه مالك في الموطأ عن أبي هريرة: ١\٥٤، والبخاري في كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم: ٢\٥٩٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) ابن أبي زيد حياته وآثاره: ص ٣٤١.

خيار التابعين كان يقول....»... من خلال ما سبق يمكن القول: إن مصادر الواضحة تتمثل فيما يلي: الكتاب، والسنة، وأقوال مالك، وأقوال الصحابة والتابعين، وأقوال أساتذته.

الفرع الثاني: القيمة الفقهية للواضحة

القيمة الفقهية للواضحة تعدّ كالمدونة بالنسبة للمدرسة الفقهية القيروانية، وكمختصر ابن عبد الحكم بالنسبة للمدرسة الفقهية المصرية، كما كانت المدونة أصل الفقه المالكي في القيروان، فانتفع بها طلاب العلم جيلاً بعد جيل، وانتشرت في الآفاق، وكان لها دور مهم في خدمة فقه المذهب، حيث تكاد تجمع جلّ كتب التراجم والفقه والتاريخ على هذه القيمة، وسنذكر هنا شهادات لبعض العلماء تبين هذه القيمة[1]:

١- قال عنها العتبي: (ومنها الكتب المسماة بالواضحة في السنن والفقه لم ير مثلها).

٢- قال عنها المقري: (الواضحة في مذهب مالك كتاب كبير مفيد).

٣- قال عنها القاضي عياض: (وألف ابن حبيب كتباً كثيرة حساناً في الفقه والتواريخ والأدب، منها الكتب المسماة بالواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه).

إن كتاب الواضحة أكسب ابن حبيب شهرة في الأندلس والمشرق، وكان له فضل كبير في انتشار الحركة العلمية المالكية في الغرب الإسلامي خصوصاً، فتهافت على ابن حبيب تلاميذه بروايتها واختصارها، فعرَّفوا بها وبصاحبها، وشهدوا لها بالفضل، واعتبروها مصدراً من مصادر مؤلفاتهم في المذهب المالكي، ومن هؤلاء: ابن أبي زيد القيرواني، وابن رشد، والباجي، والقرافي، والقاضي عياض[2].

وسنرى فيما يلي أهم الذين اختصروا ورووا الواضحة نظراً لأهميتها في المذهب المالكي[3]:

١- يوسف بن يحيى المغامي (ت ٢٨٨هـ).

٢- عبيد الله ولد ابن حبيب (ت ٢٩١هـ).

٣- محمد بن سعيد بن حكم (ت ٣٠٤هـ).

٤- ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ).

٥- ابن رشد (ت ٥٢٠هـ).

هؤلاء هم الذين اهتموا بمؤلفات ابن حبيب رواية واختصاراً، وخاصة الواضحة، التي شغلت حيزاً مهماً من مؤلفات ابن حبيب وقلَّ أن نجد فقيهاً من فقهاء المالكية لا يأخذ من الواضحة ولا يشير إليها.

(١) المدارك: ٤\١٢٧.
(٢) نفح الطيب: ٣\٧١.
(٣) المقدمة: ص٤٥٠.

فالواضحة إذن من أمهات الفقه المالكي في الأندلس إلى جانب المدونة والموازية والعتبية والمجموعة، حظيت باهتمام وعناية كبيرة من طرف العلماء، اعتمدوا عليها ونقلوا منها ودرّسوها ونشروها في الأقطار، لكن للأسف الشديد ضاع الجزء الأكبر منها ولم يصلنا منها إلا قطعة صغيرة توجد مخطوطة ومرقونة في خزانة القرويين بفاس في المغرب تحت رقم ٨٠٩، (خاص بقسم الوضوء). والسبب في اندثارها وضياعها يعود إلى عامل الزمن، وكذا تهافت الصليبيين على الكتب الإسلامية وسرقتها في الأندلس إبان سقوطها، فالواضحة لم تحرق لأنه ثبت أنها كانت تدرَس إلى حدود القرن التاسع الهجري، هذا ما أفاد به محقق مقدمة ابن خلدون الدكتور علي عبد الواحد وافي، وهو أن ابن خلدون درَّس واضحة ابن حبيب، كما أن القرافي جعل الواضحة مصدر كتابه الذخيرة، وهو من علماء المذهب في القرن السابع والثامن والتاسع الهجري.

خاتمة

يعدّ ابن حبيب مؤسس المدرسة المالكية في الأندلس، والمتصفحُ لكتب الفقه المالكي القديمة منها والحديثة يدرك مدى تأثيره في رواد الفقه المالكي المتقدمين منهم والمتأخرين بآرائه واجتهاداته ومؤلفاته، كما أنه يتميز بمنهج فقهي دقيق مع قدرته على مواكبة عصره، فضلاً عن اتساع أفقه العلمي وتنوع ثقافته وقدرته على تفريع الأحكام من أصولها وفق أصول المذهب المالكي، وكتابه الواضحة في السنن والفقه خير شاهد على كثرة التفريعات التي سبق بها غيره من علماء المذهب المتقدمين، حيث اهتم بها من جاء بعده وكان لها تأثير كبير في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الأندلس خصوصاً، والغرب الإسلامي عموماً، وكان لها أثر طيب ودور كبير في نشر الفقه المالكي في المشرق والمغرب منذ القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا.

ملخص البحث باللغة العربية:

للعلامة ابن حبيب مشاركة كبيرة في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الغرب الإسلامي، فلقد بلغ مرتبة الاجتهاد في المذهب، وسادت آراؤه الفقهية الأندلس والمشرق، ولقي تراثه الفقهي إقبالاً وتقديراً عند الخاص والعام، وتميز بمنهج فقهي دقيق مع قدرته على مواكبة عصره، وترك أثراً واضحاً في حركة الفقه المالكي وتطويره عبر العصور، كما كان له تأثير كبير تركه بآرائه ومؤلفاته في رواد الفقه المالكي، وتعد الواضحة في الفقه والسنن خير شاهد على ذلك.

تدريس العقيدة على طريقة

■ سحر شعير

إن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة هو الغاية التي من أجلها خلق الله الإنس والجنّ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهو الغاية التي أرسل الله من أجلها الرسل أجمعين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهو النعمة الكبرى والمنة التي امتنَّ الله عزّ وجلّ بها على هذه الأمة، فهو سبب سعادة العبد في الدنيا والآخرة.

كما أنه سبب العصمة في الدنيا، فبه يُعصَم دم المسلم وماله ويثبت له عقد الإسلام، لقوله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله"(١) – وهو سبب النجاة في الآخرة من النار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وتحقيق إخلاص العبادة لله تعالى وحده هو الشرط لصحة وقبول سائر الطاعات، كما قال عزّ وجلّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وهو كذلك أول ما يجب أن يُخاطب به الناس من أمور دينهم، وإلى ذلك وجَّه النبي ﷺ معاذ بن جبل عندما أرسله إلى اليمن داعياً إلى الله تعالى، فقال له: "يا معاذ! إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم... الحديث"(٢).

وهو كذلك آخر ما يخرج به العبد من الدنيا بسلام: "من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة"، فهو أول واجب وآخر واجب.

ولما كانت سعادة المؤمنين في الدنيا والآخرة موقوفة على توحيد ربهم، كان أول ما يجب على المكلَّفين أن يعلموه، وأن تحيا به قلوبهم، ومن ثمّ يتخذونه منهاجاً لحياتهم.

وهذه مهمة العلماء والدعاة؛ من خلال الدروس والخطب والتصانيف العلمية، وغيرها من وسائل التعليم والدعوة إلى الله تعالى.

ولما كانت العقول ودرجات الفهم تتفاوت، كان من الصواب أن يقوم الدعاة بتعليم العقيدة للبسطاء على طريقة الربانيين، على وَفق المعنى الذي فسر به ابن عباس هذا الوصف في قول الله تعالى: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] – قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها: الربّاني هو الذي يعلّم الناس بصِغار العلم قبل كِبَاره.

وصغار العلم يعني المسائل الواضحة، فالداعي يبدأ الناس بالكليات الواضحات من المسائل قبل الجزئيات وما غمض من مسائل العلم.

وليس من الحكمة أن يخاطب الدعاةُ الناس في درس

(١) أخرجه البخاري ١٤٠٠، ومسلم ٢٠، واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري ١٤٢٥.

ـــــــة الربانيين

العقيدة بالمصطلحات الأصوليـــة والتعريفات والاختلافات التي وقعت بين الفرق في بعض مسائل العقيدة، مثل: الإيمان بالقدر، والأسماء والصفات، وغير ذلك؛ لأكثر من سبب:

– أن النبـــي ﷺ أمرنـــا أن نخاطب النـــاس على قدر عقولهم، وهذا الخطاب يناسب أهل التخصص العلمي وليس المســـلم البسيط الذي يأتي إلى المســـجد كي يستمع إلى ما يحيي قلبه من الذكر.

– أنّ عامة المسلمين ليسوا في حاجة لدراسة المصطلحات العلمية بقدر ما يحتاجون إلى إشعال الجذوة التي خبت في قلوبهم وبث الروح فيها من جديد.

فهناك فرقٌ بين خطاب طلبة العلم وخطاب العامة، ولكل مقام مقال.

وليعلم الداعي أنّ بداية إصلاح النفوس إنما تكون بزيادة مساحة الإيمان فيها، وارتفاع مستواه إلى الدرجة التي يعلو فيها على حجم الهوى داخل تلك النفوس، وهذا ما يصبو لأن يصل إليه في دعوته.

ويســـير الداعية أثناء خطابه للناس في محاور متوازية تؤدي كلها إلى الأخـــذ بيد المدعوين إلى الله تعالى ومعرفته والإذعان الكامل له ســـبحانه، واتخاذ شرعه منهجاً متكاملاً لحياتهم.

وهذه بعض النقاط الرئيسة التي تمثل مرتكزات يعتمد عليها الداعي في طريقه، مثل:

1 تربية الناس على منهج أهل السنة والجماعة في تلقي العقيدة، ومن أهمها:

أولاً: حصر مصدر تلقي العقيدة في الكتاب والسنة، فطريقة أهل الســـنة والجماعة هي الاعتصام بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رســـوله الصحيحة والتسليم بما جاء عن رسول الله من دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل، وأي عقيدة مستمدة من غير الكتاب والسنة الصحيحة وما بُني عليهما من إجماع؛ إنما هي عندهم ضلالة وبدعة.

ثانيـــاً: فهم النصـــوص بفهـــم الصحابة الذين علمهم النبي ﷺ وكـــذا التابعين وتابعي التابعين أهل القرون الثلاثة المفضلة.

فعن قتادة قال: ســـمعت أبا الســـوار يحدث عن عمران بن الحصين يحدث عن النبي أنه قال: "الحياء لا يأتي إلا بخير". فقال بُشـــير بن كعب: إنه مكتوب في الحكمة أن منه وقاراً ومنه سكينة. فقال عمران: أحدثك عن رسول الله وتحدثني عن صحفك؟".

فصفة التســـليم للنص الشرعي من أهم صفات أهل الإيمان، فكل ما أمر به الشارع أو نهى عنه أو دل عليه أو أخبر به؛ حقه التصديق والتسليم مع الإجلال والتعظيم، فالامتثال بلا تردد، والاتباع بلا هوى.

كما أنّ تربية الناس على هذا الأصل فيها تحصين لهم من خطر الشبهات والأفكار المنحرفة، والتي باتت قريبة من كل أحد في عصر الفضائيات المفتوح.

2 تناول قضايا التوحيد الرئيسة، مثل:

توحيد الربوبية:

يبدأ الداعيـــة بتعريفهم بالله جـــلّ وعلا وربط قلوبهم به، وأحسن السبل إلى ذلك تناول الآيات التي تتكلـــم عن بديع صنع الله فـــي خلقه، وما في الكون من إعجاز؛ بالشـــرح والتفسير، وإحياء عبادة التفكر بالنظر في الكون وفي أنفسهم، والتفكر في كثرة نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى.

توحيد العبادة وسد الطرق الموصلة إلى الشرك:

وهذه هي القضية الكبـــرى التي دعا إليها جميع الأنبياء والرســـل، ودارت حولها جهودهم، ومن أجلها أوذوا وتحملوا تبعات التكليف الشاقة، واستغرقت منهم أعمارهم كاملة.

ويشـــمل هذا المحـــور التعريف بمعنى العبـــادة، ووجوب إخلاص العبادة لله وحده، وبيان الشـــركيّات القولية والعملية التي من الممكن أن يتلبس بها المســـلم، خاصة ما هو معاصر منها.. يقول الشـــيخ محمد خليل هرّاس: "ولما كان هذا النوع من التوحيـــد - يعني توحيـــد الألوهية - هـــو أخطر أنواع التوحيد وأشرفها، فقد احتاط له الشرع أعظم الحيطة ونفى عنه كل شائبة وحرّم كل وسيلة مفضية إلى الإخلال بقواعده؛ حتى يبقى مصون الحِمَى بعيداً عن عوامل الزيغ والانحراف، فنهى عن الألفاظ التي توهم الندية والمســـاواة بين الله وبين أحد من خلقه، كقول: ما شاء الله وفلان، وبيّن أن المخرج هو أن يعطف بـ "ثُمَّ" لا بالواو، ونهى عن الألفاظ التي فيها تعظيم لغيـــر الله، مثل الحلف بغير الله تعالى، وقول: لولا فلان لكان كذا، ونهى عن اتخاذ المساجد على القبور؛ لأن ذلك ذريعة إلى تعظيمها وعبادتها، قال ﷺ: "لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مســـاجد"، كمـــا نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ حتى لا يتشبه المصلون بعبّادها، وغير ذلك من الشركيات التي حذّر منها أمته.

توحيد الأسماء و الصفات:

إن لتوحيد الأسماء والصفات شأناً عظيماً وأثراً كبيراً في القلوب، فعلى الداعي أن يوليـــه عناية كبيرة، لتعلّمه وتعليمه وبثّه في الناس. والقرآن الكريم تضمن الحديث المباشـــر عن الله تعالى؛ عن ذاته، وأسمائه، وصفاته، ومنه يستقي الداعي، فيعلّم المدعوين معاني الأسماء والصفات، وآثارها في النفس والكون والواقع الذي نعيشه، ومعنى إحصائها، وكيفية التعبد للـــه تعالى بها، وقطع الطمع عن إدراك كيفيتها، والإيمان بما ورد عنها في القرآن والســـنة كمـــا وردت في النصوص دون تشبيه أو تكييف أو تعطيل أو تحريف.

إن من أعظم ثمار معرفة أســـماء الله والإيمان بها، الفهم الصحيح لمدلولاتها، والتجـــاوب مع هذا الإيمان وهذا الفهم، بحيث لا تصبح مجـــرد مفاهيم ذهنية لا رصيد لها في واقع الحياة على الفرد والأمة.

إن معرفة الاســـم، ومن ثم معرفة الصفة؛ تجعل المســـلم يتجـــاوب مع تلـــك الحقائق ويتأثر بها، وإنـــه لا بد من العلم الذهنـــي، والإيمان القلبـــي، والتفاعل الواقعـــي.. ماذا تفيد معرفة أن الله هو الـــرزاق وهو يطلب الرزق من غيره؟ ويعلم أنه العزيز القوي الجبار ويطلب العزة من ســـواه؟ ويدرك أنه السميع البصير العَلِيم ولا يستحي منه في صغيرة ولا كبيرة؟ ويقول إنه الواحد وصفته الوحدانية ويشرك معه في الطاعة والعبادة؟ وغير ذلك من أنواع الشرك من الأحياء والأموات.

ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله -: والأسماء الحسنى والصفـــات العلـــى مقتضية لآثارهـــا من العبوديـــة والأمر، اقتضاءهـــا لآثارها من الخلق والتكويـــن، فلكل صفة عبودية خاصـــة، هي من موجباتها ومقتضياتهـــا، أعني من موجبات العلم بهـــا والتحقق بمعرفتهـــا. وهذا مطـــرد بجميع أنواع العبودية التي على القلـــب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب - تعالـــى - بالضر والنفع، والعطاء والمنـــع، والخلق والرزق، والإحيـــاء والإماتة؛ يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً.

وعلمه بســـمعه - تعالى - وبصـــره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطناً، ويثمر له اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجـــوده وكرمه وبره وإحســـانه ورحمته، توجب له ســـعة الرجـــاء، ويثمر له ذلك من أنـــواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلـــك معرفتـــه بجلال اللـــه وعظمته وعـــزه تثمر له الخضوع والاســـتكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعـــاً من العبودية الظاهرة هي من موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنـزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأســـماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه - سبحانه - وأمره هـــو موجب أســـمائه وصفاته في العالـــم وآثارها ومقتضاها.

فلا ينقطع حديث الداعية عن أسماء الله تعالى وصفاته، حتى يمتلئ قلبه وقلوب مستمعيه من محبة خالقهم ومولاهم، وتعظيمه وخشـيته والخضوع له، فيثمر لهم ذلك عدم التردد في طاعته، واجتناب ما يسـخطه، وحـب من يحب، وبغض من يبغـض، فوالله إنهم حينئذ وقد قـرّت أعينهم بمولاهم، لفـي أطيب عيش وأكبر نعيم، وحالهم يصدقه قول ابن القيم – رحمه الله –: (في القلب شـعث لا يلمـه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشـة لا يزيلها إلا الأنس به، وفيه حزن لا يذهبه إلا السـرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الفرار إليه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسدّ تلك الفاقة أبداً).

٣ تأصيل عقيدة الولاء والبراء في نفوس المدعوين:

لأنـه من أصول العقيدة الإسـلامية، ومعنـاه أنه يجب على كل مسـلم يدين بهذه العقيدة أن يوالـي أهلها ويعادي أعداءها، فيحب أهـل التوحيد والإخلاص ويواليهم، ويبغض أهل الإشراك ويعاديهم.

ونظراً لمـا لعقيدة الولاء والبراء مـن أهمية، فإن أعداء الإسـلام ما فتئوا منذ زمن طويل يسـلطون معاولهم لهدمها في نفوس المسلمين، وذلك ليقينهم بعدم جدوى خططهم للنيل منهم ما دام هذا الحاجز المنيع من الشـعور ببغض الكافرين والاسـتعلاء عليهم، موجوداً عند المسلمين، ولقد نجحوا إلى حد بعيد في إضعاف هذه العقيدة والتهوين من شأنها.

والدليل على ذلك واضح بيّن في رضا كثير من المسـلمين بأحـوال الكافرين؛ بداية من ملبسـهم ومأكلهم ومشـربهم، إلى الاحتفال بأعيادهم ذات الأصل العقدي الفاسـد، مروراً باتخاذهم قدوة ورمزاً للتقدم والحضارة..!

فإذا كان هذا هو فهم المسـلم؛ فقد رَضِيَ لنفسه بمركز الذَنَب لسـفلة الناس وأحقرهم.. وهو الذي رفعه الله تعالى بإيمانه وتوحيده؛ ليقود العالم بأسره ويُعَبّده لمولاه جلّ وعلا، فجعله الأعلى بإيمانه، وجعل عُلُـوّه هذا مقتضياً لعزةٍ وفرحٍ دائمين ملازمين له ما دام معه إيمانه بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُـوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنـتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

هكـذا أراد الله لعبده المؤمن أن يكون رأسـاً في الناس بإيمانه قولاً وعملاً واعتزازاً، وجعل ذلك سـبباً رئيساً لنفي الذلة والحزن عنه، ومن ثم إذا تخلى عن هذه المكانة السامقة ورضي بالدون؛ حلت به الأحزان وركبته الذلة.

هـذا الكلام ليس وعظاً مؤثـراً نخاطب به الناس، وإنما قوانين وسـنن ربانية لا تشـذ ولا تخطئ.. هكـذا ينبغي أن نعلمهم إياها.

ومن أفضـل الأوقات لطرح هذه القضية عند ملابسـة المسـلمين لمواطن غيابهـا أو ضعفها، مثل وقـت الاحتفال بالأعياد الدخيلة، مثل: عيد الحب، عيد النيروز أو ما يسمى (شم النسيم).

وكذلك يطـرح الدعاة قضية الولاء والبـراء عند تفنيد مظاهـر التغريـب التي غزت ديار المسـلمين، فـي الأفكار والتوجهات والجوانب العملية، مثل التشبه بالكافرين وتقليدهم في الملابس، وغيرها.

فعليهـم إذاً أن يولوا هذا الجانب مـن العقيدة الاهتمام اللائق به في دعوتهم، فهو الجدار الصلب والسور المنيع الذي يحمي الله به المجتمعات المسـلمة من الذوبـان في ثقافات الكفار وأفكارهم ونُظُمِهم وعاداتهم.

وما أحسن ما أوصى به الشـيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله –، حيث قـال: "إنّ الواجب على الرجل أن يعلِّم عيالـه وأهل بيته الحب في الله والبغض في الله والموالاة في اللـه والمعاداة فيه، مثل تعليم الوضوء والصلاة؛ لأنه لا صحة لإسـلام المرء إلا بصحة الصلاة، ولا صحة لإسلامه أيضاً إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله".

٤ التأكيد على معاني الاعتزاز بالدين والاستعلاء بالإيمان والتوحيد:

والاستعداد التام لبذل الأرواح والمهج في سبيلها، والتأكيد على أن نهضة الأمة تكمن في عودتها للتمسـك بدينها، وأن المسـلمين لم يتأخروا إلا يوم فرّطوا بدينهم وانهزمت معاني العزّة في نفوسهم.

ومـن الممكن عـرض هذا الموضوع مـن خلال القصص القرآني والنبوي؛ (قصة أصحاب الأخدود، مؤمن آل فرعون، مراحل الدعوة المكية وعـرض ما تحمّله النبي ﷺ وأصحابه في سبيل دينهم وعقيدتهم).

٥ ربط العقيدة بالسلوك:

وهذا المحور مهـــم جداً؛ لأنّ مهمة الأنبياء لم تقتصر على مجرد بيان العقيـــدة وتبليغها، إذ إنّ المعرفة الذهنية بمجردها لا تصنع شيئاً مهما كانت قوية وباهرة، بل لا بد أن تنتقل من الذهن إلى القلب فتصبح وجداناً حياً يملؤه، ثـــم تفيض آثار ذلك الوجدان علـــى الجوارح فيتحول إلى سلوك عملي ينبض بروح التوحيد في واقع الحياة، فيصير سلوك المسلم التطبيق العملي لشـــريعة الإسلام، منطلقاً فيه من عقيدته وتوحيـــده، إذ لا يمكن تحقيق الانضباط الشـــرعي في الســـلوك والأخلاق إلا باســـتحضار الأثر المترتـــب عليه في الآخرة ثواباً أو عقاباً، وهذا هو منهج القرآن الكريم في الأمر والنهي، لذلك تجد القرآن يربط بـــين الجذور العقدية والتطبيقات الشـــرعية، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْـــتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُـــمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُـــنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَـــوْمٍ عَظِـــيمٍ﴾ [المطففين: ١ – ٥]، فعنـــد مخاطبة من يطفف الميزان ونهيـــه عن هذا الفعل المحرم، لا بد من التذكير وإثارة الشـــعور بقضيـــة عقدية مهمة، وهي هنـــا قضية البعث بعـــد الموت ثم الحساب على كل ما سبق.

وقال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت".

الربط واضح تمامـــاً في الحديث الشـــريف، كذلك بين العمـــل والعقيدة، فمـــن كان مؤمناً حقاً مصدقـــاً بالله تعالى واليوم الآخر وما فيه من جزاء الأعمال؛ سيدعوه ذلك الإيمان إلى الالتزام بتلك المكارم رغبةً في ثوابها.

هذا هو نهج القرآن الكريم والســـنة النبوية في الإصلاح، فعلاج الانحرافات الخلقيـــة والاجتماعية وغيرها لا يأتي إلا تبعاً لتحقيق التوحيد والاستسلام التام لله عزّ وجلّ والخضوع لأمره وتعظيم شريعته والرضا بها كمنهج متكامل للحياة.

وكلمة أخيرة للدعاة ولكل من عُهِدَ إليه أو حمل على عاتقه تعليم العقيدة والتوحيد:

إنّ قضية العقيـــدة لا تنحصر في بعض القضايا العلمية فقط، لكنها طاقة حية وقوة دافعة، ولذلك مثّل الله تعالى لها بالشجرة الطيبة، عميقة الجذور، وفيرة الثمار، وارفة الفروع والظلال، قـــال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـــجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَـــا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُـــؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٥].

فالكلمة الطيبة، كلمة التوحيد – لا إله إلا الله –، لها أصل ثابـــت في قلب العبد المؤمن من العلم والاعتقاد، ولهذا الأصل فروع باسقات تثمر كلماً طيباً وعملاً صالحاً وأخلاقاً مرضية وآداباً حسنة.

فليست العقيدة دروساً نظرية يعلمها الدعاة للناس، وإنما عليهم أن يعلموهم كيف يقيمون الحياة كلها على مقتضى هذا العلم.

إنّ حاجتنا إلى العقيدة فـــوق كل حاجة، وضرورتنا إليها فوق كل ضرورة؛ لأنه لا سعادةَ للقلوب، ولا نعيم ولا سرور، إلا بأن تعبد ربها وخالقها.

ودعوة النـــاس إلى توحيد الله علمـــاً وعملاً ومعرفة في القلب والضمير، وعبادة وتوجهاً بالعمل والسلوك؛ هي السبيل الوحيد لنصر المسلمين على عدوهم، ولعودة الأمة إلى سالف مجدهـــا وعزّها، وإلى دورهـــا المنوط بها في قيادة البشـــر وتعبيدهم لله تعالى وحده لا شريك له.

ولذلـــك؛ فإن على الدعاة اليوم تبعـــة ثقيلة، إنّ عليهم أن يعيدوا لدروس العقيدة شحنتها الحية المتدفقة بقدر ما تحمله من قوة الحق، كما كانت أول مرة، يوم أن كانت نوراً تســـتضيء به الأمة، وروحاً تحيا بها.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كيف تفرِّغ آلية الديمقراطية الشريعةَ من محتواها

■ مصطفى الحسناوي

المطّلع على الكم الهائل للتقارير والدراسات والأبحاث التي تعدّها وتنجزها المراكز والمراصد والمؤسسات الغربية عن بلداننا ومجتمعاتنا الإسلامية؛ يحس كأن شعوبنا تحت عدسة مجهر يراقب حركاتنا وسكناتنا ويحصي أنفاسنا ونبضات قلوبنا، ولا أكون مبالغاً إن قلت إن هذه المراكز بباحثيها واستراتيجييها، تعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا، ومن ثم فهي تخطط لمستقبلنا وترسم مسارنا بطريقة تخدم مصالحها.

مع هذا الوضع نقول إنه يستحيل أن يسمح الغرب بقيام نظام سياسي (إسلامي)، إلا إن كان عبر أدوات وآليات النظام العالمي الجديد، بل يستحيل قيام حتى نظام وطني شريف يهدف لتأسيس دولة وطنية مستقلة وقوية.

وبوجود شعوب تتوق للحرية والانعتاق بالعودة لدينها تدريجياً والرغبة في أن تسود أحكامه وتعلو شريعته، وبوجود بيئة جديدة مناسبة لتحقق هذا الهدف عن طريق الانتخاب الحر واختيار من يرفع مثل هذا الشعار بالوسائل الديمقراطية؛ تسعى القوى الغربية المتربصة والمتيقظة والمراقبة للوضع عن كثب، للحيلولة دون تحقيق الهدف بشتى الوسائل والسبل، بما فيها الديمقراطية، فتكون هذه الديمقراطية التي يعتقد البعض أنه سيطبق الشريعة من خلالها، وسيلة لإفراغ الشريعة من محتواها، أو لمحاصرتها ومحاربتها وعرقلتها، حسب الظروف والسياقات.

بين أيدينا نموذج لإحدى تلك الدراسات التي أصدرها مركز كارينغي لأبحاث السلام الدولي بتاريخ ١٥ مايو ٢٠١٢.

الدراسة أعدّها أحد أهم وأبرز باحثي المركز أستاذ العلوم السياسية، ناثان براون، خلال فترة النقاشات الدستورية الساخنة في مصر، بعنوان: "مصر والشريعة الإسلامية دليل الحيران".

CARNEGIE-TSINGHUA

CENTER FOR GLOBAL POLICY

ما يهمنا في هذه الدراسة هو الجزء المتعلق بعرقلة تطبيق الشريعة أو إفراغها من محتواها بآليات الديمقراطية، لكن قبل ذلك لا بأس أن نمهد للحديث عن ذلك بتوطئة أراها مهمة وضرورية؛ تبدأ من تعريف أو فهم ناثان براون للشريعة، فهو يسعى جاهداً لتقريبها متخطياً مصاعب الترجمة والإيحاءات والتراكمات التاريخية والبُعد القانوني أو الزجري أو العقابي للشريعة، لذلك فهي عنده مزج بين بُعد تعبدي فردي، وبُعد تنظيمي تقنيني تشريعي عام، وبُعد أخلاقي وقيمي؛ وبالتالي فهي عنده الطريقة الإسلامية لممارسة الأمور، كل الأمور.

بحسب التعريف السابق فإن معارضة الشريعة كطريقة تغطي مساحات شاسعة من السلوك الشخصي؛ أمر جدّ صعب بالنسبة للدراسة المقدمة.. إن مطالبة المسلمين بالابتعاد عن الشريعة أو ممارسة حياتهم بطريقة غير إسلامية؛ أشبه عند الساسة الأمريكيين بتفضيل الطريقة غير الأمريكية.

إلغاء أو إبعاد الشريعة الإسلامية صعب لكنه ليس مستحيلاً، حيث يمكن الحديث عن تحجيم الشريعة، وعن استغلال الثغرات والمنافذ الموجودة فيها لاختراقها وتطويعها أو حتى القبول بما لا يتعارض مع القيم والقوانين الغربية؛ وعن استعمال آليات الديمقراطية والدولة المدنية، أي عن نفس تلك الوسائل والآليات التي أتت بالإسلاميين؛ لعرقلة مشروعهم أو إفراغه من محتواه.

تتحدث الدراسة بكل مكر ودهاء عن إمكانية الالتفاف على مطلب تطبيق الشريعة بالحديث عن روحها ومبادئها ومقاصدها؛ لأنها عامة ويمكن توسيعها لأبعد حد، خاصة إن كانت تتوافق مع المنظومة الغربية، وهنا لا بأس بالحديث عنها وتطبيقها، لكن حين يتعلق الأمر بهامش التفسير الضيق، والمقصود هنا أحكام الشريعة؛ الأحكام الثابتة والقطعية (وليس فقط مبادئها أو مقاصدها أو روحها كما يروج البعض ومنهم إسلاميون للأسف الشديد)؛ فإن التصدي لها يكون عن طريق المراقبة اللصيقة والدائمة وتقديم الاقتراحات والاستشارات، ويمكن تقسيم الوسائل المعتمدة لإفراغ الشريعة من محتواها أو التصدي لها وعرقلتها، إلى:

- وسائل فكرية (اجتهادات، أفكار، أدلة، منطق، وحجج...).
- وسائل تنظيمية (قوانين، مساطر، آليات، مؤسسات، شراكات، ومواثيق...).

ونجمع ما تفرق في تلك الدراسة ونجمله في:

– تشـــجيع الاتجاه الذي يطرح إعادة تفســـير أو تأويل القواعد الأساســـية والنصوص القطعيـــة والأحكام الثابتة، وجعل ذلك مدخلاً لعرقلة تطبيق الشريعة.

– تشجيع الاتجاه الذي يقول باستحالة تطبيق الشريعة لتغيّر الظروف والأحوال، مع الاســـتدلال من داخل الشريعة على ذلك.

– الاســـتدلال ببعض الأحداث والوقائع؛ كعام المجاعة، والادعـــاء بأن الحالة الاقتصاديـــة التي تمر بها البلاد الآن شـــبيهة بالظروف التي أوقف فيها عمر رضي الله عنه حد السرقة، وهي ثغرة واسعة جداً حسب الدراسة.

– استعمال المقاصد للالتفاف على الأحكام وإسقاطها.

– دفع الأفكار السائدة حول دور الشريعة الإسلامية في النظام القانوني والدستوري في اتجاهات مختلفة للغاية.

تبدو الدراســـة معنية ومهتمة جداً بالجهة التي ستوكل إليها مهمة تفسير الشريعة وتطبيقها، لذلك تم طرح سؤال: من سيفسّـــر قواعد الشـــريعة ويطبّقها؟ والجواب عن هذا السؤال جاء على شكل سلسلة من الأسئلة التي يمكن فهمها على أنها اقتراحات أو خريطة طريق لما يجب أن يكون عليه الوضع، خاصة أن الدراســـة معنية بفهم الجهة التي سيُعهَد إليها أمر تفسير وتطبيق أي قواعد قائمة على الشريعة، كما أن الدراســـة مهتمة بالمعنى الدقيق لمختلف الصيغ اللفظية؛ لذلك جاءت المقترحات على الشكل التالي:

– ما الذي ينبغي أن يكون عليه هيكل المحكمة الدستورية العليـــا، حيث من المرجّح أن تكون لها ســـلطة تفســـير أي اصطلاحات دستورية بشأن الإسلام؟

– كيف ســـيتم تنظيـــم المحكمة الدســـتورية العليا في مصر؟ وما يجب أن يكون هيكل المؤسســـات الدينية ودورها في الدولة، بما في ذلك الأزهر؟

– كيـــف يجـــب أن يُنَظّم الأزهر؟ وما الـــذي ينبغي أن تكون عليه طبيعـــة دوره في الدولة المصريـــة ومدى نفوذه الاجتماعي؟

– كيف يجب أن يكون هيكل مؤسســـات الدولة الدينية الأخرى، مثل دار الإفتاء المصرية؟

– مـــا الذي ينبغي أن يكون عليـــه وضع الوثائق الدولية المختلفة لحقوق الإنسان التي وقّعت عليها مصر؟ ومَن يجب أن يكون مسؤولاً عن تفســـير التحفّظات القائمة على تلك الوثائق؟

– ما الأولويـــة التي يجب أن تُعطـــى لإصلاح القانون الجنائي؟

تشـــكّل هذه الأسئلة وغيرها التي هي في عمقها أجوبة ومقترحات، دليلاً عملياً على ما يتعيّن على المراقبين مراقبته، لذلك ورد في الدراســـة العبارة الصريحة التالية: "مراقبة وتحديـــد العناصر التي ينبغي تعديلها فـــي قانون الأحوال الشـــخصية المصري الحالي، وما الذي يجب أن تقوله؟"، ثم طرحت الدراســـة إمكانية الاختيار مـــن بين مذاهب الفقه وأيضاً التفســـيرات المناسبة والأكثر ملاءمة، ثم يوكل الأمر للتشريعات البرلمانية لتسنّها على شكل قوانين.

من الواضح جداً هنا أننا نتحدث عن دولة ذات ســـيادة عصفت ثورتها برؤوس الفساد، وعن انتخابات حرة ونزيهة أفرزت برلماناً إســـلامياً وحكومة إسلامية ورئيساً إسلامياً ودستوراً حصل عليه ما يشـــبه الإجماع الإسلامي، وأغلب جمعيات المجتمـــع المدني والمنظمات والهيئـــات والنقابات المســـيطرة على المشهد إســـلامية.. ورغم هذا الوضع شبه المتماســـك والمتحد والمجمع على رؤية ومشروع وبرنامج ولو في مبادئه وخطوطه العريضة؛ فإن الفيروس الغربي يحاول جاهداً أن ينخر هذا الجسم بأساليبه الماكرة الملتوية وآلياته الديمقراطية التي ابتكرها لتكون قاطع طريق على أي عودة حقيقية للإسلام.

الانتصـار في المناطق الساخنة

■ د. أشرف عبد المنعم

الحياة صراع:

عندما قرر ربنا أنه ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقـرة: ٢٥١]، علمنـا أولاً: أن الحيـاة الدنيا في دار الابتلاء تعني وجود الخير والشـر. وثانيـاً: أن أهل الباطل لا يكتفون بفسـاد خاص بهم، بل يحرصون على إفسـاد الأرض حولهم. وثالثاً: أن الحياة يحصل فيها من الخير بقدر ما يحصل من مدافعة أهل الحق لأهل الباطل.

أهمية المناطق الآمنة:

وبما أن هذا الصراع ممتد وطويل، فإنه يحتاج إلى مناطق آمنة تجمـع فيها فئة الحـق قواها، وتعدّ كفاءاتها، وتحشـد الإمـدادات المطلوبة للاسـتمرار في المعركة، بـل تتخذ فيها القرارات الاسـتراتيجية لإدارة المعركـة بعيداً عن ضغط واقع مؤقت.

دور المناطق الساخنة:

لكن المناطق السـاخنة، وهي أماكن الاشتباك والتدافع بين المعسـكرين؛ تبقى دائماً أماكن الصراع الفعلـي، وفيها تكتب الانتصارات أو الهزائم وتحسـم المعارك، ومنها يكون التمدد أو الانكماش من خلال تحريك الحدود الفاصلة بينهما.

قبل الثورة المصرية:

قلَّل النظام المسـتبد من المناطق الآمنة للعمل الإسـلامي، فحاصر الدعوة في المسـاجد، وفرض السيطرة على النقابات المهنيـة والاتحادات الطلابية، وضيَّـق الخناق على أهل العمل الإسـلامي في مختلف الوظائف الرسمية؛ منعاً أو تهميشاً، لا سـيما ما كان منها متماساً مع الناس؛ كالتدريس، أو يمثل نوعاً من القوة في الدولة؛ كالجيش والشرطة.

فـي مقابل ذلك حرص على زيادة حدود دولته العميقة في كل مفاصل الدولة الرسـمية والمجتمعيـة والاقتصادية، وظلت المناطـق الحدودية السـاخنة يتم تقليلها وتبريدها بالسـلطة الجبرية.

وجاءت الثورة:

فتم الاشتباك بالحشد الجماهيري في الشوارع أمام بطش شرطة النظام، وبقدر ما تزايد الدفع بالاستمرار في الاحتشاد، بقدر ما تزايدت حدود الحرية وتراجعت حدود الاستبداد.. كل ذلك كان باقتحام مناطق سـاخنة وتحقيق نصر حقيقي فيها، نصر كان له ثمنه من الدمـاء والجراحات، بل تحمّل المخاوف من التبعات.

أدت المناطـق الآمنة دورها، فالمخـزون العددي من عموم النـاس وخصوصهم اسـتمروا في العطـاء والدعم؛ ربما لأن النظام قد نجح في إقناع الجميع بأنه لا أمل في مسـتقبل ما دام مستقراً، وربما لأن الطليعة التي كسرت هيبة القوة الجبرية فتحت للناس باب أمل أوهمهم الظالمون أنه لن يُفتح أبداً، وربما أدت ثورة تونس التي سـبقتنا دورها فـي التأثير على الفئتين جميعـاً، وربما أثر كل ذلك وغيره، لكن النتيجة كانت ثورة رآها العالم كله.

مرحلة المجلس العسكري:

حرص المجلس على تبريد الحدود الملتهبة، وتفريغ المناطق الساخنة، فأوهم القوى الإسلامية التي كانت القائد الشعبي بلا منافس، بأن الدولة كلها قد صارت منطقة آمنة لهم، وسكتت المدافع السياسية والإعلامية إلى حين.

في الحقيقة كان المجلس يحتاج إلى وقت وإلى مناطق آمنة؛ للتخطيط والإعداد والتحريك بما يغير معادلة الواقع لا أكثر.

وظهرت المناطق الساخنة مرة أخرى، لكن باختيار عصابة المخلوع هذه المرة، فتم حلُّ مجلس الشعب ذي الأغلبية الإسلامية، مع الدفع بالرجل العسكري الذي كان آخر رئيس وزراء للمخلوع، والذي صرح بأن مبارك مثله الأعلى؛ ليكون مرشح المجلس لرئاسة الجمهورية، بعد استبعاد المرشحين الإسلاميين الذين كانوا مؤهلين للفوز بشكل كبير.

وأدت المناطق الآمنة التي حماها المجلس دورها، فأمدَّ زعماءُ العصابة ممن لهم مال ورجال الفريقَ أحمد شفيق بحملة منتشرة في طول البلاد وعرضها، وقام أصحاب النفوذ في وظائف الدولة الرسمية بدورهم، وألهبت حماسة الشرطة المجروحة بأن سلطة العسكر عائدة ولهم فيها أوفى نصيب؛ كل ذلك في ظل غطاء كثيف من قصف الإعلاميين الذين لم تحسن توبتهم يوماً، مع غطاء قانوني معدّ سلفاً من قضاة لهم تاريخ في التعاون مع النظام البائد.

عبور المرحلة العسكرية:

لقد كانت المكاسب الآمنة التي أرضى وأوهم المجلس بها الإسلاميين، مكاسب هشة يعلم أنه قادر على انتزاعها منهم في جولة تالية، وليست مما يمكّنهم من الزحف إلى مناطقه الآمنة، بل كانت حيلة لسلبهم عناصر القوة الشعبية الثورية التي كان بإمكانهم، من خلالها، أن يحيّدوا على الأقل أجهزة كالقضاء والإعلام، ويقلموا أظافر الأمن السياسي الذي لم يغير فيه إلا الاسم، ويزيدوا من حدودهم الآمنة بشكل حقيقي باقتحام تلكم المناطق الساخنة.

إن الزخم الإسلامي الثوري الذي لم يقنع بما يلقيه إليه المجلس العسكري من المكاسب الآمنة؛ له دور لا ينكَر في تغيير معادلة الواقع؛ فتصعيد الفعاليات ضد العسكر منعهم مما أرادوه من تطويل لفترة حكمهم، والتي لم تكن في صالح الثورة ولا الإسلاميين بحال. وإن الاستبسال في دعم المرشح الإسلامي ذي الفرصة النسبية في الفوز، أمام مرشح المجلس الذي هدد خصومه الإسلاميين بـ "بروفة العباسية"؛ أخَّر ما طمعوا فيه من إعادة دولتهم بمستويات سيطرتها المختلفة. بل إن الرئيس الإسلامي المنتخب لم يُعترف له بالشرعية الحقيقية إلا بعد إقالة قادة المجلس العسكري، والذين أقنعوا الناس من قبل بأنهم الرئاسة الباطنة والأقوى للبلاد.

فلم يتحقق لنا مكسب حقيقي، سواء أكان مادياً أم معنوياً، إلا بالدفع في المناطق الساخنة، وتحمّل المخاطرة فيها، لا باللعب في المناطق الآمنة، وبهذا عبرنا المرحلة العسكرية.

الطريق إلى الاستقرار:

إن عصابة المخلوع تمارس بمهارة اقتحام الحدود الساخنة على الإسلاميين؛ لتحرمهم من حسن استثمار ما حازوه من مناطق آمنة، ولتزيد باستمرار من حدودها الآمنة، ولتقنع عموم الشعب بأنه لا دولة على الحقيقة إلا دولتهم البائدة، مع ترك رصيد سلبي عن فترة ظهور الإسلاميين على قمة المشهد السياسي. والمكاسب التي تنالها الزمرة العلمانية هنا لا تقنعها بالمصالحة التبريدية إلا إلى حين؛ لأنها تدعم خبرتها في طريقة الوصول إلى المصالح، ولأنها تقربها من الهدف الذي تسعى إليه وهو الإطاحة بالإسلاميين واستعادة السيطرة على البلاد.

مع الوقت والاستمرار في المعركة، يفرض ميزان القوة نفسه، بينما يبهت ميزان الحق أمام عيون الأكثرين حتى يكاد يتلاشى. فربما يشفق كثيرون على الضعيف، وربما يلومونه أيضاً، لكنهم إنما يصطفون في النهاية خلف القوي؛ ليعيشوا ويكسبوا. إن من يريد أن يقنع بمكسب هش بارد، فسيدفع ثمناً غالياً ساخناً، وسيخسر معركة يفرضها عليه خصومه. وعليه؛ فلا طريق إلى الاستقرار إلا بحُسن استثمار المناطق الآمنة لدعم اشتباك في المناطق الساخنة، اشتباك يحسن الإعداد له، وترتب له مختلف الخيارات المحتملة، مع استعداد لتضحيات تتطلبها طبيعة المدافعة، وصبر حتى ينال النصر.. وفي التاريخ عبرة.

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

Available on the iPhone App Store

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube